نوال السعداوى- أوراقي حياتي

لحظات سقطت فى العدم

القلم بين أصابعى والصفحة تحت يدى بيضاء. يتحرك القلم دون أن يكتب شيئا. ترمقنى الصفحة البيضاء بسخرية. كأنما لم أكتب فى حياتى سطرا. تبدو اللغة غريبة كلماتها مبنية للمجهول. حروفها مقدسة تخاطب المرأة بصيغة المذكر. كل شئ مذكر فى اللغة حتى الإله والشيطان والموت. الصفحة الخالية من الكتابة لونها أبيض بلون الموت. الكفن أبيض وسرير المستشفى أبيض. معاطف الأطباء والطبيبات ومرايل الممرضات والممرضين. عيناى مفتوحتان لا أعرف إن كنت الطبيبة أو المريضة. الكاتبة أو الصفحة البيضاء غير المكتوبة. المساحات الخالية بين السطور. اللحظات الساقطة من حياتى والسنون. تسرب الروح من الجسد وغياب العقل.

هل عجزت عن الكتابة أم أشرفت على الموت؟ كانت هناك علاقة دائمة بين الموت وعدم الكتابة. فوق فمى كمامة. رائحة الإثير تملأ الجو. ربما هو المخدر. يلجأون دائما إلى المخدر فى مواجهة الوعى. جسدى مصلوب فوق منضدة الجراحة فى غرفة العمليات. أو ربما هى منضدة المشرحة فى كلية الطب. مربوطة الذراعين والساقين بخراطيم من المطاط. أسمعهم يتكلمون عنى بضمير الغائب. كلمة الضمير فى اللغة مذكرة مثل كلمة إنسان. لا يوجد فى اللغة مؤنث كلمة ضمير. أصواتهم متشابهة ملابسهم بيضاء رائحتهم واحدة. مزيج من الإثير وصبغة اليود ودخان سجائر. صوت ينادى إسمى وإسم أبى، لم يكن لى أب واحد، هناك دائما أكثر من أب، إسم الأب الواحد أسطورة، فى التاريخ يحجب الأصل تحت صورة أب رمزى، لغة تجعلنا كائنات مذكرة أو لا نكون. صورة مقدسة تعيش على كبت الحقيقة. تحت تأثير المخدر تطل الحقيقة المكبوتة من تحت الماء مثل رأس جبل من الثلج.

- وأين هى أمى؟

أتلفت حولى أبحث عن وجه أمى بين الوجوه. أصابع حديدية تثبت رأسى فى المنضدة. تزحف الأصابع إلى عنقى تضغط عليه. أيحاولون خنقى لأنى أسأل عن أمى؟ أين اختفت أمى؟ قتلوها؟ دفنوها فى مقبرة ومعها إسمها؟

شطبوا على إسم أمى. مسحوه بالأستيكة. قالوا ربما بعد الموت تحملين إسم أمك، لأن الحقيقة بعد الموت تظهر، ويختفى إسم الأب المزيف.

الصوت ينادى إسمى مرة أخرى. يرن الاسم فى أذنى مألوفا. سمعته مرارا فى مراحل حياتى السابقة. رأيته فوق أغلفة كتبى ورواياتى. الصوت يناديني بلهجة خشنة ذكورية. صوت رجل ملامحه غريبة. هذا الرجل لا أعرفه مع ذلك يمسك يدى المثبتة فوق المنضدة، يقول للأطباء والطبيبات أنه زوجى.

- متى تزوجت هذا الرجل؟!

ارفع يدى لأمسك رأسى. يدى لا تتحرك. الصداع يقسم رأسى قسمين. ذاكرتى لا تسعفنى. لحظات فى حياتى سقطت فى العدم. أحاول استعادتها دون جدوى. هذا الإثير يخدرنى، يستخدمون المخدر لقتل الذاكرة. اقاوم، أفتح فمى لأصرخ. صوتى لا يخرج.

* * * *

مربوطة الذراعين والساقين، فوق فمها كمامة، تفتح فمها نصف فتحة وتقول لهم: لا اريد مخدر! لا أريد أن أفقد الوعى! أنا طبيبة ولست مريضة وإسمى نوال وأمى إسمها زينب أما جدى السعداوى فأنا لا أعرفه مات قبل أن أولد.

* * * *

الصوت يناديها بإسمها وهى لا ترد. زوجها يقول لهم أنها ليست نائمة وليست غائبة عن الوعى. إنها فقط تكتب. وهى حين تكتب تصبح غائبة عن هذا العالم. لا تسمع أحدا ولا ترد على أحد.

قالت لزوجها بعد ليلة الزفاف المؤلمة سأكتب مالا يكتب. كل يوم تجلس إلى مكتبها من أول النهار حتى آخر الليل. القلم بين أصابعها والصفحة تحت يدها بيضاء. تمزق الورقة وراء الورقة. تمزق شعرها. تفتح فمها عن آخره تطلب الهواء. تختنق. تشد الكمامة فوق فمها. تعض بأسنانها الأصابع الملفوفة حول عنقها.

جسمها فوق المقعد اصبح جزءا من المقعد. مربوطة إلى المقعد بالحبال. نصفها الأسفل مربوط لا يتحرك. النصف الأعلى لا نرى منه إلا الرأس المطرق فوق المكتب. القلم بين أصابعها الطويلة السمراء يرسم على الورقة

حروفا سوداء مبتورة. يحتك سن القلم بالصفحة البيضاء. يصنع صريرا خافتا. أذناها تلتقطان الصوت داخل الصمت. ينتصب رأسها وعيناها نصف مغمضتين.

كأنما لم أكتب فى حياتى. لم تمسك أصابعى القلم. لا أعرف اللغة، واللغة لا تعرفنى. هذه الحروف ليست حروفى، لم أتعلمها من أمى، يقولون عنها لغة الأم، وهى لغة رجل غريب مات قبل أن أولد، أحاول النهوض من مقعدى وراء المكتب. قدماى وساقاى مربوطة بالحبال. أسير نحو السرير بجسدى المربوط. أستغيث فى النوم بلا صوت. شريف نائم إلى جوارى مستغرق فى النوم.

أرمقه بشىء من الحسد. منذ تزوجنا عام 1964 وهو ينام بسهولة. يضع رأسه فوق الوسادة وينام فى نصف ثانية. ضوء خافت يسقط فوق الجدار من خلال شقوق النافذة. نسمة خفيفة تحرك النتيجة المعلقة، التاريخ يشير إلى العام الجديد 2000، يبدو الرقم غريبا، يفتح شريف عينيه، يرمق الرقم بدهشة، يا خبر بقينا فى سنة 2000 كده بسرعة؟ أطفو فوق السرير كأنما اعوم فوق الزمان والمكان.

* * * *

الزمن يمضى وأنا متجمدة تحت الغطاء. أحاول النوم دون جدوى. كأنما نسيت كيف كنت أنام، أحاول الكتابة دون جدوى، كأنما نسيت اللغة، شريف نائم إلى جوارى. ترك سريره فى غرفته وجاء إلى غرفتى. تحدثنا قليلا قبل النوم. يكتب رواية جديدة وأنا عاجزة عن الكتابة. كأنما لم أكتب أبدا. عيناى مفتوحان كأنما لم أنم أبدا. يفتح شريف جفونه يرانى محملقة فى السقف.

- مالك يا نوال؟

- مش عارفة أكتب يا شريف، لا يمكن حاكتب أبدا أبدا، كل مرة تقولى كده يا نوال وتكتبى، المرة دى هى الاخيرة يا شريف، كل مرة تقولى هى دى الأخيرة، لأ خلاص هى دى الاخيرة ولا يمكن حاكتب، خلاص فقدت القدرة على الكتابة، حاولى تنامى يا نوال، مش عارفة أنام خلاص فقدت القدرة على النوم.

* * * *

أنهض من السرير وأمشى فى الظلمة. على أطراف أصابعى أمشى حتى لا يشعر بى شريف. أسير إلى الشرفة. نحن فى الدور السادس والعشرين، فى القرن الواحد والعشرين، أمد قدمى إلى السور واقفز فى الهواء.

ثم أفتح عينى، أرى جسمى ممدودا فوق السرير. إلى جوارى القلم والصفحة البيضاء تعلوها خطوط متعرجة بلا كلمات، بلا عبارة واحدة ذات معنى.

يفتح شريف عينيه. يرانى صاحية شاخصة إلى السقف. يربت على كتفى: نامى يا نوال، أهمس بصوت خائر: تفتكر يا شريف إن فيه تناقض بين الزواج والإبداع؟ يضحك شريف، جايز يا نوال، لكن خلاص نعمل إيه بعد خمسة وثلاثين سنة؟!

* * * *

الكتابة فى حياتى كانت تأخذنى إلى بئر عميق فى بطن الأرض. إلى مكان يخلو من البشر. إلى مساحة لا يشاركنى فيها أحد. لا أسمع صوتا. لا شئ يتحرك. صمت مطبق كالموت. كنت أحمل قلمى وأوراقى وأغادر البيت. أمشى وأمشى دون توقف. أتلفت حولى كأنما أبحث؟ اتطلع إلى الأرض والسماء والبيوت والشوارع والعمارات والأزقة. أبحث عن شق أهرب فيه. أختفى داخله وأغلق ورائى سبعة أبواب. لا يكفى باب واحد لطرد الأصوات. ابحث عن الصمت داخل الصمت. أتلفت حولى لا أعرف إلى أين أذهب. اسير بحذاء نهر النيل. اتوقف لحظة أحملق فى المياه أمد قدمى فوق السور واقفز.

اصحو من النوم مبللة بالعرق. الأوراق مبعثرة فوق السرير والقلم فى يدى. إلى جوارى رجل نائم.

النتيجة فوق الجدار مكتوب عليها التاريخ، اليوم والشهر والسنة. أحملق فى الرقم، 1956، هل عادت عقارب الساعة إلى الوراء أربعة وأربعين عاما وأنا غارقة فى النوم؟ الرجل النائم يفتح عينيه. الظلمة شديدة لا أرى من ملامحه إلا العينين. من خلال الضباب الأسود يبرز الأنف. عظمة كبيرة تتوسط الوجه مقوسة قليلا. تحت الأنف شارب أسود كبير.

لا شئ ينفرنى فى الرجال مثل الشعر فوق وجوههم، يذكرنى بالفصائل السابقة لنشوء الانسان.

كان نائما على جنبه الأيسر، ظهره ناحية الحائط وجهه ناحيتى. التاريخ فوق الحائط يشير إلى عام 1956. قشعريرة باردة تزحف إلى جسدى. ذاكرتى تعود إلى السطح بالتدريج أخرج من بطن الأرض جزءا جزءا، أصحو فوق شئ يهتز، جفونى ثقيلة افتحها بصعوبة التاريخ فوق الحائط ثابت عند عام 1956. النافذة مفتوحة بدون زجاج ولا شيش. الهواء البارد ينفذ إلى جسدى وأنا راقدة فوق ظهرى. أسنانى تصطك ارتجف بالحمى. فى حلقى غصة وفى انفى رائحة دم. عيناى تدوران فوق الجدران. المكان غريب لم أره من قبل. الحائط بلا طلاء لونه اسود تعلوه

بقع أكثر سوادا. الشقوق فى الجدران تشبه الشقوق فى الارض يتدلى من السقف سلك كهربى مات فوقه ذباب أسود. الرجل نائم إلى جوارى فوق السرير العريض من الصاج الأسود. عيناه مغمضتان والزمن لا يتحرك. التاريخ ثابت عند عام 1956، بالضبط يوم 23 يوليو 1956. أشد جفونى لأصحو. عيناى مفتوحتان من قبل. لم أغمضهما لحظة واحدة طول الليل. كنت افكر فى الهروب، كيف أهرب والى أين؟

الليل كان طويلا بلا نهاية. مسمار فى الحائط يتدلى منه معطف أبيض تعلوه بقعة دم، حقيبة صغيرة من الجلد الأسود، ملقاة فى وسط الغرفة، من حولها تبعثرت أدوات طبية، سماعة لها خرطوم اسود طويل، حقنة لها ابرة طويلة، اربطة شاش وقطن ، وصورتى فوق بطاقتى ممزقة ومعها أسمى.

لايزال نائما على جانبه الايسر، وجهه ناحيتى، ذراعه اليمنى ممدودة فوق السرير. كنت أترك مساحة كبيرة بيننا، مسافة طويلة أطول من ذراعه الممدودة، يده ضخمة كبيرة، أصابعه غليظة، لم أر فى حياتى أصابع غليظة بهذا الشكل. أتلفت حولى أبحث عن مكان الباب. الظلمة شديدة لا أرى الباب، كأنما الغرفة بدون باب، اربعة جدران عالية سوداء، ولا منفذ للهروب.

هذه الليلة صيف عام 1956 تعود إلى ذاكرتى، ومعها ليلة اخرى فى صيف عام 1941، بالضبط 30 أغسطس 1941. أردت الهروب من بيت أبى وأنا فى العاشرة من العمر. لم تكن الليلة مفزعة مثل تلك الليلة 23 يوليو 1956. اللحظات المنسية فى حياتى تطفو فوق سطح الذاكرة. عيون سوداء صغيرة تلمع وسط خضم من السواد. نجوم تظهر فى الليل من وراء سحابة كثيفة سوداء. الهروب من بيت الأب اقل إفزاعا من الهروب من بيت الزوجية. كلمة "زواج" تعنى باللغة العامية "الجواز"، كانت جدتى تقول: "ربنا كتب علينا الجواز يا بنت إبنى، مصيرك الجواز زى كل البنات، القدر والمكتوب ع الجبين لازم تشوفه العين، جوازتى كانت جنازتى يا بنت إبنى، نحمدك يارب على كل المصايب ولا يحمد على مكروه سواك.

منذ السادسة من عمرى وأنا أحفظ هذه الكلمات الثلاثة عن ظهر قلب، انطقها فى نفس واحد: "ربنا. المصائب. الجواز".

* * * *

كلمة الحب لم تكن هى الجواز. كنت أغنى مع الراديو للحب. لم نكف نحن البنات عن الغناء للحب. لم اسمع فى حياتى أغنية واحدة عن الزواج.

الحب مصيدة الفئران تدخلها البنات آمنات مغمضات العيون مثل القطط المغمضة. يفتحن عيونهن مفزوعات. تحول الحب إلى أربعة جدران سوداء فى بناء آيل للسقوط هو بيت الزوجية.

فى العاشرة من عمرى خفق قلبى بالحب الأول. لم أكن أرى من الرجل إلا عينيه. كان يمكن أن أموت من أجله. إختفى الرجل لحسن حظى قبل أن أهرب من بيت أبى. سافر ولم يترك إلا صورة ضوئية إختفت هى الأخرى وسقطت فى العدم. التقيت به صدفة بعد ثلاثين عاما. رأيت وجها غريبا له أنف طويل مدبب وشفتان رفيعتان إلى حد التلاشى. أيمكن أن يقبل بهما امرأة؟! عيناه صغيرتان غائرتان بلا بريق ولا ضوء. كيف كانت عيناه تغرقنى كالشمس، لم أستطع الحملقة فيهما، كنت أسقط فيما يشبه الإغماءة إن رنت حروف إسمه فى الجو.

فى العشرين من عمرى خفق قلبى بالحب الثانى. عيناه كالحب الأول كانت هى الشمس. هربت من بيت أبى وأمى. تركت كتبى وأوراقى واقلامى وملابسى وصور طفولتى. سرت فى الطريق اليه لا التفت ورائى. تحول الحب لسوء الحظ إلى زواج. فتحت عينى على الجدران الاربعة السوداء، داخل مطبخ فى بيت قديم آيل للسقوط فى حى بمدينة القاهرة إسمه المنيل.

* * * *

بالامس رأيت فيلما مفزعا مخرجه ستانلى كوبريك. مأساة الجنود الأمريكيين فى حرب فيتنام. مكنة الحلاقة ذات الموسى الحاد تدور على رؤوس الشباب فى ربيع عمرهم، تجتز شعورهم عن فروة الرأس، الخراف يسلخون جلودها فى المذبح. يتحول الشاب الفنان الرقيق إلى قاتل سفاح. يدرب على القتل دون أن يطرف له جفن. يقول له المدرب العسكرى:

- سلاحك فى يدك مثل سلاحك بين فخذيك منبع القوة والرجولة.

تدور الكاميرا على أجسام الشباب فى معسكر التدريب، يمسكون باليد اليمنى البندقية، وباليد اليسرى يمسكون العضو الذكرى اسفل البطن، يسيرون فى صف طويل يشبه القطار الطويل يسير فوق القضبان، كل منهم يمسك قضيبه.

كنت جالسة فوق الكنبة الزرقاء العريضة فى الصالة، إلى جوارى شريف يتابع الفيلم. دخل المدرب العسكرى غاضبا إلى أحد الشباب يأمره أن يسلم سلاحه. نهض الشاب واقفا يرمقه بعينين يختفى سوادهما تحت الجفن. تحولت العينان الى مساحة من البياض بلون الثلج. المدرب العسكرى يقترب منه يأمره أن ينزع سلاحه.

الشاب واقف فى مكانه ثابت. البياض فى العينين ثابت. النني الاسود الصغير اختفى تماما تحت الجفن. اللون الابيض فى العينين كالثلج. تحرك اصبع واحد على الزناد. انطلقت الرصاصة فى صدر المدرب العسكرى. سقط إلى الارض غارقا فى دمه. توقف الشاب يلهث. جلس فوق المرحاض. وضع فوهة البندقية فى حلقه. ضغط بأصبع واحد. تفجر الدم من حوله، فوق الجدار الابيض اللامع من السيراميك، فوق السقف الابيض، وبلاط الارضية الابيض، غرق البياض فى دم احمر.

منذ طفولتى يفزعنى الدم الاحمر فوق الملاءة البيضاء. دم العذرية والحيض والختان، قطعة دم متجلطة تنزلق من جسدى وأنا امشى فى الشارع. نقطة دم تتركها الابرة فوق ذراعى بعد أن ينزعها الطبيب. وجه الطبيب يشبه وجه المدرب العسكرى فى الفيلم. وجه ممسوح الملامح رمادى اللون كالجرانيت، والعينان ممسوحتان إلا من البياض الابيض بلون الثلج. واقفا أمامى شاهرا الابرة فى وجهى مثل البندقية.

انتهى الفيلم بعد منتصف الليل. أطفأ شريف جهاز الفيديو. ذهبنا معا إلى النوم. اصبح لكل منا غرفة نوم مستقلة. داخل كل غرفة مكتب صغير ومكتبة لها رفوف تحمل الكتب والاوراق والصور وخطابات الحب السرية. تعودت الكتابة والنوم داخل غرفة خاصة لها باب لا يفتحه احد. الكتابة مثل النوم تحتاج إلى الصمت المطبق. الصمت داخل الصمت.

منذ الطفولة تفزعنى الافلام كأنما هى الحقيقة. يفزعنى الظلام فى الليل. اتسلل من سريرى لانام بجوار أمى أو أختى. تجاوزت الستين عاما والطفلة فى اعماقى هى الطفلة. اخاف الظلام حين امشى وحدى فى الليل. منظر الدم فى الافلام يرتعد له جسدى. يسألنى شريف كيف اشتغلت طبيبة وجراحة فى مستشفى الصدر بالجيزة؟ كيف أمسكت المشرط فى يدك وفتحت الصدر والبطن دون أن يطرف لك جفن؟

واقول لشريف إنها امرأة أخرى تلك التى اشتغلت بالطب والجراحة. أو ربما يختلف الدم المراق تحت أيدى الاطباء والطبيبات عن الدم المراق تحت ايدى العساكر والازواج.

* * * *

صور من الماضى ماتت وراحت فى العدم. احاول استعادتها دون جدوى. اللون الاحمر القانى يلطخ السطح الابيض. مشهد أراه فى النوم حين يغيب الوعى. حين يتسرب اللاوعى إلى الوعى. منذ الطفولة يرتعد جسدى لمنظر الدم.

قطرة حمراء فوق ملاءة السرير البيضاء. من أين يأتى الدم فى الطفولة؟ ولماذا يتكرر دون انقطاع؟ منذ التاسعة من عمرى رأيت الدم فى الفراش. تعودت رؤيته الشهر وراء الشهر، السنة وراء السنة حتى أدبرت طفولتى.

لم تعد البقعة الحمراء فوق الملاءة تفزعنى. أصبح غيابها هو المفزع. افتح عينى كل صباح وأبحث عن البقعة الحمراء فوق الملاءة، فى ملابسى، فى ثنايا النسيج الأبيض أبحث عن قطرة واحدة حمراء.

تمط سامية شفتيها الرفيعتين وتقول، هذه اشياء غير مهمة يا نوال، المهم قضية تحرير العمال والفلاحين من الرأسمالية والامبريالية، ويضحك شريف حين يسمعها تنطق هذه العبارة فى نفس واحد، يعرف انها صديقتى منذ المدرسة الثانوية فى حلوان الداخلية، وقد اصبحت زميلة له فى حزب اليسار منذ اكثر من نصف قرن.

رغم الاختلاف تستمر صداقتى بها، الصداقة القديمة منذ الطفولة تصبح مثل علاقات الدم، حين كتبت عام 1965 عن الختان ومشاكل المرأة الجنسية قالت إننى أخون القضية الوطنية، وفى عام 1972 حين كتبت عن النظام الطبقى الابوى قالت لا يوجد إلا النظام الطبقى فقط أوالمشكلة الاقتصادية، وفى عام 1982 حين بدأنا نشكل تنظيما للنساء اعترضت وقالت لا تمثل النساء طبقة ولا يحق لهن تكوين تنظيم مستقل. ثم نطقت كلمة "فيمنيست" وهى تمط شفتيها الرفيعتين بامتعاض.

لكن سامية تغيرت مع مرور الاعوام، وفى عام 1995 حضرت مؤتمرا للمرأة فى نيويورك، ثم عادت تتحدث عن النظام الطبقى الابوى، وفى عام 1997 اصبحت ترأس تنظيما نسائيا مستقلا، ومجلة للمرأة من النوع الفيمنيست، وفى عام 1998 بعد أن اصدر وزير الصحة قرارا بمنع ختان البنات فتح شريف الجريدة ذات صباح، راى صورة سامية تتلقى الجائزة أو الوسام باعتبارها الرائدة فى مجال النضال ضد منع الختان.

* * * *

فى المدرسة الثانوية كانت البنات يبحثن فى ثنايا ملابسهن الداخلية عن القطرة الحمراء. كان إختفاء الدم فى حياة البنت يعنى كارثة. تخشى البنات الحمل السفاح.

لا يغسل العار إلا الدم، الرجال يقومون بالغسيل، والنساء يفقدن الدم، يتحول القاتل إلى بطل يحمى الشرف، تدفن البنت فى الخفاء ويدفن معها اسمها واسم امها. يتألق إسم الاب بعد مقتل البنت.

منذ قصة العذراء الطاهرة فى التاريخ تخشى البنات الحمل السفاح. يدور السؤال فى رؤوسهن وهن نائمات: أيمكن أن تتكرر القصة فى التاريخ؟ هناك قصص تكررت وجاء ذكرها فى كتب الله. كم مرة تكرر عصيان بنى اسرائيل لأوامر الله؟ كم مرة تكرر غفران الله لبنى اسرائيل؟ كم مرة أرسل الله إلى البشر رسولا يحثهم على الايمان به؟ كم كان عدد الانبياء والمرسلين؟! كم مرة تكرر نزول الانبياء إلى الناس؟ كم مرة ارسل الله مندوبه إلى سيدنا ابراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا محمد؟! لماذا اذن لا يتكرر نزول مندوب الله إلى احدى البنات لتحمل كما حملت ستنا مريم العذراء؟!

فى المدرسة الابتدائية ورد السؤال إلى ذهنى وأنا نائمة. كالحلم الآثم كتمته فى أعماقى. ثم اكتشفت أن جميع البنات احلامهن آثمة. وفى المدرسة الثانوية أيضا همست لى الزميلات بما يدور فى عقولهن اثناء النوم. قالت صفية انها منذ قرأت قصة العذراء مريم وهى تحلم بمندوب الله يهبط اليها فى الليل. وقالت سامية انها لا تؤمن بالله مع ذلك يأتيها المندوب فى الحلم. وفى كلية الطب قالت صديقتى بطة، اما أنا يا نوال فقد جاءنى المندوب فى الواقع والحقيقة وليس الحلم. ثم كركرت بالضحك، بالشهقات المتقطعة كهواء محبوس يخرج من عنق زجاجة ضيق.

* * * *

كنت غارقة فى النوم حين التفت الاصابع الغليظة حول عنقى. كما يحدث فى الاحلام حاولت أن افتح فمى لاصرخ. صوتى لا يخرج. الاصابع الغليظة قوية، اقوى من اصابعى. افتح فمى طلبا للهواء. اشهق بصوت مكتوم. كان يمكن أن استغيث واوقظ الجيران. لكنى رأيت أن الموت أهون من الفضيحة.

كلمة "الفضيحة" كانت تخرق أذنى منذ ولدت. ولادة الانثى كانت فى حد ذاتها فضيحة تتكتم الاسرة الخبر، تتخفى الام الوالدة عن عيون الناس، يغرق بيت المولودة الانثى فى الصمت.

كلمة "انثى" فى حد ذاتها فضيحة، إن قال لى احد انت انثى أصفعه على وجهه. كلمة جنس ترن فى اذنى نابية، لا استطيع أن انطق كلمة "جوزى" بالعامية، انطقها باللغة الفصحى المحترمة وأقول زوجى. كنت قد تزوجت للمرة الاولى تحت اسم الحب الكبير. قصة طويلة بدأت وأنا فى العشرين من العمر فتاة عذراء، وانتهت وأنا فى السادسة والعشرين زوجة عذراء تحولت إلى أم عذراء ثم تحررت بالطلاق.

لماذا لم افقد عذريتى حتى اليوم، بعد أن تجاوزت الستين عاما؟ لكن العذرية مثل القضاء والقدر، مكتوبة على جبين النساء، ليس فى مقدور البشر أن يهتكوا عرض المرأة الصالحة التى تعرف الله، وتعرف انه اصطفى العذراء مريم من نساء العالمين، هى الوحيدة ذكر اسمها فى كتابه الكريم، ولها سورة كاملة فى القرآن باسمها مريم، تتطلع النساء إلى هذا النموذج الامثل للطهر والنقاء؟!

منذ الطفولة أرى السيدة مريم العذراء النموذج الأعلى. أم المسيح. الوحيدة دون النساء أجمعين تم تعريفها بالاسم فى القرآن. جميع النساء الأخريات مجهولات الاسم، حواء زوجة سيدنا آدم، وزوجات سيدنا محمد عليه السلام لم يذكر اسم واحدة منهن فى القرآن حتى السيدة خديجة لم يذكر إسمها.

كان طبيعيا أن يتجه طموح الفتاة المسلمة المثالية إلى مريم العذراء وليس أى امرأة اخرى. منذ أدركنى البلوغ فى سن التاسعة من العمر اقسمت بينى وبين الله، اننى سوف اكون مثل ستنا مريم، وسوف أحمل وألد دون أن امارس الجنس وأصبحت أنتظر كل ليلة مندوب الله.

وطال الانتظار العام وراء العام، ثم جاءنى رجل يتخفى فى الظلام، وهمس فى أذنى أنه مندوب الله. كنت فتاة مثالية يرتعد جسدى حين اسمع كلمة الله اغمض عينى واهمس: يارب ارجو أن تذكر اسمى فى كتابك الكريم كما ذكرت اسم ستنا مريم، ولماذا تصطفيها هى وحدها. ألا يمكن يارب أن تصطفى امرأتين وقد اصطفيت اكثر من عشرين رجلا من الانبياء الصالحين؟!

كان ذلك فى الطفولة الساذجة والمراهقة الأولى. ثم دخلت كلية الطب. اصبحت افصل بين الحلم والواقع، بين الوهم والحقيقة، وقعت فى حب حقيقى وتزوجت زواجا حقيقيا على سنة الله والرسول، وحملت وولدت واصبحت أما حقيقية غير عذراء وغير طاهرة، كان هناك شئ غير طاهر يحدث لى فى الليل، شئ لا يبعث على اللذة بل الألم والاثم، كان زوجى الاول رجلا مكتمل الرجولة. كان فدائيا شجاعا يضحى بحياته من اجل الوطن. عاد من جبهة القتال كافرا بالوطن.

- الخيانة يا نوال!
- خيانة الحكومة يا أحمد.
- الحكومة هى الوطن يا نوال.

- الحكومة شئ والوطن شئ آخر.

- هذا وهم يا نوال.

- هذه حقيقة يا احمد.

- لا وهم، كل شئ وهم يا نوال، خلاص أنا اكتشفت الحقيقة، كنت مخدوع وأنا باهتف الله. الوطن. الحب، الثلاثة وهم يا نوال!

جسدى يرتعد حين اسمع صوته فى الليل يردد "الثلاثة وهم يا نوال". كان يصحو طول الليل. يحقن نفسه بجرعة مضاعفة من الماكسيتون فورت، يجلس وراء المكتب ويمسك القلم بين اصابعه، يكتب كلمتين اثنتين لا غير: "الثلاثة وهم" ثم يشطبهما ويبدأ من جديد "الثلاثة وهم" يشطبهما بالقلم ثم يكتبهما اول السطر.

كان يكتب بقلم رصاص، ويشطب بالقلم ذاته، حين ينقصف القلم يضعه فى البراية، يحركه المرة وراء المرة حتى يصبح له سن طويل رفيع مدبب. يكور الورقة القديمة ويرميها فى الصفيحة تحت المكتب. تمتلئ بالورق المكور، يفرغها فى صفيحة القمامة فى المطبخ ويعود يجلس إلى المكتب.

يفرغ البراية من النشارة بعد أن يبرى القلم وراء القلم، لا يترك القلم إلا بعد أن يصبح أقصر من عقلة الإصبع، لم يكن يخرج من البيت إلا ليشترى اقلام الرصاص، رزم الورق الأبيض، وعلبة الماكسيتون فورت من الصيدلية فى شارع المنيل.

كنت قد تخرجت واشتغلت طبيبة فى مستشفى قصر العينى الجديد أو مستشفى المنيل الجامعى، يبعد عن بيتنا مسافة نصف ساعة على القدمين، أخرج فى الثامنة صباحا وأعود فى الثالثة بعد الظهر. اراه جالسا وراء المكتب فى غرفة النوم. كانت الشقة صغيرة، بها غرفة واحدة، وصالة صغيرة للطعام، ومطبخ صغير، وشرفة صغيرة تطل على فرع النيل الصغير، يتكون البيت من أربعة ادوار، فى كل دور شقتين متقابلتين، ونحن فى الدور الثالث.

كان راتبى الشهرى عشرة جنيهات ونصف، أشترى بها الطعام ومصاريف البيت. كانت أمه تعطيه تسعة جنيهات كل شهر، نصيبه من ميراث أبيه. ينفق الجنيهات التسعة على شراء الأقلام الرصاص والورق وعلب الماكسيتون فورت. قبل الطلاق بفترة قصيرة لم تعد الجنيهات التسعة تكفى. كان يحقن نفسه بجرعة تتزايد يوما

وراء يوم. وهذا أمر معروف فى الطب. إن الجسد قادر على التغلب على اى سموم تمشى فى الدم، مخدرات أو منبهات، يدخل الماكسيتون فورت تحت المواد المنبهة، يحتاج المدمن إلى زيادة الجرعة حتى يتغلب على مقاومة الجسم للمادة الكيمائية.

كان يفتح حقيبتى وياخذ منها ليشترى الماكسيتون فورت. أصبحت أخبئ الحقيبة فى مكان لا يعرفه. بدأ يبيع اثاث البيت. لم يكن عندنا إلا اشياء قليلة. لم يبق إلا السرير الصاج الأسود العريض، والمكتب الخشبى والمقعد الواحد الذى يجلس فوقه طول الليل يكتب عبارة واحدة من كلمتين:

"الثلاثة وهم". ثم يكور الورقة ويلقيها فى الصفيحة.

قبل الطلاق بثلاثة ايام خلع الشيش والزجاج من النافذة، وعاد يحمل علبة الماكسيتون فورت. نمت طول الليل ارتجف بالبرد. كان السرير تحت النافذة. لم يكن عندنا إلا بطانية واحدة. فتحت عينى قرب الفجر رأيته جالسا يكتب ويشطب ويرمى الورق فى الصفيحة.

حين رآنى افتح عينى رمقنى بنظرة غريبة، رأيته رجلا غريبا. صوته اصبح غريبا.

- صحيتى يا دكتورة؟
- أيوه.
- قوليلى الثلاثة دول وهم والا لأ؟
- الثلاثة مين؟
- الله الوطن الحب.
- حقيقة وهم لا يهم، المهم هو انك تبطل هذا السم الذى تحقن به نفسك!
- لا يعالج السم إلا السم وداونى بالتى كانت هى الداء.
- لا يمكن حياتنا تستمر بهذا الشكل.

- طبعا خلاص الحب راح يا دكتورة!

- مش عارفة.

- انا عارف، الحب وهم كبير.

- لأ.

- يعنى مؤمنة بالحب؟

- أيوه.

- مين هو الرجل السعيد يا دكتورة؟ لا يمكن اكون انا، لانى أنا خلاص انتهيت!

- كل شئ يتوقف على ارادتك انت.

- انتهت إلارادة وكل شئ. لم يبق إلا الموت، وكما كنا نقول ايام الحب نعيش سوا ونموت سوا ايه رايك نموت سوا؟

* * * *

ليلة 23 يوليو 1956 قبل أن يطلع الفجر.

العالم يحتفل بعيد الثورة الرابع وأنا اختنق. اصابع غليظة تلتف حول عنقى فى الليل. أحاول أن اصرخ. صوتى لا يطلع كما يحدث فى الحلم. افتح فمى طلبا للهواء. اشهق بصوت مكتوم. كنت افضل الموت عن أن يسمع صوتى احد.

فى حياة النساء كان الموت افضل من إلاستغاثة. المرأة فى الشقة المجاورة كانت تستغيث. اسمع صوتها فى الليل وأنا نائمة. يفتح الجيران نوافذهم يسمعون صوتها. امرأة أخرى تستغيث فى العمارة المجاورة. فى الصباح اسمع الناس يتهامسون.

أب يضرب ابنته لأنها تأخرت فى الليل. رجل يضرب زوجته لأنه وجد حصوة فى صحن الأرز. زوج يقتل زوجته لأنه يشك فى سلوكها. يتهامس الناس وما له؟ الشرف فوق كل حاجة. كل رجل حر فى بيته. الرجال قوامون. ربنا قال واضربوهن. بنات حواء. ربنا قال إن كيدهن عظيم.

يغلق الجيران نوافذهم وينامون. تصحو المرأة على الفضيحة. سيرتها على كل لسان. تكف بعد ذلك عن الاستغاثة. لم اصرخ تلك الليلة؟ منذ الطفولة لم الجأ إلى الصراخ حين يقترب الموت. كنت افكر فى طرق المقاومة أو الهروب.

* * * *

منذ صيف عام 1956 حتى صيف عام 1960 فقدت جزءا من ذاكرتى. أربعة أعوام كاملة نسيت ملمس الأصابع الغليظة حول عنقى. سقطت فى العدم كأن لم تكن. لم يبق منها إلا ظلال سوداء فوق جدار أسود ثم اختفت هذه الظلال أيضا وراحت فى العدم.

فى النوم وأنا غائبة عن الوعى تبدأ الظلال فى الظهور من بطن الخضم الأسود مثل قمة جبل الثلج تحت الماء.

* * * *

<u>بداية عام 2000</u>

القلم بين أصابعى والصفحة تحت يدى بيضاء. مساحة من الفضاء تنتظر كلماتى. النافذة مفتوحة أمامى على السماء. أحملق فى مساحات من الخواء. أبحث عما كان أبى يقول أنه الحقيقة. منذ الطفولة كنت أجادل أبى. لم يكن عقلى يقبل أى شىء دون برهان. يغضب أبى ويقول هناك حقائق ليس لها برهان. يرمقنى بنظرة حمراء لأكف عن الجدل. ولم يكف عقلى عن التساؤل.

كان عقلى مشكلة حياتى، أردت التخلص منه منذ الطفولة، فى سن المراهقة أصبحت بلا عقل، فتاة وادعة مطيعة لا تجادل، لا يدور فى رأسها سؤال، أشياء أخرى تدور فى جسدها، رغبات عارمة يرتج لها الجسد، أحلام فى اليقظة والنوم عن الحب، أشياء لها ملمس مادى، الجسد يعانق الجسد فى الليل. ترمقنى أمى بنظرة حمراء لأكف عن الحب. لم يكن جسدى يكف عن رغباته.

أصبح جسدى مشكلة حياتى. أردت التخلص منه منذ المراهقة. فى سنين الشباب الأولى أصبحت بلا جسد. امرأة ناضجة مثالية حسنة السير والسلوك، زوجة مطيعة لزوجها فى البيت، مطيعة لرئيسها فى العمل، تضحى بحياتها من أجل الأسرة وإن قامت الحرب تضحى بالأسرة وتموت فداء الوطن.

مرت بى أيام أمشى فى الطريق مثل الخيال. شبح من الأموات. شاحبة الوجه مطبقة الشفتين فى صمت. لا شىء يتحرك فى عقلى أو جسدى. منذ زمن طويل فقدتهما. أترنح وأنا أمشى مثل خيال المآتة. كان الموت قريبا منى أكاد ألمسه بيدى. الموت من أجل الوطن من أجل الله، من أجل زوجى، يعلو الله فوق الجميع، من بعده يأتى الوطن أو الملك أو الرئيس، بعد ذلك يأتى الزوج.

فى الليل كنت أهتف يسقط الملك يسقط الزوج يسقط الانجليز. كان ذلك فى طفولتى، تغيرت الاسماء فى مرحلة الشباب، أسمع الشباب يهتفون، يسقط الرئيس يسقط الامريكان، أشاركهم الهتاف وأضيف من عندى ويسقط الزوج.

صديقتى صفية تهتف معى يسقط الزوج، تنضم إلينا الصديقات الأخريات سامية وبطة. الثلاثة زوجات مطيعات يحلمن بالطلاق فى الليل. أربعة وأربعون عاما يحلمن بالطلاق. يتكرر الحلم كل ليلة حتى إنتهى القرن وجاء القرن الجديد الواحد والعشرين.

ذاكرتى تروح وتجىء فى الزمن على نحو عجيب يتلاشى نصف قرن فى لحظة، واللحظة الحاضرة تمتد أمامى لانهائية، يلتحم الماضى بالحاضر فى لحظة واحدة. الصوت يتسرب إلى أذنى واضحا كأننى أسمعه الآن، اقتلوها الكافرة عدوة الله. أهب من النوم على الصوت يزعق فى شارع الجيزة. النافذة مغلقة بالشيش الخشبى والزجاج المزدوج. شريف نائم فى سريره المجاور لسريرى. كان لنا سريران منفصلان فى غرفة نوم مشتركة. الجدران بيضاء نظيفة والملاءة ناصعة البياض، الأرض من البلاط الناعم، أنزلق فوقه حين أمشى، فوق المنضدة الساعة تشير إلى الواحدة، النتيجة فوق الحائط ثابتة عند 31 ديسمبر 1988، عيد رأس السنة الجديدة، أشياء مفزعة تحدث دائما ليلة العيد. منذ طفولتى لا أحب الأعياد، يمتلئ قلبى بالحزن حين يتألق العالم بالفرح.

- أهدروا دمها الكافرة عدوة الله.

جفونى مثقلة بالنوم. يسرى الصوت إلى أذنى قبل أن أفتح عينى. أضواء خافتة تتسرب من شقوق الشيش. أمشى إلى النافذة على أطراف أصابعى. أتوقف لحظة لألتقط أنفاسى.أطل من بين الشق. الشارع ليس فيه أحد. عربة كارو يجرها حمار، صاحبها راقد فوق ظهره يهتز مع اهتزازة العربة. سيارات مسرعة تظهر أنوارها ثم تختفى. الشق ضيق أخشى أن أفتح النافذة. الصوت يزعق، يردد بعض الاسماء، يرن إسمى وإسم ابى وجدى السعداوى الذى مات قبل أن أولد.

- اقتلوهم الكفرة أعداء الله.

أذناى من وراء النافذة المغلقة تلتقطان الاسماء واحدا وراء الآخر، يرن إسمى فى الجو نوال السعداوى، يخترق رأسى مثل طلقة الرصاص. يفتح شريف عينيه. يرانى واقفة وراء النافذة جامدة مثل تمثال.

- فيه إيه يا نوال؟

- سامع الصوت؟

يفتح شريف النافذة، من أين ينبعث الصوت. الميكرفون فوق مئذنة الجامع المجاور لنا. أو الجامع الآخر الجديد فى الشارع الخلفى. أو الجامع القديم وراء الكنيسة. أو المئذنة الجديدة بدون جامع، تبرز بين البيوت من فوقها ميكرفون ضخم. يربت شريف على كتفى: نامى يا نوال وبكرة الصبح نعرف إيه بيحصل فى البلد.

يأتى الصبح ولا نعرف شيئا. لا أحد فى الكون يعرف الحقيقة إلا الله والسيد الرئيس. هكذا قال يوسف إدريس لشريف عبر أسلاك التليفون. يضحك ويقهقه بصوت يهز الاسلاك. أيوه يا شريف ما حدش عارف حاجة، البلد على كف عفريت، فاكر حريق القاهرة فى يناير واحد وخمسين، الحكومة والانجليز حرقوا البلد عشان يضربوا العمل الفدائى فى القنال، أنا متوقع حرايق فى البلد مش حريق واحد، الجماعات الاسلامية دى عملها السادات عشان يضربنا يا شريف، عشان يضرب اليسار كله، وطبعا معاه الامريكان، أنا باسمع إسمى فى الميكروفونات فوق الجوامع، الجوامع دى كلها بنتها الحكومة بفلوس أمريكا، عشان يتخلصوا مننا يا شريف، أنا عارف إن الحكومة والامريكان عاوزين يخلصوا منى أنا بالذات، لأن مقالاتى فى الاهرام أخطر من المقالات فى صحف المعارضة، عاوزين يقتلونى يا شريف.

- مش أنت لوحدك يا يوسف، فيه ناس كثير عاوزين يقتلوهم أكثر منك، لو كانت الحكومة عاوزة تتخلص منك كانوا شالوك من الاهرام يا يوسف.

- أيوه يا شريف، لكن أنا عارف أن الحكومة سايبانى أكتب عشان تكون عندنا معارضة وديموقراطية، لكن المسألة تطورت وخلاص مش عاوزين أى معارضة، على فكرة أنا سمعت اسم نوال، مش عارف ازاى يهدروا دم امرأة؟أ

- زى ما بيهدروا دم الرجل يا يوسف.
- لكن المرأة غير الرجل يا شريف.
- مش فاهم.
- فى الصعيد مثلا دم الرجل هو المطلوب فى الثأر، وفى السياسة أيضا دم الرجل هو المطلوب.
- ليه يا يوسف؟ هو الرجل فقط اللى عنده دم؟!

كان الجدل يدور بين شريف ويوسف عبر أسلاك التليفون. يضحك يوسف بصوت عال، تهتز الاسلاك مع قهقهته ويتحول الحديث من السياسة إلى المرأة.

كان يوسف إدريس زميلا لأحمد حلمى فى كلية الطب وأحمد المنيسى وفؤاد محيى الدين وغيرهم من الطلبة. لماذا بدا أحمد حلمى مختلفا عن الجميع؟! الصوت الهادىء المنخفض. الكلام القليل. الخطوة فوق الأرض الواثقة غير المتسرعة؟ العمل فى صمت دون ضجة. فى الاجتماعات فى المدرج الصغير كنت أراه جالسا فى الصف الأخير. يتنافس زعماء الطلبة على الميكروفون وهو فى مكانه جالس. يدقون بقبضة اليد على المنصة ويلقون

الخطب يثرثرون بأصوات عالية وهو صامت. يتكلمون فى وقت واحد يقاطعون بعضهم البعض، وإذا تكلم أحمد حلمى صمت الجميع.

حين التقيت لأول مرة بشريف حتاتة عام 1964 تذكرت أحمد حلمى عام 1951. برزت ملامحه من العدم. الجبهة العريضة والشعر الأسود الغزير. الحاجبان الكثيفان. العينان. الانف. الصوت. المشية فوق الارض. الكلام القليل والعمل فى صمت. مات أحمد حلمى بعد أن عاد من الحرب مهزوما. ماتت الروح قبل أن يموت الجسد. كان يحقن نفسه بالسم لينسى الخيانة. مات شهيد الوطن مثل أحمد المنيسى دون أن يقام له حفل تأبين.

كان زعماء الطلبة مثل زعماء الاحزاب السياسية، تعلموا منهم قواعد اللعبة. لم يستشهد منهم أحد. لم تسقط من أحدهم قطرة دم. أصبح فؤاد محيى الدين وزيرا للصحة ثم رئيسا للوزراء. كان فى كلية الطب ضمن اليسار، عضو لجنة العمال والطلبة، وفى عهد عبد الناصر كان يخطب عن الاشتراكية والقطاع العام، وفى عهد السادات لم يعترض على شىء، جلس فى مقعد رئيس الوزراء، يتلقى التوجيهات من السيد الرئيس، الانفتاح والرأسمالية والسوق الحرة والقطاع الخاص، ثم سقط فى مكتبه ومات بالسكتة القلبية وهو رئيس الوزراء فى عهد حسنى مبارك.

التقيت بفؤاد محيى الدين لأول مرة عام 1951، فى اجتماعات طلبة كلية الطب بالمدرج الصغير، تخرج قبلنا بعدة سنوات وتخصص فى الاشعة. طويل القامة نحيف الجسم أنيق الملابس يشبه الطاووس. عيناه تتجاوزان كلية الطب إلى وزارة الصحة ومجلس الوزراء. التقيت به أكثر من مرة وهو وزير للصحة. كنا نتحدث فى الأدب والابداع. تتجاوز عيناه جدران مكتبه ويتنهد قائلا: كنت أتمنى أن أكون أديبا مبدعا مثلك ومثل يوسف إدريس، ثم يضحك، أيه رأيك يا نوال نتبادل المواقع، تبقى أنتى وزيرة الصحة وأنا أديب مشهور فى العالم زيك، أضحك وأقول له: إذا بقيت وزيرة الصحة لازم يرفدونى بعد أسبوع.

صوت أبى الميت كان يهمس فى أذنى، الوزير يأتى بقرار ويذهب بقرار، والأديب لا أحد يعينه ولا أحد يعزله إلا قلمه.

لم يكن فؤاد محيى الدين صديقا، رغم حديثنا عن الادب والفن، كان هناك حاجز زجاجى يقف بينى وبينه، ربما كنت أحس أن ميوله السياسية تحجب ميوله الادبية، أن طموحه فى المنصب العالى أكثر من طموحه الادبى. يوم 25 نوفمبر 1981 كان لقائى الاخير بفؤاد محيى الدين، كان جالسا إلى جوار رئيس الدولة حسنى مبارك فوق الكنبة المذهبة فى قصر العروبة، إلى جواره محمد حسنين هيكل، ثم فؤاد سراج الدين، وشخصيات أخرى ممن أدخلهن أنور السادات السجن قبل اغتياله بشهر واحد، هذه الاعتقالات عرفت باسم مذبحة سبتمبر الأسود عام 1981، كنت واحدة من المسجونات، ثم أصدر حسنى مبارك قرارا بالافراج عن الدفعة الأولى من المسجونين بعد اغتيال السادات بشهرين، إنفتح باب السجن فى صباح ذلك اليوم وحملونى من الزنزانة داخل سيارة فولكس فاجون إلى قصر العروبة، حيث استقبلنا رئيس الدولة ورئيس الوزراء فؤاد محيى الدين.

كنت أرتدى حذائى الكاوتش أخفيت داخله رسالة إلى رئيس الدولة أطالبه بالتحقيق فى جريمة اعتقالى دون سبب إلا كتابة رأيى. قبل الاجتماع أخرجت الرسالة من حذائى وناولتها لرئيس الدولة. قرأها كلها حتى آخر سطر ثم قال لى: معلهش يا دكتورة نوال.

رنت كلمة معلهش فى اذنى غريبة، هل يضعوننى فى السجن دون جريمة ثلاثة شهور ثم يقولون لى معلهش؟ ألقى رئيس الدولة علينا خطبة عن نظامه الجديد فى ظل الديموقراطية والحرية والقانون، علينا أن ننسى الماضى ونتطلع إلى المستقبل، قال بلغته هذه الحروف، بلاش ننبش القبور، وكان يعنى أن ننسى فترة السجن، أن ننسى ما فعله السادات بنا وأن ننتظر ما يفعله الرئيس الجديد.

لم يقنعنى هذا الكلام، كنت أرى أن تقييم الماضى ضرورة لعدم تكرار الاخطاء، وأن التحقيق فيما حدث يتمشى مع القانون، ثم لماذا ينتظر الناس دائما ما يفعله رئيس الدولة، لماذا لا يعملون بدلا من مجرد الانتظار؟ ولماذا يصبح رئيس الدولة هو الفرد الوحيد الذى يعمل والذى يتخذ القرار ونحن علينا أن نجلس فى بيوتنا وننتظر؟

بدأ فؤاد سراج الدين يتكلم بعد أن انتهى رئيس الدولة من كلمته. قال فؤاد سراج الدين، يا سيادة الرئيس لقد أنابنى زملائى لأتكلم عنهم، دهشت لهذه العبارة الاولى، لأن أحدا لم يأخذ رأيى فى موضوع الإنابة هذه، كان عددنا ثلاثة وعشرين شخصا، منهم واحد وعشرين رجلا، وامرأتان فقط، أنا واحدة منهما، سألت زميلتى: هل تعرفين شيئا عن هذه الإنابة؟ هزت رأسها بالنفى. سألت الزميل الجالس إلى جوارى، فقال، لا أعرف شيئا يا دكتورة نوال لكنى سمعت أن محمد حسنين هيكل اقترح على اثنين من أصدقائه المقربين إنابة فؤاد سراج الدين للتحدث نيابة عن الجميع، وأبلغوا رئيس الوزراء الدكتور فؤاد محيى الدين بهذا القرار لابلاغه للسيد الرئيس، وبالطبع لم ياخذ رأينا أحد، قلت كيف ينوب عنا أحد دون أن نعلم؟ هذا تصرف غير ديموقراطى كيف نقبله نحن الذين دخلنا السجن لأننا اعترضنا على التصرفات غير الديموقراطية؟ ابتسم الزميل فى أسى وقال، يا دكتورة نوال الأفضل أن نسكت وإلا أعادونا إلى السجن!

لم يعبر فؤاد سراج الدين عما كان يجيش فى صدرى، رفعت يدى وطلبت الكلمة بعد أن انتهى من كلمته، رمقتنى بعض العيون بشىء من الضيق، ثلاثة أو أربعة من كبار الأسماء الذين كانوا داخل السجن بالأمس ثم أصبحوا اليوم شيئا آخر، يتطلعون إلى رئيس الدولة ورئيس الوزراء ويرمقون المساجين الآخرين شذرا.

أعطانى رئيس الدولة حق الكلام، تكلمت، قلت كل ما عندى فى أقل من خمس دقائق، تشجع بعض المسجونين الآخرين وطلبوا الكلمة، ربما تلعثم أحدهم خوفا أو رهبة، إلا أنه فتح فمه وعبر عن رأيه، زميلتى المسجونة تكلمت وطلبت حماية النساء الحوامل فى السجن، وتكلم شاب عن رعاية صغار السن وعدم تعريضهم للضرب أو التعذيب، وفجأة رأيت محمد حسنين هيكل ينظر فى ساعته فوق معصمه وقال هذه العبارة: أظن أن وقت السيد الرئيس ثمين ولا يسمح بمزيد من الكلمات واقترح قفل باب الحديث.

فى لقاء لى مع محمد حسنين هيكل بعد بضعة شهور سألته: لماذا قلت هذا الكلام، وهل وقت الرئيس أثمن من وقت ثلاثة وعشرين شخصا دخلوا السجون دون جريمة؟ وإذا كان هو لم يقفل باب الحديث لماذا تقفله أنت وكنت

مسجونا معنا؟ ثم لماذا لم تأخذوا رأينا فى موضوع إنابة فؤاد سراج الدين ليتكلم عنا؟ ألم تفعلوا بنا ما يفعله أى حاكم دكتاتور رغم أنكم تكتبون عن الديموقراطية؟!

كان شريف معى فى هذا اللقاء وسمعنى أقول هذا الكلام، نظر إليه محمد حسنين هيكل وقال: الدكتورة نوال صعبة أوى مش كده والا إيه يا دكتور شريف؟ ابتسم شريف بهدوء وقال: نوال تعبر عن رأيها وهذا حقها.

بعد اللقاء مع رئيس الدولة يوم 25 نوفمبر 1981 خرجت من قصر العروبة، قالوا لنا داخل القصر أن قرار الإفراج صدر ويمكننا العودة إلى بيوتنا، اجتزت حديقة القصر الكبيرة أشم رائحة الزهور، رمقنى أحد الصحفيين فأقبل نحوى، نظر إلى حذائى الكاوتش مندهشا، وقال أتقابلين رئيس الدولة بهذا الحذاء الكاوتش؟! قلت، ولماذا تنظر إلى حذائى يا أستاذ؟

وقفت عند محطة الأتوبيس أنتظر سيارة أجرة تحملنى إلى بيتى فى الجيزة. فوق الأرض وضعت حقيبتى بها ملابس السجن. أرمق الناس وهى تمشى فى الشارع. كيف يمشون هكذا دون أن تقبض عليهم الشرطة؟ كأنما لم أمشى فى الشارع أبدا بهذه الحرية؟ كأنما رجال البوليس سوف يأتون بعد لحظة لإعادتى إلى السجن. لم تكن كلمتى أمام رئيس الدولة هى الكلمة المطلوبة. انتزعتها من بين براثن السلطة وزملاء السجن. لم يطلبها أحد، لم يرغب فى سماعها أحد تقلصت وجوه الرجال حين تكلمت، بما فيها وجه رئيس الدولة، كيف تتكلم امرأة بهذا الشكل فى أمور لا يتكلم فيها أحد، كلمة فؤاد سراج الدين لم تخرج عن تقديم الشكر والامتنان لرئيس الدولة لأنه أطلق سراحنا. كلمة زميلتى لم تخرج عن طلب حماية المرأة الحامل فى السجن باسم الشفقة، كلمة الشفقة تطرب لها أذن الرجال، الشفقة بالمرأة الحامل الضعيفة، ضعف النساء يؤكد قوة الرجل، الرجولة هى القوة والقوامة، الرجال قوامون على النساء، زميلة السجن كانت ترتدى الحجاب، تؤكد به هوية الأنثى التى يطلبها الرجال. لم تتقلص الوجوه حين تكلمت الزميلة المحجبة، خرجت من السجن وأصبحت صورتها فى كل مكان، تكتب فى صحف الحكومة والمعارضة، تتحدث باسم الإسلام والتراث والحجاب، أصبح لها مقال أسبوعى فى إحدى الصحف الحكومية الكبرى، صورتها بالحجاب على رأس المقال، على وجهها ابتسامة أنثوية ناعمة، شفتاها متوردتان.

أمام باب الشقة فى الجيزة وضعت حقيبتى على الأرض. رأيت اسمى فوق رقعة نحاسية صغيرة. ضغطت على الجرس. فتح شريف الباب. مش معقول! أى مفاجأة! كان يظن أننى فى السجن. لم ينشر الخبر بعد فى الصحف. ألقيت ملابس السجن فى صفيحة القمامة. وأخذت حماما ساخنا. تمددت فوق السرير النظيف الدافىء. الملاءة بيضاء ناعمة تفوح برائحة صابون معطر. أدفن رأسى فى الوسادة الناعمة. أغمض عينى كأنى فى حلم سأصحو منه بعد لحظة وأجد نفسى فى زنزانة السجن.

جاءت ابنتى منى وابنى عاطف من المدرسة آخر النهار. أخفانى شريف فى الغرفة ليصنع لهما المفاجأة. أراهما من ثقب الباب جالسين فى الصالة. سحابة من الحزن تطفو فوق الوجهين الحميمين، عيون أطفال خطف بريقها غياب الأم، خيالهما قادر على اختراق جدران السجن، يكسر القضبان الحديد، يرى الأم جالسة فوق الأرض، تكتب بأصابعها فوق التراب رسالة إلى أطفالها.

فى صباح اليوم التالى قرأ شريف الصحف. خبر الإفراج عن المسجونين فى الصفحة الأولى. برقيات التهنئة إلى السيد رئيس الدولة يتبارى على نشرها الكتاب المعروفون، ذوى الأعمدة اليومية الثابتة أو المقالات الأسبوعية الطويلة، لم يفتح أحدهم فمه حين صدر قرار الاعتقال وتم حبس أكثر من ألف شخص دون تحقيق ودون جريمة. كتب أغلبهم يؤيدون قرار الحبس، وصمت الباقون، قلت لشريف، الصمت فى مثل هذا الوقت جريمة أو على الأقل مشاركة فى الجريمة.

فى جريدة الأهرام ظهرت برقية التهنئة لرئيس الدولة بقلم يوسف إدريس الكاتب الكبير. ظهر إسمه بالبنط العريض. كأنما هو بطل الإفراج عن السجناء، لا يفوقه بطولة إلا رئيس الدولة، أصبح البطلان محط الانظار واختفى المسجونون داخل البيوت أو بين السطور، لا تنشر أسماؤهم إلا بالبنط الصغير جدا لا يكاد يرى بالعين المجردة.

حين كنت فى السجن كتبت رسالة إلى توفيق الحكيم ويوسف إدريس. قلت لتوفيق الحكيم أنت رئيس اتحاد الكتاب ورئيس لجنة القصة بالمجلس الاعلى للفنون والآداب، وأنا عضوة باتحاد الكتاب، وعضوة بلجنة القصة، وقد دخلت السجن دون تحقيق ودون جريمة، أرجو أن ترفع صوتك ضد هذا الحبس غير القانونى، وأن ترسل مندوبا من اتحاد الكتاب ليكتب تقريرا عن حالة الزنزانة التى أعيش داخلها.

وفى الرسالة نفسها إلى يوسف إدريس قلت له أنت زميل لى فى اتحاد الكتاب ولجنة القصة ولك مقال أسبوعى بجريدة الأهرام، أرجو أن تكتب شيئا ضد قرار الحبس دون تحقيق ودون جريمة.

لم ينطق توفيق الحكيم أو يوسف إدريس بكلمة واحدة. لم يجتمع اتحاد الكتاب ليقرر إرسال مندوب ليرى حال الزنزانة. وفجأة بعد قرار الإفراج يخرج يوسف إدريس عن صمته ويرسل إلى رئيس الدولة يهنئه بعبارات التمجيد والولاء.

بعد أيام جاء يوسف إدريس إلى بيتنا فى زيارة، قال إنه جاء للتهنئة، وكان يريد أن يشترى لى باقة ورد لكن جميع مجلات الورد كانت مغلقة، وضحك شريف، يا يوسف بلاش مبالغة، معقول كل محلات الورد قفلت ؟! سهر معنا يوسف إدريس تلك الليلة، ربما كان تحت تأثير مادة الماكستون أدمن عليها مثل أحمد حلمى، يصبح لسانه ثقيلا فى الكلام، يحتقن وجهه ويتورم قليلا، يداه أيضا تتورمان، يميل إلى السهر والكلام دون انقطاع، يصور له الوهم أنه بطلا.

- عارف يا شريف مين السبب وراء صدور قرار الإفراج عن المساجين؟
- مين يا يوسف؟
- أنا يا شريف، أنا اللى ...

شريف يستمع إليه، يبتسم بهدوء ونوع من السخرية الخفيفة، يعرف أن يوسف إدريس لم يرد على رسالتى ولم يكتب كلمة واحدة ضد قرار الحبس، وأنه يعيش وهم البطولة منذ كان طالبا فى كلية الطب، وأن مادة الماكسيتون المنبهة تسرى فى دمه، تصور له الوهم كأنما هو الحقيقة.

كان يوسف إدريس يجلس أمامى منفوخا بالماكسيتون وغرور العظمة، أصبح يحمل لقب الكاتب الكبير، وأصبحت أنا السجينة رقم 1536، الألم فى عمودى الفقرى والنوم فوق أرض الزنزانة، صمت الزملاء والزميلات من الكتاب والادباء، وصمت نقابة الأطباء، أرسلت رسالة إلى نقيب الأطباء فلم يرد.

تلك الليلة لم يكف يوسف عن الكلام، يقول أنه السبب وراء خروجنا من السجن، وكان شريف يتثاءب ويريد أن ينام، وأنا أيضا مللت كلامه عن بطولته الوهمية، وقلت وأنا أتثاءب، أعتقد يا يوسف أنك فى حاجة إلى الذهاب إلى بيتك لتنام. قال، ولكنى لا أريد أن أنام، قلت ولكننا نريد أنا وشريف أن ننام، نهض متثاقلا واقفا فوق قدميه وقال، عرفت يا نوال أننى كنت السبب وراء قرار الإفراج عنكم؟ قلت، وكيف أعرف وأنت لم تنطق بكلمة واحدة حين كنا فى السجن؟!

مثل البالونة المنفوخة بالهواء تثقبها إبرة رفيعة. انكمشت البالونة وجلس يوسف إدريس بعد أن كان واقفا. رمقنى بشىء من الغضب. لم أنس أنه صمت حين كان الكلام واجبا. أكثر ما كان يغضبه أنه لم ينس هو ايضا. أكان ضميره يؤرقه؟! أكان يحقن نفسه بالماكسيتون لينسى دون أن ينسى؟! كان أحمد حلمى يقول، الماكسيتون ليس مثل المخدرات يضعف الذاكرة، إنه أخطر المنبهات جميعا، يشعل الاحاسيس، تلتهب خلايا العقل إلى حد نسيان كل شىء، مع ذلك تظل الذاكرة مشتعلة لم تنس شيئا.

* * * *

أول مرة أسمع عن قائمة الموت أو إهدار الدم كان عام 1988. أرسلت الحكومة حراسة أمام بيتى فى الجيزة، وبودى جارد لحماية حياتى. لم أكن أدرك فكرة إهدار الدم. لم أسمع إسمى يرن فى الليل من فوق الجوامع. وقال شريف ما رأيك أطلب لطيفة الزيات فى التليفون، لابد أن لديها بعض معلومات.

لم تشأ لطيفة الزيات أن تتكلم عبر الأسلاك، أنت عارف يا شريف، التليفونات عليها رقابة، أنا جاية الجيزة ويمكن أمر عليكم بالبيت، بوسلى نوال يا شريف.

كانت لطيفة الزيات صديقتى منذ نهاية الستينات نلتقى بصفة منتظمة فى اجتماعات لجنة القصة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، وكان لها أخ يحتل منصبا كبيرا فى الدولة، يلتقى بالسادات أحيانا، يهمس لأخته لطيفة أحيانا بمعلومات لا يعرفها أحد. حين فقدت منصبى فى وزارة الصحة فى أغسطس عام 1972 همست لطيفة فى أذنى: السادات بيقول لسانك طويل. وأطلقت ضحكتها العالية على شكل قهقهات متقطعة، ومدت يدها البضة الناعمة

وأمسكت يدى، وراحت تضحك دون انقطاع، يتورد وجهها الممتلئ، يقفز الخدان المكتنزان إلى أعلى، يضغطان على العينين الصغيرتين، تنغلق الجفون إلا من شق ضيق يطل منه جزء من النني على شكل خط أسود. يصبح وجهها مستديرا كوجوه الاطفال، يهتز جسمها المربع الممتلىء، أسمع ضحكتها فى الشارع قبل أن أدخل بيتها. تذكرنى بضحكة أمى، لكن جسد أمى لم يكن يهتز، وكان لضحكتها رنين فى الجو يشبه رنين الفضة المجلوة، لم تكن أمى تدخن ولم يكن صوتها مبحوحا أو مشروخا بالدخان. كنت أضحك مع لطيفة وأقول لها أنت مدخنة يا لطيفة، تموت على نفسها من الضحك، ثم تصمت فجأة، تكسو وجهها سحابة حزن وتقول، أعمل إيه يا نوال، خلاص ما فيش لذة فى حياتى إلا دى. وتشير إلى السيجارة بين شفتيها.

كانت تجلس إلى جوارى فى لجنة القصة، يجلس توفيق الحكيم عند رأس المائدة، فهو رئيس اللجنة، يجلس نجيب محفوظ وثروت أباظة عن يمينه، ويجلس يوسف إدريس ويوسف الشارونى عن يساره. يفتح توفيق الحكيم الحديث عن الاشتراكية والرأسمالية، ثم يطرح السؤال: هل الله إشتراكى أم رأسمالى؟ يقهقه يوسف إدريس ويقول: أعتقد أنه من أهل الوسط يا أستاذ توفيق. تقهقه لطيفة الزيات وتقول: يعنى قصدك من الحكومة؟

لم يكن مثل هذا الحديث يعجب بقية الأعضاء، لكن أحدا لم يكن يعترض على الرئيس، منذ الإله إخناتون ورمسيس الأول يحترم المصريون الملوك والرؤساء، يدرك توفيق الحكيم هذه الحقيقة ويسترسل فى حديثه متجاوزا الخطوط الحمراء، يحكى بعض الفكاهات عن الملك فاروق، يضحك يوسف إدريس ويقول: النكتة دى فيها إسقاط يا أستاذ توفيق؟، إسقاط على مين يا يوسف؟! وينفجر أعضاء اللجنة بالضحك، تتصاعد القهقهات مع دخان السجائر حتى السقف.

ثم ينتقل توفيق الحكيم من السياسة إلى المرأة لا يمل الحديث عن المرأة رغم أنه كان يحمل لقب عدو المرأة. تلمع عيناه وهو يتحدث، تدوران على وجوه الرجال أعضاء لجنة القصة، ثم تثبتان على وجه واحدة من الأديبات.

رغم كهولة توفيق الحكيم كان يتمتع بحيوية تفوق الشباب. شعره الأبيض مع البريق فى العينين يضفى عليه جاذبية خاصة. تنقضى الساعة وراء الساعة وهى يحكى النوادر والفكاهات عن أيام شبابه. يحرك رأسه ويديه فى حماس ويقول: المرأة ملاك أو شيطان ولا ثالث لهما. يهتف أعضاء اللجنة فى نفس واحد على رأسهم يوسف إدريس: تمام يا أستاذ!

يرمقنى توفيق الحكيم بطرف عين. يرانى صامتة مترفعة عن الرد أفكر فى شىء آخر. تطلق لطيفة الزيات ضحكتها، القهقهة المتقطعة المتصلة، تشعل سيجارة جديدة بأصابع ترتعش قليلا، يهتز جسمها مع الضحك، تمد يدها المهتزة تحت المائدة وتمسك يدى، تقرب فمها من أذنى وتهمس: عينه عليكى يا نوال!

- مين يا لطيفة؟

- يعنى مش عارفة؟

* * * *

حين دخل أسمى قائمة الموت عام 1988، همست لطيفة الزيات فى أذنى: بيقولوا يا نوال روايتك سقوط الإمام فيها إسقاط!

- إسقاط؟

- أيوه يا نوال.

- إسقاط على مين؟!

- على السادات.

- ده مات يا لطيفة من سبع سنين!

- بيقولوا لسه عايش.

وأطلقت ضحكتها الطويلة المتقطعة الانفاس. أشعلت السيجارة وراء السيجارة، تحكى لى الحكاية المرة بعد المرة، تنسى أنها حكتها من قبل، ترتعش أصابعها وهى تشعل عود الكبريت، تضحك بعد كل عبارة تنطقها وتمد يدها لتمسك يدى.

* * * *

عام 1992 دخل اسمى قائمة الموت مرة أخرى. وضعت الحكومة حراسة مسلحة أمام بيتى فى الجيزة، وبودى جارد يرافقنى ليل نهار. قال شريف، حياتك فى خطر يا نوال، ولابد من السفر إلى مكان بعيد.

لم نكن نعرف من أين تنطلق الرصاصة. من الجماعات الإسلامية أم من الحراس؟ كانت صديقتى القديمة بطة فى مؤتمر إعلامى دولى فى لندن. وكانت سامية فى نيويورك فى مؤتمر نسائى دولى. جاءت صفية إلى بيتى وسألتنى هل لطيفة الزيات صديقتك يا نوال؟ قلت لها نعم هى صديقتى، قالت صفية، غريبة أوى، ليه هى بتقول كلام ضدك يا نوال؟ كلام ضدى؟ يمكن مجرد إِشاعات يا صفية، لأ يا نوال، ده كلام مكتوب فى المجلة، خدى اقرى يا ستى!

كانت مجلة أدبية عربية، وحوار أجرته إحدى الصحفيات مع لطيفة الزيات، سألتها هذا السؤال: كيف تفسرين نجاح روايات نوال السعداوى المترجمة إلى اللغات الأجنبية؟ جاء رد لطيفة الزيات، لأن نوال السعداوى تكتب للغرب!

قبل ذلك بأيام قليلة كانت لطيفة الزيات فى بيتى، كانت تقول لى أننى أهم روائية عربية وأنها سوف تصدر كتابا نقديا عن أعمالى الأدبية. كانت تتحدث بحماس، وتضحك مع شريف وتقول له أنت يا شريف كاتب مبدع، روايتك الشبكة جميلة جداً، هلى تنوى ترجمتها إلى الإنجليزية؟

- دى رواية طويلة جدا يا لطيفة.
- وماله؟
- أنا مشغول بترجمة روايات نوال.
- إشمعنى يعنى؟
- روايات نوال بتعجبنى.

عام 1980 ظهر أول كتاب لى باللغة الإنجليزية، كان شريف هو الذى تحمس لترجمته. نجح الكتاب وترجم إلى لغات متعددة، ومن بعده بدأ الناشرون فى أنحاء مختلفة من العالم يطلبون ترجمة كتبى الأخرى.

وأصبح جرس التليفون يرن فى بيتنا، الأدباء الكبار يأتون إلينا فى زيارات مفاجئة. جاء عبد الرحمن الشرقاوى يحمل عددا من كتبه، أهداها لى ولشريف، بعد أن انتهت الزيارة، قال لشريف وهو يودعه على الباب:

عندك كارت بلانش إذا شفت إن كتاب من كتبى ممكن ترجمته ونشره فى لندن! وقال شريف بهدوء: أنا روائى ولست مترجما يا عبد الرحمن. كانت الزيارة الأولى والأخيرة لعبد الرحمن الشرقاوى. قرأنا نعيه فى جريدة الأهرام بعد شهور قليلة. وكان يوسف إدريس يضحك مع شريف، يداعبه ويقول، يعنى إشمعنى نوال يا أخى اللى أنت نازل ترجمة لرواياتها، ما ترجملى رواية أو مجموعة قصص يا شريف! ويضحك شريف معه ويقول: لازم تعملى شوية إغراءات يا يوسف ثم أنت عندك الحكومة كلها ومؤسساتها والمترجمين بتوعها.

قرأ شريف معى ما كتبته لطيفة الزيات عنى، وبدأ عدد من الماركسيين والماركسيات يرددون ما قالته لطيفة، وعدد من النقاد الأدباء والأدبيات العاجزين عن نشر أعمالهم فى الخارج. كان نجاح روائية مصرية خارج البلاد أمر غير مألوف، وهى لا تتبع لا الحكومة ولا حزب من الأحزاب ولا المجلس الأعلى للثقافة.

حين عادت سامية من الخارج قالت لى، والله يا نوال حاجة تفرح إن كاتبة مصرية تحصل على هذا التقدير والاحترام فى العالم. قلت لها، وما رأيك فيما أشاعته صديقتك لطيفة؟ مطت سامية شفتيها الرفيعتين وقالت شىء طبيعى يا نوال، أنا كمان باحقد عليكى، الغيرة تنهش قلبى وأحيانا أقول يا رب تموتى يا نوال!

يضحك شريف ويقول، أنا باحب صراحتك يا سامية لكن المشكلة ليست الغيرة أو الحقد، المشكلة إن نوال كاتبة مستقلة لا تستند إلا على قلمها، ويمكن أن تنقد الشرق والغرب والحكومة والمعارضة، واليسار واليمين، والمشكلة أيضا تتعلق بالمناخ العام والإحباط، لطيفة الزيات ويوسف إدريس وكثير من الأصدقاء كانوا زملاء لى فى الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى، حين بدأنا الحركة عام ستة وأربعين ضد الملك والانجليز كان المناخ العام أفضل من اليوم. كنا فى مرحلة الشباب عندنا مبادئ وحماس وأمل. المناخ الجيد يبرز أحسن ما فى الانسان. لكن الحركة ضربت ودخلنا السجون. لم يهزمنا السجن لكننا انهزمنا من الداخل. تفككت الحركة وتفرق الزملاء وانتشرت الإشاعات. المناخ السيء يبرز أسوأ ما فى الإنسان. وأنت يا نوال من جيل آخر جاء بعدنا. أما جيلنا فقد تمزق بين الطموح والاحباط، بين تأييد السلطة ومعارضتها، لطيفة الزيات هى المثل على ذلك، هذه الضحكة العصبية دليل على التمزق والإحباط، رعشة الأصابع والإفراط فى التدخين، وابتلاع حبوب الفاليوم، إنها تعرف تماما أنك ناقدة للغرب أكثر منها، وتعرف أيضا أن الغرب ليس شيئا واحدا، وهناك فى الغرب من هم أكثر تقدما وأكثر اشتراكية من الإشتراكيين عندنا، المسألة ليست غرب وشرق، هى تعرف ذلك، ويوسف إدريس يعرف ذلك، لكن المسائل الشخصية تتغلب على المسائل العامة، والإحباط يولد الإشاعات، وما معنى أن يكتب أديب أو أديبة للغرب أو للشرق؟ وأغرب شيء هؤلاء الذين يقولون أن الأعمال الأدبية الناقدة لمجتمعنا تسيء إلى سمعة مصر فى الخارج! أعظم الأعمال الأدبية لابد أن تكون ناقدة لمجتمعها، أهم أعمال يوسف إدريس أو نجيب محفوظ الأدبية هى التى نقدت النظام الحاكم وأشكال الظلم أو القهر فى بلادنا، لكن يوسف إدريس ونجيب محفوظ فى الأهرام، أكبر جريدة حكومية فى مصر، وهما جزء من النظام، يتمتعان بحصانة السلطة، وقد ترجمت أعمالهما إلى اللغات الأجنبية عبر وزارة الثقافة أو المجلس الأعلى للثقافة وكلها مؤسسات حكومية، لكن أعمالهما لم تنجح فى الخارج كما نجحت فى مصر ، لأن النجاح الأدبى فى بلادنا لا يعتمد على جودة العمل فقط ولكن على الدعم الحكومى أيضا، ولا يمكن للكاتب أن يشتهر ويحمل لقب كاتب كبير دون أن تكون له علاقات طيبة بالمسئولين الكبار، وهذه هى المشكلة بالنسبة لك يا نوال أو غيرك من الأديبات أو الأدباء الذين لا يسيرون فى فلك السلطة. إن السلطة فى مصر تملك كل مؤسسات الثقافة والنشر والإعلام والترجمة. ويمكنها أيضا مصادرة أعمالك، وتشويه سمعتك. لكنها لا تملك مصادرة أعمالك المترجمة فى الخارج. شاءت الصدف يا نوال أن تتزوجى شريف حتاتة وأن يقوم شريف بترجمة رواياتك! أتعرفين يا نوال آخر إشاعة عنك؟ يقولون أنك تزوجتينى لأترجم أعمالك! كان شريف يضحك، يحاول أن يخفف عنى وطأة الألم.

كنا فى بداية يناير 1992، نتأهب للرحيل إلى المنفى. أصبح الخطر يحوطنا من كل جانب. يتحدث الناس كل يوم عن قوائم الموتى. الأسماء التى تم إهدار دمها. جرائم تحدث دون أن يقبض على القتلة. الهمس يدور بين الناس، لا يعرفون الوهم من الحقيقة، ولا الإشاعات من الحقائق. كانت الحراسة المسلحة أمام بيتنا، والبودى جارد يتبعنى حيثما أذهب. لا أعرف من أين تنطلق الرصاصة. فى النوم أرى دمى مهدرا فوق أسفلت الشارع. تزحف قشعريرة باردة إلى جسدى من الرأس إلى بطن القدمين، والصوت يزعق اقتلوها الكافرة عدوة الله والإسلام.

* * * *

حدث من وراء الوعى

كنت غارقة فى النوم. رأيت أبى جالسا فى الصالة يقرأ. رفع عينيه إلى واندهش قليلا. نوال؟ متى جئت؟ كيف كانت الحفل؟ تساءلت فى دهشة: أى حفل؟ قال حفل نقابة الأطباء. عادت ذاكرتى فى الحلم أربعين عاما إلى الوراء. قلت لنفسى هل يذكر هذه الليلة؟ إنها الليلة التى مات فيها. الخميس 19 فبراير 1959. أراه جالسا فى الصالة يحدثنى وأعرف أنه ميت. إنتهى القرن العشرين أصبحنا فى القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة. الرقم 2000 إلى جوار تاريخ اليوم يبدو غريبا، ياه، سنة 2000؟. لم أكن أعرف أننى سأعيش حتى القرن الواحد والعشرين. كأنما أختلس من الزمن قرنا جديدا وأعود طفلة فى السابعة من العمر. كلما أتقدم فى العمر أتذكر طفولتى، تبدو أقرب مما كانت، وكانت تبدو بعيدة فى الماضى. كان الأمس يبدو كأنه العام الماضى أو القرن الماضى. ثم تغير الزمن مع التقدم فى العمر. أصبح القرن الماضى كأنه الأمس، أرى وجه أبى الميت قريبا، أكاد ألمسه بأطراف أصابعى رغم مرور نصف قرن. أكاد اسمع وقع قدميه على البلاط فى الصالة. فى المرآة يطالعنى وجهه كأنما لم يغب أبدا. يقول لى شريف أن الحزن على فراق أبى لم يفارقنى. ربما هو يعرف حقيقتى اكثر منى. ربما كان حبى لأبى اكبر حب فى حياتى. لا يفوقه إلا حبى لأمى. قلبى ينوء بحبها بعد أن فرقنا الموت. أيكون الفراق هو شرط الحب؟!

أفقت من النوم على جرس التلفون. صوت سامية يقول أنت نائمة والمظاهرات مشتعلة فى جامعة الأزهر، وقد أذاعوا إسمك ضمن من أهدروا دماءهم من الأدباء، صوتها يأتنى كأنما فى الحلم. ألم يهدروا دمى من قبل؟ ماذا تقولين يا لطيفة؟ أنا لست لطيفة يا نوال، أنا سامية، لطيفة ماتت من ثلاث سنين.

أفقت من النوم. النتيجة فوق الحائط مكتوب عليها التاريخ بخط واضح، 9 مايو عام 2000، سماعة التليفون لا تزال فى يدى، صوت سامية يسرى إلى أذنى، وهى تقول: الشيخ فى الجامع إلى جنب بيتنا عمل خطبة فى الجمعة عليكى يا نوال قال أن كتبك كلها كفر فى كفر، والجماعات الإسلامية حركوا الطلبة فى الأزهر عشان يعملوا مظاهرات ضد رواية نشرتها وزارة الثقافة بيقولوا فيها كلام ضد القرآن، والطلبة فى الأزهر هتفوا ضد وزير الثقافة وضد السيد الرئيس، يعنى المسألة مش رواية المسألة النظام كله، والطلبة غلابة مش عارفين حاجة، بيرو حوا فى الرجلين! وأنت يا نوال يمكن يعملوكى كبش فداء، الشيخ فى الجامع كان بيحرض الناس ضدك، لكن تعرفى إيه اللى حصل؟ أخويا كان فى الجامع بيصلى معاهم، قال لى الناس خرجوا من الجامع بعد الصلاة وراحوا المكتبات يشتروا كتبك! قلت بصوت أبى الميت، رب ضرة نافعة يا سامية. تنهدت بصوت حزين وقالت، يمكن اشتروها عشان يحرقوها مش عشان يقروها.

- يحرقوها يحرقوها يا سامية.

- خسارة الكتب تنحرق يا نوال.

- الحريق يأكل الورق وليس الكتب يا سامية!

- الكتب مصنوعة من الورق وإلا إيه؟

- ايوه فى القرن الماضى، لكن إحنا فى القرن الواحد والعشرين، يا سامية والكتب أصبحت غير قابلة للحرق، تعبر القارات عبر الأثير دون الحاجة إلى ورق أو مطبعة.

- ممكن يحرقوا الكمبيوتر.

- الكتب ليست فى الكومبيوتر.

- أمال فين يا نوال؟

- فى اللوح المحفوظ من مادة غير قابلة للحرق.

- واللوح المحفوظ ده فين؟

- فى السماء يا سامية.

- عند ربنا؟ (ضحكة قصيرة مكتومة تنم عن عدم الأيمان فى الطفولة والأيمان فى الكهولة).

- لأ يا سامية.

- أمال فين يعنى؟

- اللوح المحفوظ ده اسمه " الديسك " من مادة صلبة قوية، وفيه ملايين النسخ، بلايين النسخ، تنتشر فى الكون زى الفيروسات فى الجو وتتكاثر عبر الإنترنت والويب. والقوى الإلكترونية المعروفة والمجهولة.

- وإيه القوة المجهولة؟

- فيه حاجة جديدة إسمها الكوارك أصغر من الإلكترون ويحمل طاقة أكبر، فيه قوى مجهولة داخل الذرة، وداخل خلية المخ، لازال المخ مجهول يا سامية، مخ الإنسان، والخلية الحية والجينوم والذرة والكواكب والشمس والقمر والنجوم، لكن أهم حاجة أن الكتب لم تعد قابلة للحرق!

* * * *

كانت جدتى آمنة والدة أمى ترمقنى بغضب وأنا فى السابعة من عمرى. تقول عنى إننى لا أطيع مثل البنات فى عائلة شكرى بيه. كلما كانت جدتى تقول شيئا غير مقنع اسألها ليه؟ تلسعنى بالعصا الخرزان وتصرخ: مش عاوزة اسمع منك كلمه ليه دى أبدا يا بنت فاهمة؟!

لم أكن أبكى كما تبكى البنات. أدق الأرض بقدمى بغضب، وأقول ليه تضربينى؟! يشتد غضب جدتى حين ترانى أدق الأرض بقدمى، وحين تسمعنى أردد كلمة ليه، أكثر ما يغضبها أنها لا ترى فى عينى أى دموع. إنها جدتى زوجة جدى شكرى بيه مدير القرعة العسكرية. عاشت مقهورة وماتت مقهورة حبيسة البيت كالقصر وقبر من الرخام، لم يكن لها أن تنفس عن غضبها المكتوم إلا بلسع الأطفال بالعصا الخيزران، لم أعرف فى طفولتى ماذا كان يغضبها، حتى همست أمى فى أذنى بالثالوث المقدس، الرب و الأب والزوج، كنت أراها ترمق السماء بغضب وتقول: يا رب! لم تكن تنطق الكلمة الثانية ولا الثالثة. وسألت أمى، ليه مش بتنطق اسم جدى، وضعت أمى يدها على فمى وقالت: اسكتى.

فى الليل أصحو مختنقة بالدموع الحبيسة. تتجمع فى حلقى كالغصة. اسمع شخير جدتى وهى غارقة فى النوم. ملامحها تبدو مستسلمة بلا حول ولا قوة. فى النهار تبدو قوية قاسية أتمنى موتها. فى النوم تبدو ضعيفة مستسلمة. أكره قوتها بمثل ما اكره ضعفها. أود ألا تصحو وتموت وهى نائمة. أعود إلى النوم واحلم أن جدى هو الذى مات. اكره جدى اكثر من جدتى. أدعو الله أن يأخذه. أراه فى الحلم نائما يشخر، أود أن أطبق بأصابعى حول عنقه. أنتفض من نومى مذعورة.أنهض من السرير وأمشى على أطراف أصابعى. أجلس فى الفرندة الواسعة. أتذكر أن جدى مات منذ سنوات، التى ترقد إلى جوارى فى السرير هى خالتى فهيمه، وهى التى أسمعها تشخر فى الليل، وهى التى أريد أن أطبق على عنقها بأصابعى.

فى ضوء مصباح الشارع كتبت فى مفكرتى السرية: حين تراودنى فكرة القتل أمسك القلم واكتب، أرى كلماتى فوق السطور تنتفض، لولا الكتابة لأمسكت الساطور وقتلتها أو قتلت نفسى.

(بيت المرحوم جدى، ضاحية الزيتون، 19 أبريل 1945)

بعد ستة وثلاثين عاما من هذا اليوم، وجدت نفسى داخل زنزانة فى سجن النساء بالقناطر، كانت لى مفكرة سرية أخبئها تحت الأرض كما كنت افعل فى بيت جدى وأنا فى الرابعة عشر من عمرى، يدى ترتعش بالغضب وأنا اكتب هذه الفقرة فى مذكرات السجن: تتطلب الكتابة شجاعة مثل القتل. لو لم تعرف أصابعى القلم ربما عرفت الفأس أو الساطور. يدها، فتحية القاتلة، حين أمسكت الفأس وقتلت زوجها تشبه يدى وهى تمسك القلم. لا شئ فى حياتى اثمن من القلم. الكتابة تتطلب شجاعة مثل القتل واكثر.

(سجن النساء بالقناطر، 14 نوفمبر 1981)

* * * *

كنت جالسة أكتب تلك الليلة من شتاء عام 1960، حين دخل زوجى إلى غرفتى. أمامى فوق المكتب تراكمت الأوراق، رواية طويلة سهرت عليها طوال الليالى والشهور والسنين. كانت تنمو فى أحشائى كالجنين. أحوطها بذراعى. أهدهدها فى سكون الليل. رأسى يسقط وينام فوقها وأنا جالسة. اهبط معها إلى بطن الأرض حيث الصمت داخل الصمت.

كانت الرواية تأخذنى إلى عالم آخر. انسى فيه نفسى وابنتى واخوتى واقرب الناس من دمى ولحمى. فما بال رجل ليس من دمى ولا لحمى ولا يربطنى به شئ، إلا ورقة زواج.

حين اقتحم غرفتى فجأة لم أتعرف على ملامحه. هذا الوجه الأبيض السمين المتورد لم يكن يجذبنى فى الرجال. هذا الجسم المربع الممتلئ باللحم ينفرنى فى النساء فما بال الرجال. والعينان ليس فيهما ما ابحث عنه، والأنف ليست له الارتفاعة التى أحبها، والصوت ليست فيه النبرة التى تجذب أذنى، كل شئ فيه ليس ما أريد فى الرجل، فما بال أن يكون زوجى ؟!

لابد أنها امرأة أخرى تقمصت جسمى واسمى وذهبت معه إلى مكتب المأذون ووقعت العقد. امرأة غيرى ساخرة عابثة لا تؤمن بالحب، ترتدى معطف الأطباء دون أن تؤمن بالطب، تكره الرجال والأمراض ورائحة المستشفيات، لم تدخل كلية الطب إلا من اجل أبيها الميت وأمها الميتة، تكره الزواج منذ الطفولة، لم تتزوج للمرة الثانية إلا لتمسح من ذاكرتها المرة الأولى.

كان زوجها الأول فدائيا. مات بعد أن عاد من الحرب لم يبق منه إلا خيال رجل. وهذا الخيال أيضا راح وسقط فى العدم. قبل الزواج بدأت رواية طويلة، بعد الزواج كفت عن الكتابة، رقدت الاوراق فوق مكتبها مثل جثه هامدة.

كل ليلة حين انام اظن إننى لن أصحو. فى الصباح تعود إلى ذاكرتى مع ضوء الشمس. ارتدى ملابس الخروج. احمل حقيبتى الجلدية السوداء تشبه حقائب الأطباء، أتذكر إننى تخرجت فى كلية الطب واصبحت طبيبة، الساعة فوق معصمى تشير إلى الثامنة، اسرع الخطو فى الطريق إلى المستشفى، اتوقف لحظة التقط انفاسى، أتذكر أننى تزوجت ولى طفلة تحتاج إلى كوب لبن وزوج يحتاج فخذ دجاجة محمرة.

ذاكرتى مثل جبل الثلج تحت الماء، لا أكاد اعرف الزوج الاول من الثانى، كلاهما كان يحب فخذ الدجاجة المحمرة، صديقتى بطة تكركر بالضحك وتقول: حين ينطفئ النور يتساوى جميع الرجال، تعترض صفية وتقول، لا يفرق بين الرجل والرجل إلا الحب. لم تكن سامية تؤمن بالحب، تقول عنه رومانتيكية طفولية، الحب وهم كبير يانوال، الحب قبل الزواج يفسده، والحب بعد الزواج ينتهى بالطلاق، تزوجيه يا نوال لأنك لا تحبيه، لا يصلح للزواج إلا رجل لا يخفق له قلبك، على الاقل لما يخونك مع واحدة ثانية لا تشعرى بالألم!

وامتلأت عيناها بدموع محبوسة. كانت تنتفض بالغضب. صوتها يتقطع وانفاسها تلهث: تصورى يا نوال..... تكرر هذه العبارة مع اللهاث: تصورى!

- اتصور إيه يا سامية؟
- شئ لا يمكن اصدقه!
- إيه يا سامية؟
- تصورى يا نوال...

صوتها يختنق تكف عن الكلام. تنشج بصوت مكتوم، انفاسها تتقطع مع كلماتها، تصورى يا نوال... مش قادرة اتصور يا نوال... تصورى رفاعة جوزى، الرجل المثالى ذو المبادئ، الرجل اللى دخل السجون عشان المبادئ، تصورى رفاعة،... هل ممكن حد يصدق أن رفاعة يعمل كده؟! من يوم ما مسكوه ودخل السجن وأنا زى النحلة رايحة جاية عشان يطلعوه.

- عمل إيه رفاعة يا سامية؟
- تصورى انه له علاقة بواحدة تانية!
- وعرفت ازاى؟
- وقع فى ايدى جواب كتبه لها باين مسكوه قبل ما يبعت لها الجواب.
- مجرد جواب يا سامية.
- رسالة حب يا نوال!
- مجرد حب عذرى حب طاهر رومانتيكى.
- رفاعة رجل مادى جدلى ماركسى لا يمكن يؤمن بالكلام الفارغ ده!

حين سمعت بطه القصة اطلقت ضحكتها الساخرة وقالت: كل الرجالة خائنين يا سامية يمين ويسار ووسط وكل النساء خائنات بنات حواء أو بنات مريم العذراء، الفرق الوحيد بينهم أن الرجل خيانته مكشوفة، لكن المرأة بير من جوه بير، والعلاج الوحيد انك تخونيه زى ما خانك، وربنا قال العين بالعين والسن بالسن والبادئ اظلم. وكمان من حظك السعيد انه محبوس فى السجن! ترددت صفية فى التعليق، اطرقت قليلا تفكر، ثم رفعت الينا وجهها شاحبا وقالت: الطلاق عندى احسن من الخيانة، لأنك يا سامية حتخونى نفسك مش أى حد تانى.

صوت صفية كان يرتعش قليلا، وهذا الشحوب بدا غريبا. اتعيش صفية المأساة نفسها؟! لم تكن صفية مثل سامية وبطة. تميل اكثر إلى الكتمان. كان ذلك فى شتاء عام 1960، وكان لا بد من مرور أربعين عاما حتى اسمع صفية تقول: خلاص يا نوال أنا قررت الانفصال عن مصطفى.

* * * *

كنت اقول لنفسى لا يمكن اتزوج دون حب. كيف يجمعنى فراش واحد مع رجل لا احبه. وتسألنى بطه، وليه مش بتحبيه يا نوال، رجل محترم من رجال القانون مركزه مرموق وعنده عربية وشقة وفلوس وواقع فى غرامك لشوشته، ليه ترفضيه؟ عيبه ايه يا نوال؟

هذا السؤال "عيبه إيه" ظل يحيرنى نصف قرن. كنت اسمعه من أبى وامى وجدتى وخالاتى وعماتى. عيبه إيه العريس يا نوال؟ سؤال لم اعرف جوابه، وبطة تلح فى السؤال.

- مش عاوزة تتجوزيه ليه؟
- مش عارفة.
- عيبه إيه؟
- يمكن...
- يمكن إيه...
- عينيه...
- مالها عينيه؟
- مطفية.
- حا تعملى بعينيه إيه فى الجواز يا نوال؟

تكركر بطة بضحكتها المتقطعة، شهقاتها ترن فى أذنى مثل هواء محبوس، يندفع من عنق زجاجة ضيق، ضحكتها معدية. أضحك رغم الثقل فى القلب، رغم أننى لا احبه سأتزوجه، رغم انطفاءة عينيه، رغم أننى أكره رجال القانون، يصبهم القانون فى قالب واحد كالاسمنت. السؤال يدور فى رأسى. لماذا أتزوجه وأنا لا اريد أن اتزوجه؟ قوة فى السماء أو الأرض تدفعنى إلى الزواج رغم إرادتى؟! قوة غامضة كالوهم. كضغط الهواء الجوى. قوة الهيه أو شيطانية تدفعنى إليه رغم انفى وأنا فى كامل الوعى.

تلك الليلة من شتاء عام 1960 تأخرت فى العيادة. جلست إلى مكتبى بعد أن انتهيت من آخر مريض، وضعت رأسى بين يدى الاثنتين وسقطت فيما يشبه النوم. هذه الحالة المتأرجحة بين النوم واليقظة. اللحظة التى يغيب فيها العقل الواعى، تختفى الأنا العليا تحت سطح البحر، يبرز رأس جبل الثلج من تحت الماء. يرمقنى مثل عين فى السماء، عين مفتوحة لا يطرف لها جفن. ساهرة طول الليل لا تنام. أهى عين الله ام عين الشيطان؟! الاثنان كنت اخافهما بدرجة واحدة، امسك القلم واكتب، كلماتى فوق الورق متقطعة، انفاسى تلهث، ذؤابة ضوء يضربها الهواء تكشف عن الشىء المتخفى فى الظلام، لا ينتمى إلى طقوس اللغة أو الكتابة، يتمرد على كل ما هو مألوف. يخلق من حوله اضطرابا وقلقا وتشكيكا فى كل ما درجت على الإيمان به. يفرض علىّ القطيعة مع مفردات اللغة، والاستغناء عن الثواب والعقاب، يدفعنى نحو الجهول خارج المفهوم.

أفقت على صوت سامية. كانت تمر علىّ بالعيادة حين تشتد بها الازمة. زوجها رفاعة فى السجن مع اسعد شقيق صفية. منذ الاحداث الاخيرة فى العراق امتلأت السجون بكل من رأى أن الوحدة الفيدرالية مع العراق افضل من الاندماج الكامل. كان جمال عبد الناصر يرى أن الوحدة الاندماجية افضل، دخل السجون كل المعارضين فى الرأى. جاءت سامية وراحت تشرح لى الفرق بين الوحدة الفيدرالية والوحدة الاندماجية، كان لصوتها نبرة خطابية تؤلم الاذن. إن ارتفع صوتها أو انخفض تظل هذه النبرة المؤلمة، إن فرحت أو ضحكت يظل لصوتها رنين متشائم يوشك على البكاء. منذ المدرسة الثانوية كانت صديقتى. يجذبنى اليها اختلافها عن بطة وصفية وبقية الزميلات. وجهها النحيل الشاحب دون مساحيق. شفتاها الرفيعتان المزمومتان بقوة غير انثوية، احاديثها عن ماركس والفرق بين الدياليكتيكية المادية وغير المادية. ولينين وعبد الناصر. تغيرت سامية قليلا قبل زواجها من رفاعة أيام الحب، بدأت تكحل عينيها قليلا، تضفى على خديها وشفتيها شيئا من اللون الاحمر الشاحب، لم تتغير نبرة صوتها بل زادت حدة، وتواصل حديثها. أستمع اليها ورأسى بين يدى الاثنتين:

- تفتكرى عبد الناصر مخلص للبلد يا نوال؟ الوحدة العربية فشلت بانفصال سوريا عن مصر، والديموقراطية فشلت بدخول المعارضين السجون، والاشتراكية فشلت، لا فيه تنمية ولا فيه تذويب الفوارق بين الطبقات، والاموال اللى عادت لمصر بعد تأميم قناة السويس وتأميم الشركات كلها راحت فى جيوب الطبقة الجديدة من ضباط الجيش واعوانهم، لا يمكن عبد الناصر يكون مخلص للبلد يا نوال!

يزداد صوتها تشاؤما حين تنتقل من حديثها عن عبد الناصر إلى زوجها رفاعة.

- تفتكرى رفاعة مخلص يا نوال؟

كنت منشغلة بسؤال آخر يدور فى رأسى، لماذا أتزوج رجلا لاأحبه؟

- هل عبد الناصر مخلص يا نوال؟ هل رفاعة مخلص؟ هل الاخلاص الزوجى منفصل عن الاخلاص الوطنى؟

- إيه اللى يجبرنى يا سامية انى اتجوز رجل لا احبه؟ أهى خيانة له ام خيانة لنفسى؟

- المناخ العام الفاسد يؤدى إلى حياة خاصة فاسدة.

- الفساد فى الحياة السياسية والثقافية والاقتصاد يؤدى إلى فساد فى الحب والجنس؟! خيانة النفس هى خيانة الآخر.

- يا خسارة يا نوال، كان بينى وبين رفاعة حب جميل قبل ما نتجوز، المشكلة فى مؤسسة الزواج يا نوال؟

- المشكلة فى النظام كله يا سامية.

- عشان كده الراجل منهم ممكن يكون يخون مراته والواحدة فينا ممكن تكذب على نفسها وتقول لجوزها أنا باحبك وهى مش طايقة تشوفه، أو تقوله أنت الرجل الوحيد فى حياتى وهو مش الوحيد!

أطبقت شفتى فى وجوم. تذكرت أننى قلت لزوجى الأول أنه أول حب فى حياتى مع أنه كان الحب الثانى. وسوف اقول لزوجى الثانى إننى احبه مع إننى لا أحبه. قوى غيبية تدفعنى إلى الكذب، تختفى وراء سحابة فى السماء، أو ربما هو عام 1960 عام الهزيمة الصغرى، كما كان صديقى رجاء الشاعر يقول. تنبأ بوقوع هزيمة 1967 قبل أن تقع بسبعة اعوام. وفى احدى الندوات الادبية بالعيادة القى قصيدة مطلعها هذه الابيات:

كل شئ من حولنا ينبئ بالهزيمة.

السحب فى السماء ووجوه الرجال العسكرية.

لا امل فى هذه الطبقة الجديدة ولا فى كتابة الشعر.

الكلية الحربية لا تخرج إلا الجهلاء.

إن اصحبوا هم الوزراء.

فليس امامنا إلا الموت أو السجن.

أو المنفى خارج البلاد.

قوة تشبه اليأس أو الهزيمة تدفعنى إلى الموت أو الزواج. كان العريس صالحا فى نظر الجميع، حتى ام ابراهيم أصبحت تلح علىّ كل يوم، اتجوزيه يا ضكطورة ده الجواز سترة وعشان تجيبى للمحروسة بنتك اخ أو اخت، وفى حفل الزواج الصغيرة همست صفية فى أذنى، نظره سليم ستة على ستة ومش لابس نظارة نظر زى جوزى، وكركرت بطة بضحكتها وقالت: عينيه مطفية احسن يا نوال عشان ما يشوفش حاجة! ومطت سامية شفتيها فى امتعاض، الواقع يا أخواتى أن الإخلاص انتهى من الوجو

الصورة الممزقة

لم يكن يتركنى أكتب داخل غرفتى. لا يكف عن فتح الباب والدخول. يحاول قراءة ما أكتب .لا شئ يجهض الرواية قبل أن تكتمل إلا العين الغريبة .لا أحد يقرأ ما أكتب إلا بعد النشر .تعودت أن أكتب داخل غرفة بابها مغلق. لا أحب النور الكهربى الشديد الإضاءة. يكفينى الضوء المتسرب من المصباح فى الشارع. أو لمبة صغيرة يسمونها سهارة، أو لمبة جاز حين تنقطع الكهرباء. يكفينى أن أرى حروفى فوق الورق، ويغرق بقية المكان فى الظلمة. تنمو الرواية فى خيالى كالظلال المتحركة فى الأركان .تبدأ ذاكرتى تصحو حين ينام الكون .أجلس فى الظلمة ساكنة داخل الصمت .لا تصحو ذاكرتى إلا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات أنسى فيها مشوشات النهار. أنزع قشرة المخ، الأنا العليا والكذب، أشدها بأصابعى مثل خصلة شعر أو قطعة من فروة الرأس، أحسها تحت يدى مثل الندبة، أو الجرح القديم المفتوح، يلتئم فى الظلمة مع مرور الزمن داخل السكون .تبدأ ذاكرتى تصحو، يتحرك القلم فوق الورق، يندفع وحده فوق السطور، صوت فى أعماقى كالوحى يمليه الكلمات، تتدفق الرواية كمياه النهر الهادئ، يصبح شلالا الساعة بعد الساعة. ينتفض القلم بين اصابعى، يسرى فى ذراعى تيار ساخن يصعد إلى رأسى ويهبط إلى القدمين، شحنات من الدم تتدفق إلى جسدى كالمصابة بالحمى .انتفض وأنا جالسة فى مقعدى وراء المكتب .

لم يكن يتركنى لأكمل الكتابة كأنما الرواية جنين فى أحشائى من صلب رجل آخر، يريد إجهاضها. يفتح الباب ويدخل. إن وجد الباب مغلقا يدقه بقبضة يده .يفتح الراديو بأعلى صوت. يطرقع بالقبقاب فوق بلاط الحمام، يجلس فى الصالة ويتحدث فى التليفون بصوت يصل إلى الجيران، أو يتحدث مع الزوار فى غرفة الاستقبال ويقهقه بصوت يرج الجدران .

كانت أمه تزورنا كثيرا .أسمع صوتهما من وراء الباب المغلق .يشكو لها منى .

" -اتجوزت يا ماما واحدة مجنونة، تصحى فى نص الليل تكتب ."

تمصمص الأم شفتيها فى حسرة، "معلش يا ابنى كل شئ قسمة ونصيب، وانت اللى اخترتها، والكتابة ما فيهاش ضرر، أحسن ما تخرج زى النسوان التانية فى الشوارع وتصرف الفلوس على مافيش، كان لازمك يا ابنى واحدة تانية مكسورة العين تكون بين إيديك وتحت رجليك، لكن خلاص أهى بقت مراتك، يمكن ربنا يهديها لما تولد، ربنا يرزقك بابن يقولك يا بابا ويقولى يا نينة، ياما نفسى أعيش واشوف ابنك يارب يا كريم، وأهى حامل فى شهرين ."

-حامل فى شهرين؟

ترن الكلمات فى أذنى وأنا منكفئة أكتب .أرفع رأسى من فوق المكتب. أتلفت حولى كمن تصحو من الحلم. أو كمن تسقط فى النوم .صوت يتحدث عن امرأة حامل فى شهرين .صوت غريب لم أسمعه من قبل. والمرأة الحامل أيضا لا أعرفها. ليست هى أنا بالتأكيد .إن كانت هى أنا فالامر شديد الخطورة .كارثة! كيف يحدث الحمل دون حب ودون زواج، دون أن أفقد العذرية؟ !

ربما هو حلم. منذ الطفولة يراودنى هذا الحلم .الله أرسل إلىّ مندوبه فى الليل وارتفع بطنى بالحمل .فى السابعة من عمرى كنت أتحسس بطنى تحت الغطاء، أخشى أن يرتفع بالحمل. كانت البنات فى المدرسة يتهامسن بكلمة لا أفهمها .الحمل السفاح .تشرحها لى البنات دون جدوى. الشيطان إبليس هو وراء الحمل السفاح .قبل أن أنام أسد شقوق النافذة بالصحف القديمة حتى لا يتسلل منها إبليس. صديقتى القبطية إزيس لم تكن تسد شقوق نافذتها. كانت تؤمن بالحمل المقدس، وليس الحمل السفاح، تشرح لى الفرق بينهما. ستنا مريم العذراء، تسلل إليها مندوب الله فى الليل وحملت بسيدنا المسيح .هذا هو الحمل المقدس .لم أعد أسد الشقوق فى نافذتى. مثل صديقتى إزيس أحلم بمندوب الله فى الليل. أتحسس تحت الغطاء ارتفاعة بطنى. كنت فى السابعة من عمرى أنشد المثالية فى كل شئ حتى الحمل .

-حامل فى شهرين؟ !

الصوت الغريب يخرق اذنى مثل رصاصة. أنتفض فى مقعدى وراء المكتب. يسقط القلم من يدى. أرفع وجهى من فوق الأوراق .أرى أمامى امرأة عجوز تلف رأسها بطرحة سوداء. بشرتها بيضاء وجهها سمين مستدير. عيناها صغيرتان غائرتان فى اللحم. ترمقنى بنظرة الحدأة .نظرة فاحصة مدققة تهبط إلى بطنى تخترق جدار الرحم . تستكشف الجنين فى أحشائى، تفتح فخذيه تبحث عن عضو الذكر. تريد التأكد أنه طبق الاصل من صلب أبيه وليس من صلب رجل آخر .

منذ تزوجت كان الغثيان يصيبنى كل صباح .أغلق الباب وأفرغ معدتى فى الحوض .فى طفولتى سمعت جدتى تقول أن الزواج يصد النفس عن الأكل .وقالت أمى أنه الحمل وليس الزواج .عرفت أن الحمل يعنى انقطاع الدم .

حملت فى الزواج الأول وأنجبت طفلة جميلة .كانت إبنة الحب وليس الزواج. لم أكن أومن إلا بالحب . تصورت أن الزواج بدون حب ينتج عنه أطفال مشوهون .أتحسس بطنى وأنا جالسة وراء المكتب .فى أحشائى حمل غير مقدس. جنين مصنوع من الكذب .نطقت كلمة أحبك لرجل لا أحبه. يقاسمنى الفراش تحت إسم الزواج. بشرته بيضاء، وجهه سمين ممتلئ مثل أمه وأنا أحب الوجوه النحيفة الرشيقة .قامته قصيرة، جسمه مربع مكتنز باللحم وأنا أحب القامة الطويلة الممشوقة. يداه صغيرتان بيضاوتان ناعمتان خجولتان أصابعهما قصيرة مضمومة، وأنا أحب اليد الكبيرة الشجاعة المفتوحة .

كل صباح أفتش عن قطرة حمراء فى ملابسى أو فوق الملاءة .أفتح عينى كل يوم ابحث عن نقطة دم .تظل الملاءة نظيفة بيضاء ناصعة البياض .يصدمنى اللون الابيض. يذكرنى بالموت والمرض والكفن الحريرى ومعاطف الاطباء والأسرة البيضاء ورائحة المستشفى .

بدأت أرى فى الحلم ملاءة حمراء بالدم. منذ طفولتى كرهت دم الحيض. الأذى من عند الله. ويسألونك عن الحيض قل هو أذى، ولا تقربوا النساء حتى يطهرن .كان الغثيان يصيبنى منذ الطفولة حين أرى بقعة الدم فى ملابسى أو فوق الملاءة. أصبحت أنشدها فى النوم واليقظة. أحلم بها، أستحضرها، أشدها من براثن القضاء والقدر، أضرب بطنى بقبضة يدى، أقفز من فوق السور فى الشرفة .كنا نسكن فى الدور الأول فى بيت أبيض كبير من دورين .لم يكن ارتفاع الشرفة كافيا لإسقاط الجنين .إنه جنين شرس يتشبث بجدار الرحم كالقملة تلتصق بجلدة الرأس .جنين مكتنز الوجه عيناه صغيرتان غائرتان فى اللحم مثل أبيه وأم أبيه .

حاولت طرد الجنين الغريب من جسدى. ابتلعت حبوبا سامة لأقتله داخل الرحم. حقنت نفسى بعقاقير الإجهاض. قفزت من الشرفة فانكسرت ذراعى اليمنى دون أن يسقط الجنين .أخذتنى بطة بسيارتها البويك إلى مستشفى قصر العينى. أصبح زوجها الدكتور حمدى رئيس أحد اقسام الأمراض الباطنية. صورة الأشعة كشفت عن كسر فى عظمة "الريدياس ."علق الدكتور حمدى ذراعى فى عنقى برباط من الشاش، أخذتنى بطة إلى قسم الجراحة لعمل جبيرة من الجبس حول ذراعى. سرت إلى جوارها فى الممر الطويل، النوافذ الكبيرة المطلة على النيل، وجوه الممرضات الشاحبة، وجوه المرضى والمريضات الأكثر شحوبا، وجوه الأطباء ممتلئة باللحم رغم الشحوب، تعرفت على بعض الأساتذة وزملاء الدراسة .توقف أحدهم وهتف :

-مش معقول! دراعك ماله يا نوال؟

تذكرت صوته الناعم الرقيق، حين كان يقول عن الطالبات الآنسات الكوارير "القوارير "يقلب القاف إلى كاف كنوع من الرقة .إزيك يا ست بطة وازى الدكتور حمدى. إيه الحكاية يا نوال دراعك فيه إيه؟ .

كنت فى حالة من الإعياء .الألم والحزن وغثيان الحمل غير المقدس. ثلاث سنوات مضت منذ جاء إلى بيتنا يطلب يدى من أبى .كان يوما حارا مليئا بالغبار .وكانت أمى فى فراش المرض. فى غرفة الصالون جلس مع أبى يتحدثان فى السياسة. كانت له سيارة شيفروليه زرقاء طويلة، يرتدى بدلة بيضاء لامعة من الشاركسكن، شعره لامع، حذاؤه لامع، الدبوس فى الكرافتة لامع، الفص اللامع فى الخاتم حول اصبعه، النظارة الزجاجية تلمع فوق عينيه، كل شئ فيه يلمع .لا شئ فيه منطفئ إلا العينين .

كان يرمقنى من تحت النظارة بنظرة فاحصة. يرمق ذراعى المعلق فى عنقى برباط الشاش. لابد ان وجهى كان شاحبا، لأنه قال: إنتى عيانة والا إيه يا نوال؟ تطوعت بطة بالرد نيابة عنى، عندها كسر فى الريدياس يا دكتور رشاد .

-ورايحين على فين يا بطة؟ تعالوا معايا ع القسم لازم دراعك يتجبس يا نوال؟

كان ذلك منذ اربعين عاما. التقيت بالدكتور رشاد عدة مرات أخرى. فى اجتماع بوزارة الصحة، أو نقابة الاطباء .أصبح له منصب كبير فى الجامعة وفى الدولة وفى المجلس الأعلى للبحوث الطبية. يرمقنى من تحت النظارة بنظرة مخلبية .كان من أعوان عبد الناصر، ثم أصبح من أعوان السادات، حين دخلت السجن عام 1981 قال لصديقتى بطة: نوال تستاهل السجن عشان تبطل كتابة!، وفى عام 1993حين عرف أننى أعيش فى المنفى خارج مصر قال لصديقتى بطة: تستاهل عشان الكلام اللى كتبته ضد حرب الخليج !ده كلام فارغ !

منذ عامين سألته إحدى الصحفيات فى حوار طويل نشر فى جريدة كبرى، سألته عن رأيه فى كتابات بعض النساء، سهير القلماوى وأمينة السعيد ولطيفة الزيات وغيرهن، قال إنهن نساء عظيمات تستحق كل منهن ما حصلت عليه من جوائز .ثم سألته الصحفية :وما رأيك فى كتابات نوال السعداوى؟ وجاء رده: كتاباتها تستهين بالقيم الاسلامية والتقاليد الشرقية، نحن هنا فى الشرق نؤمن بالروحانيات لكن القيم فى الغرب مادية وإباحية، وهى تكتب للغرب .

لم أقرأ هذا الحوار فى الجريدة. لكن بطة قرأت لى هذه الفقرة عبر الأسلاك، ثم قالت، الدكتور رشاد لم يغفر لك أنك رفضتيه، الرجل لا ينسى المرأة التى رفضته، يظل الجرح مفتوحا لا يلتئم، على العموم يا نوال الدكتور

رشاد أحسن من غيره، إنتى عارفة زكريا، الدكتور زكريا اللى كان بيدرس لنا الفسيولوجى، الراجل ده هو الوحيد اللى أشاع انه عمل معايا علاقة مع إنى لا حبيته ولا فكرت فيه يوم واحد، كان لازم ينفس عن إحباطه بالاشاعات، أى راجل يعلن إنه عمل علاقة بامرأة تأكدى إنها الوحيدة اللى رفضته! والغريب يا نوال إن الدكتور زكريا بقه من كبار الأدباء فجأة، عملوه عضو فى اللجنة الأدبية العليا أو معرفش المجلس الأعلى للقصة والرواية، حاجة زى كده مع إنه عمره ما نشر كتاب واحد فى الادب أو كتب قصة واحدة، المسائل بقت كلها عك فى عك، واكبر دليل على العك إن الدكتور رشاد كمان بقه يفتى فى الأدب النسائى مع إنه مالوش فى الأدب ومالوش فى النساء !

كركرت بطة بضحكتها المتقطعة المرحة لكن صوتها أصبح مبحوحا مشروخا، تتخلله بعض الشهقات من حين إلى حين، تشكو الشيخوخة وآلام مجهولة السبب، وصداع فى مؤخرة الرأس، فحصها زوجها الدكتور حمدى وقال لى أنها مثل الحصان ولا شئ فيها مريض إلا عقلها .

-تصورى يا نوال صاحبتك بطة اللى عمرها ما عرفت ربنا سافرت مكة ورجعت لابسة طرحة وماسكة سبحة؟

* * * *

أمام المرآة فى غرفة نومى رأيت الوجه الطويل الشاحب .الذراع اليمنى الملفوفة فى الجبس الأبيض، معلقة فى عنقى برباط من الشاش. البطن المرتفع قليلا تحت الثوب الواسع .عادت إلىّ الذاكرة شيئا فشيئا، مثل قطرات الماء البارد يتساقط فوق رأسى .

هذه المرأة داخل المرآة؟ أهى أنا؟ زوجة لرجل لا تحبه. طبيبة فى مهنة ليست مهنتها .تحمل فى احشائها جنينا ليس جنينها .تعيش فى بيت ليس بيتها. تخرج كل يوم رغم انفها إلى مرضى لا تطيق رائحتهم .

النتيجة فوق الحائط ثابتة عند العام 1960. هذه الذراع الملفوفة بالجبس تعود بى إلى بداية عام 1955. بالضبط أول يناير 1955. صحيت من النوم مشرقة متألقة كالشمس فى اليوم الجديد. إرتديت ثوبى الجديد بمناسبة العام الجديد ونجاحى فى كلية الطب بتفوق، اصبحت طبيبة امتياز فى المستشفى الجامعى)قصر العينى الجديد(،

ارى نفسى فى المرآة داخل ثوب أبيض فيه زهور وردية، عيناى السوداوتان يكسوهما البريق، قلبى يخفق بالحب، حول إصبعى خاتم الخطوبة يحمل إسمه، لمحته من النافذة قادما فى الطريق يحمل باقة ورد، أدخلته الخادمة إلى غرفة الاستقبال. كان هناك باب من الزجاج يفصل الصالة عن غرفة الاستقبال، وستارة فوق الباب صنعتها أمى بإبرة التريكو. كان أبى جالسا فى الصالة يقرأ. سأل الخادمة من جاء، قالت الدكتور أحمد. كانت تعرفه من الزيارات السابقة، وحفل الخطوبة الصغير منذ عامين .خلع أبى نظارة القراءة ونهض .تصورت أنه سيدخل إلى غرفة الاستقبال ليسلم على الدكتور أحمد. لم يكن طبيبا بعد، طلبة السنة النهائية فى الكلية كانوا يحملون لقب دكتور، كان أبى غاضبا، تأخر أحمد عن زملائه بسبب سفره مع الفدائيين إلى جبهة القتال فى القنال .

طلب منى أبى أن أرد اليه خاتم الخطوبة وأطلب منه ألا يزورنا فى البيت .قال ذلك بصوت منخفض لا يصل إلى غرفة الاستقبال. الباب الزجاجى بين الصالة والغرفة كان مغلقا .أبى كان هادئا بالطبيعة، صوته لا يرتفع إلا عند الغضب الشديد .لم يكن غاضبا هذه اللحظة. أصدر قراره فى هدوء كامل. ابنته الطبيبة لن تتزوج طالبا فاشلا تخلف عن زملائه عامين .

تطورت الأمور على نحو غريب سريع. لا أعرف ماذا حدث بالضبط .رأيت أمى تأتى إلى الصالة مرتدية ثوبها الأزرق، فى قدميها شبشب أزرق تسميه البانتوفلى، سارت بخطوة سريعة إلى الباب الزجاجى وأغلقته بالمفتاح .وضعت المفتاح فى جيبها ثم عادت إلى غرفتها، جاءت الخادمة وقالت أن الدكتور أحمد ترك باقة الورد فوق المنضدة فى غرفة الاستقبال ثم انصرف .

كان لغرفة الصالون باب آخر يقود إلى الحديقة الصغيرة والباب الخارجى دون المرور بالصالة .هل سمع صوت أبى؟ هل سمع صوت المفتاح يدور فى الباب الزجاجى حين أغلقته أمى؟ !

كنت واقفة فى الصالة متجمدة، جسمى متجمد وعقلى متجمد .إرتدى أبى ملابسه وخرج. واقفة فى مكانى لا أتحرك .رعدة خفيفة أصابتنى من قمة رأسى إلى قدمى. كأنما ماء صاقع ينسكب من السقف فوقى وأنا واقفة. الدقات تحت ضلوعى تتصاعد .الدموع تتراكم فى حلقى كالغصة والغضب المتراكم منذ ولدتنى أمى أربعة وعشرين سنة. كنت أدق الارض بقدمى حين أغضب فى السابعة من العمر. لم أعد أدق الارض بقدمى. لم يكن أمامى شئ قابل للكسر إلا الباب الزجاجى المغلق .وجدتنى أندفع نحوه، أضربه بقبضة يدى اليمنى ضربة واحدة هائلة .

لم أفقد الوعى هذه اللحظة. كنت فى كامل الوعى. كامل الانتباه. لم أحس بأى ألم. فقط دخلت قبضة يدى فى الباب الزجاجى وخرجت من الناحية الاخرى .

بقى معصمى داخل اللوح المكسور، حركت ذراعى لأشد يدى خارج الزجاج. سقط اللوح الكبير بكل ثقله فوق معصمى مثل السكين، سقطت قبضة يدى إلى اسفل فجأة. رأيتها تتدلى لا استطيع رفعها مهما حاولت. كف قلبى عن الدق وتفجر الدم بلون أحمر يلطخ الباب الأبيض والبلاط الأبيض وثوبى الأبيض .

اللون الأحمر القانى فوق السطح الأبيض أعادنى إلى الحلم الطفولى القديم .رأيت نفسى طفلة تحبو تمسك أمها يدها حتى لا تسقط .رأسى أثقل من جسمى لا أستطيع أن أرفعه فوق عنقى. لا أستطيع أن أرفع يدى. ذراعى ثقيلة مخدرة. شددت جفونى لأصحو من النوم. رأيت وجه أمى أول ما رأيت يبرز وسط الضباب .كان شاحبا رماديا بلون الضباب. انفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة، سمعت صوتها يأتى من بطن الارض، الحمد لله جت سليمة يا نوال، كانت ترتدى الثوب الازرق والبانتوفلى الأزرق فى قدميها، ثم رأيت وجه أبى، كان طويلا شاحبا، يردد ما قالته أمى، الحمد لله جت سليمة يا نوال، من حولى معاطف الاطباء البيضاء، مرايل الممرضات، الجدران البيضاء، رائحة المستشفى، وأنا راقدة فى السرير الابيض، داخل ثوب أبيض، ذراعى اليمنى ملفوفة بالجبس الابيض .

أفقت من البنج ورأيت الدكتور عبد العظيم، كان أستاذا بقسم الجراحة فى مستشفى القصر العينى الجديد، عاد لتوه من لندن بعد أن تخصص فى جراحة الأعصاب والعضلات الدقيقة. طويل نحيف له وجه مبتسم قال مبروك يا دكتورة نوال، العملية نجحت تسعين فى المائة والباقى عليكى انت. لم افهم شيئا مما يقول .فى اليوم التالى شرح لى الحقيقة .العملية كانت صعبة. استغرقت أكثر من تسع ساعات .أنسجة المعصم تمزقت وأربطة العضلات. عملت كل جهدى يا دكتورة نوال عشان أرجع كل حاجة زى ما كانت، انا عملت اللى علىّ والباقى على ربنا. وسمعت أبى يقول، كان يمكن تفقدى إيدك اليمين كلها لولا عناية الله، ومهارة الدكتور عبد العظيم، دى أول عملية جراحية من هذا النوع يجريها بعد عودته من الخارج، وقالت أمى، ربنا بيحبك يا نوال وإن شاء الله إيدك ترجع زى ما كانت مش كده يا دكتور؟

لم يكن الدكتور عبد العظيم متأكدا أن يدى اليمنى سوف تعود كما كانت، كان يشك فى الشفاء الكامل، النتيجة لن تعرف إلا بعد التئام الجرح وإزالة الجبس، كان الجبس ضروريا حتى لا يتحرك المعصم .

بدأت أستعيد قوتى فى اليوم الثالث، فى اليوم الرابع رأيت الدكتور سعيد عبده واقفا إلى جوار السرير، كان أستاذا فى الكلية للصحة العامة، يجمع بين الطب والأدب، يكتب عمودا منتظما فى الجريدة بعنوان :خدعوك فقالوا، قرأ لى بعض المقالات والقصص فى مجلات الكلية، سمع كلمتى فى حفل تأبيد الشهيد احمد المنيسى ومناسبات أخرى، قال الدكتور سعيد عبده، تقدرى يا نوال تجهزى كلمة تلقيها فى حفل التخرج نيابة عن الطلبة؟ أنا شايف إنك

فى حالة كويسة، والصوان حيكون هنا جنبك فى حوش المستشفى، يدوب خطوتين، ويمكن استخدام الترولللى إذا كان المشى صعب عليكى، إيه رأيك؟ إنت الوحيدة بين طلبة الطب اللى عندك قلم وممكن تكتبى كلمة أدبية كويسة وتلقيها فى حفل التخرج، ده حفل مهم جدا يا نوال، عميد الكلية حيحضر ورئيس الجامعة وكمال الدين حسين وزير التعليم غير كل الاساتذة والطلبة والطالبات .

كان ذلك منذ خمسة وأربعين عاما، وأصبح فى درج مكتبى صورة فوتوغرافية لى جالسة وراء الميكرفون على المنصة ذراعى اليمنى ملفوفة بالجبس ألقى كلمتى فى حفل التخرج بداية عام 1955، عن يمينى يجلس وزير التعليم وعن يسارى رئيس الجامعة ثم عميد كلية الطب .هذه الصورة بقيت فى درج مكتبى عامين ثم تمزقت مع صورتى فوق بطاقتى الشخصية وبطاقة نقابة الاطباء، وصور أخرى فى الشباب والطفولة. كانت الصور ضمن أوراقى التى حملتها معى من بيت أبى. ذكريات طفولتى لحظات عمرى غير المنسية ومفكرتى السرية .إنقض عليها يمزقها .أصابعه الغليظة ترتعد، عيناه اختفى النني تحت الجفن، والبياض بلون الثلج تخترقه شعيرات دموية جاحظة، يمسك الصورة بين إصبعين ويصرخ، دى صورتك فى حفلة التخرج مع العميد والوزير، طبعا بقيتى دكتورة عظيمة وأنا فاشل مدمن، إزاى تعيشى مع فاشل مدمن يا دكتورة؟ لكن فين كلامك بتاع زمان، نعيش سوا ونموت سوا، مش عاوزة تموتى معايا ليه يا دكتورة؟ عاوزة تمشى وتسيبينى أموت لوحدى؟ !

مزق الصورة، ألقى بها فى صفيحة القمامة، وانقض على الصور والاوراق كلها يمزقها ورقة ورقة، ثم انقضت اصابعه الغليظة المرتعدة حول عنقى، كان فى حاجة إلى جرعة جديدة من الماكستون فورت لا يستطيع شراءها من الصيدلية، لم يجد فى حقيبتى قرشا واحدا، لم يجد فى البيت شيئا يمكن ان يبيعه، لم يعد يؤمن بالله أو الوطن أو الحب، يصرخ بصوت يسمعه الجيران : الثلاثة وهم، والاخلاص وهم، كأنما تكشفت له الحقيقة النهائية ولم يبق إلا الموت، لكن قبل أن يموت الفدائى لابد أن يقتل، الدرس الأول تلقاه فى حرب العصابات، لا تموت قبل ان تقتل عدوك .

أعداؤه الثلاثة "الملك والحكومة والانجليز"، أراد ان يقتل هذا الثالوث غير المقدس، يحمل سلاحه فوق كتفه، يهتف بالثالوث المقدس "الله، الوطن، الحب"، عاد من القتال مهزوما مكسور القلب، ينزف الايمان قطرة قطرة مع الدم، يصرخ كل يوم وهو يحقن دمه بالسم، الخونة!، الثلاثة وهم! الله والوطن والحب! السم فى الدم يصعد إلى رأسه، يتصور أن الله خائن والوطن خائن والحب خائن .لم تصل أصابعه الغليظة المرتعدة إلى عنق الله أو عنق الوطن، كلاهما رمز بدون جسد ولا عنق. لم يعد أمامه إلا عنق المرأة التى أحبها وأحبته .التفت اصابعه حول عنقها تلك الليلة المظلمة بعد ان مزق صورها واوراقها والقى بها فى صفيحة القمامة .لم يبق فوق الارض فى غرفة النوم

الا صورة واحدة ممزقة فوق بطاقة نقابة الاطباء .لمحتها وانا ارتدى المعطف فوق قميص النوم. التقطتها من فوق الارض، وضعتها فى جيبى، أصابعى ترتعش، جسمى يهتز لكن عقلى ثابت. عظام العنق تؤلمنى لكن رأسى فوق عنقى ثابت، ضميرى مستريح، الدفاع عن الحياة مشروع بالعقل والمنطق والقانون .استطعت أن أحرر عنقى من بين يديه .اصابعى الطويلة النحيفة كانت اقوى من اصابعه .ارادتى فى الحياة اقوى من ارادته .عقلى حاضر وعقله غائب تحت تأثير السم. كان يرتعد كأنما بالحمى، ثم سقط فوق السرير، سمعت شخيره وانا امشى على اطراف اصابعى إلى غرفة الطفلة. كانت غارقة فى النوم فوق وجهها ابتسامة الملائكة .حملتها فوق صدرى داخل البطانية الوردية من الصوف .فتحت باب الشقة وخرجت ثم أغلقت الباب ورائى بلا صوت .

كان الوقت قبل الفجر بقليل. سرت من شارع المنيل إلى بيت أبى فى الجيزة .توقفت لحظة فوق كوبرى عباس أستنشق عبير الفجر. فوق هذا الكوبرى كنت امشى قبل ان يسافر إلى الحرب. عيناه كان يكسوهما البريق، صوته يهمس فى اذنى، الله، الوطن، الحب، يرى نفسه محمولا فوق الأعناق بعد النصر، يحملنى فوق الحصان الأبيض مثل سندريلا .

مياه النيل تجرى تحت كوبرى عباس بطيئة حزينة. سقطت دمعة حبيسة من فوق سور الكوبرى وذابت فى الماء. تعكرت صفحة النيل المتألقة تحت ضوء الفجر .صعد الطمى من القاع إلى السطح. لونه أحمر مخلوط بالطين والدم .

كأنما تخففت من الحزن .ألقيت به فى نهر النيل، وسرت إلى بيت أبى احمل طفلتى، تبتسم فى وجهى كضوء الشمس، وابتسم أبى حين رآنى، وأمى نهضت من فراش المرض، سمعت ضحكتها لأول مرة بعد غياب طويل .

فى جيب معطفى وجدت صورتى الممزقة .أعدت أجزاءها بعضها إلى بعض، ثبتها بالصمغ فوق قطعة من الكرتون، بقيت الصورة فى درج مكتبى الاسفل، لا أفتح الدرج، إن فتحته لا أنظر اليها، لا أريد ان اتذكر. النسيان مقاومة للحزن ودفاع عن الحياة .

لم أفقد صداقتى بأحمد حلمى حتى مات. كنت أعرف أنه راح ضحية حكومة خائنة وزملاء خائنين. تخلى عنه الأصدقاء والأقارب حتى أمه أغلقت الباب فى وجهه .كانت تبكى وتقول، أخاف منه يا ابنتى فهو يهددنى بالموت إن لم أعطيه فلوس يشترى بيها السم اللى بيحقنه فى دمه، قلبى انفطر عليه يا بنتى، وخايفة عليكى منه ربنا يعينك يارب .

* * * *

بقيت الصورة الممزقة فى الدرج السنة وراء السنة خمس سنوت، حتى عام 1961، دق جرس الباب ودخلت ثريا حمدان، كانت تسكن إلى جوارى فى شارع الجيزة، تشغل منصبا كبيرا فى مبنى التلفزيون الجديد، سألتنى، عندك رواية للشاشة الصغيرة يا دكتورة نوال؟ قلت لا أكتب للتلفزيون يا أستاذة ثريا، سألتنى، ليه يا دكتورة؟ قلت لا أعرف، لم أجرب، قالت، حاولى تكتبى حاجة للتلفزيون عندك قلم مميز ولك قراء وقارئات، والشاشة فى حاجة إلى أعمال أدبية جيدة وهى نادرة، هيه قوليلى متى أتسلم الرواية منك؟

جلست فى الليل أفكر .فتحت الدرج حيث الاوراق القديمة والذكريات الطفولية .لمحت صورتى الممزقة ضمن الاوراق. تأملتها طول الليل. قبل شروق الشمس أمسكت القلم وصفحة بيضاء، كتبت عنوان الرواية :الصورة الممزقة .

كانت هى الرواية الأولى التى كتبتها لشاشة التلفزيون. رواية طويلة عرضت فى ثمانية حلقات، كل حلقة اربعين دقيقة، كنت أتابعها بعد أن أعود من العيادة، أم ابراهيم تجلس عيناها فوق الشاشة، تمسح دموعها وتنشج بصوت مكتوم، فى درج مكتبى حتى اليوم دوسيه كبير مكتوب عليه الصورة الممزقة. من مائتين وعشرين صفحة. أفكر اليوم فى طبعها داخل كتاب حتى لاتسقط من التاريخ .

مشرط والقانون

أحملق فى المرآة وأنا واقفة فى غرفتى. ذراعى ملفوفة بالجبس. النتيجة فوق الحائط ثابتة عند العام 1960، صورة الأشعة على المكتب والتقرير. كسر فى عظمة الريدياس اليمين. منذ خمسة أعوام كدت أفقد يدى اليمنى بسبب الغضب. عادت يدى كما كانت إلا من جرح عميق فوق المعصم غائر حتى العظم.

غضبت من أبى وضربت الباب الزجاجى. اليوم أنا غاضبة من نفسى، من هذه المرأة داخل المرآة، تزوجت بلا حب وحملت بلا حب ثم قفزت من الشرفة لتقتل الجنين، لكن الجنين لم يحدث له شىء، فقط انكسرت ذراعها اليمنى.

رفعت اليد الملفوفة بالجبس وضربت الوجه داخل المرآة، انكسرت، وانقسم وجه المرأة قسمين، أصبح لها وجهان، فى كل وجه عين واحدة.

إستدرت لأرى المرأة العجوز ورائى رأسها ملفوف بالطرحة السوداء. ترمق ذراعى داخل الجبس بنظرة الحدأة المستكشفة، "حصل إيه كفى الله الشر يا دكتورة نوال؟"، "أبدا ما فيش حاجة يا طنط رميت نفسى من البلكونة". ثم ضحكتْ، ضحكت هى الأخرى غير مصدقة ما أقول، أدركت أن الحقيقة حين أقولها لا يصدقها الناس، وكان إبنها حين يسألنى "أتحبينى يا نوال؟" أرد بسرعة: لأ، يضحك غير مصدق ما أقول، وقالت أمه فى اليوم التالى، خدى إجازة من المستشفى يا دكتورة عشان صحتك وصحة العيل اللى جوه بطنك، ترمق بطنى بنظرة حانية كأنما ترى حفيدها، إبن ابنها الغالى، تضمه داخل جفونها، تصعد نظرتها إلى صدرى ثم وجهى، تلتقى عيناها بعينى، ترمقنى بنظرة الحدأة.

لا شىء يربطنى بهذه المرأة أو ابنها إلا الجنين فى أحشائى. قطعة من هذين الغريبين داخل جسدى. فكرت فى التخلص من جسدى. راودتنى فكرة الانتحار. نظرت إلى الأوراق المتراكمة فوق مكتبى. الرواية! تشدنى إليها لأكملها قبل أن أموت، قررت تأجيل موتى إلى ما بعد الانتهاء من الرواية.

* * * *

لم أعد قادرة على الكتابة. أمسك القلم بيدى اليسرى. أصابع اليد اليمنى لا تزال ضعيفة بعد إزالة الجبس. لا أستطيع أن أمسك القلم بين أصابعى. ينزلق من بينها كأنما هى فاقدة الحياة. أعيدها إلى الحياة يوما وراء يوم بالتدريب، تمرينات لعضلات الأصابع والمفاصل، تحريك المعصم، تحريك الذراع، تكرار التمرينات عشر دقائق كل ساعة، أهبط إلى الحديقة الصغيرة خلف البيت أمسك فأسا صغيرا، أشتغل به كل يوم نصف ساعة، ثم أجلس تحت شجرة الكافور، ترمقنى عصفورة صغيرة واقفة فوق الفرع بعيون حزينة.

إنه عام 1960، عام الهزيمة الصغرى. هزيمتى الخاصة وانسحابى من الحياة. حنينى إلى الموت. أيام الحزن العميق والأحداث المؤلمة الساقطة من الذاكرة، لولا النسيان ربما مات الإنسان، داخل خلايا المخ مصفاة تنقى العمر من لحظات الضعف والهزيمة، تلقى بها فى قاع التاريخ، تظل كامنة فى البئر، داخل قوقعة سميكة، جرح مفتوح غائر فى اللحم، نظن أنه إلتأم، فإذا ما حلت بنا هزيمة أخرى أدركنا أنه لم يلتئم، يطل من تحت الجلد مثل رأس الدمل، ما هى إلا هزة واحدة حتى تسقط القشرة وينزف الجرح.

ثلاثة شهور من الحزن. كنت فى التاسعة العشرين من عمرى أرى نفسى عجوزة فى نهاية حياتى، أنشد الموت وأنا راقدة إلى جواره فى السرير العريض. أحمل فى أحشائى جزءا منه لا أعرف كيف أتخلص منه. أبحث فى أركان البيت عن سم أبتلعه. أفتح العلبة السوداء فى الصيدلية الصغيرة البيضاء فوق الحوض، أبتلع الحبوب السامة حبة وراء حبة ثم أتوقف فجأة. يلوح لى وجه ابنتى الطفلة تبكى على موت أمها. عيون أخوتى الأربعة القاصرات بلا أم ولا أب، ليس لهن فى الحياة إلا أنا، تنهمر دموعى أبكى عليهن قبل أن أبكى على موتى.

فوق المائدة فى الصالة تتراكم الصحف. تأتينى كل صباح من تحت عقب الباب. أركلها بقدمى. صورة الدكتور حمدى زوج صديقتى بطة تظهر فى الصحف. يدلى بتصريحات عن الديموقراطية. يردد ما يقال عن أعداء الثورة. يدعو الله أن ينزل عليهم الطير الأبابيل، تجعلهم فى بئر سجيل. كل من يعارض جمال عبد الناصر يصبح من أعداء الثورة. كل من يرى أن الوحدة الاندماجية لن تنجح بين مصر والعراق، فشلت الوحدة بين مصر وسوريا. أصبح رجاء الشاعر من أعداء الثورة، طارده البوليس حتى هرب إلى باريس. أسعد شقيق صفية دخل المعتقل ومعه رفاعة زوج سامية. تمط شفتيها وتقول: شوية عساكر يا نوال مسكوا الحكم وعاملين إرهاب فى البلد!

* * * *

مسرح الأحداث فى حياتنا الخاصة هو السرير. ربما أيضا مائدة الطعام. يدور كل شىء داخل الأربعة جدران. قد يتسرب شىء خارج الأبواب المغلقة إلى آذان الجيران، ارتطام أجسام بالحوائط والجدران، تكسير الصحون وتطاير الشظايا فى الجو، زعيق متدرج الصوت يعلو وينخفض، ثم يدب الصمت. فى الصباح ينخرط الزوج فى عمله، تنخرط الزوجة فى عملها، يعود الإثنان فى نهاية اليوم إلى مكانهما بين الجدران الأربعة، حيث تتكرر المأساة.

كانت تحلم كل ليلة بالفرار دون جدوى. لماذا كانت تعجز؟ الخوف من الفشل للمرة الثانية فى الزواج؟ الخوف من ألسنة الناس؟ الخوف من الوحدة؟! رغم أن الوحدة كانت تبدو لها مثل النجمة بعيدة المنال! أهو التناقض التاريخى فى عتمة هذه العلاقة التى يسمونها الزواج؟

كنت أتفادى الخروج معه إلى حيث يرانا الناس. قامتى أطول من قامته. يدى سمراء محروقة بالشمس أصابعى طويلة رفيعة. أصابعه قصيرة ممتلئة بالراحة وعدم العمل، قدمه صغيرة بيضاء شاحبة لم تلمسها الشمس. خطوتى فوق الأرض واسعة قوية. خطوته ضيقة مترددة مهتزة. لم يكن لى أن أراه يمشى حتى يعترينى المرض. لا أعرف هل أستسلم للقلق أم أسرح فى الأحلام. يمشى بجوارى فى المدينة المكتظة يهز ذراعيه، كأنما له ذراع أقصر من ذراع، جسمه يهتز بحركة تؤلم العين، عضلاته مرتخية من طول الجلوس فى المكتب والبيت، يركب السيارة من البيت إلى المكتب، لا يمشى لا يمارس الرياضة، ذراعه إن تعرت تبدو بيضاء تكشف من تحتها عروق طويلة متعرجة تمشى فيها دماء زرقاء، أرمقها بدهشة مع أنها عروق طبيعية، فالدم الأحمر يبدو تحت الجلد بلون أزرق، كنت أنسى الطب والمنطق، يصيبنى القلق كلما تعرت ذراعه، كأنما يكشف عن عاهة مستديمة، يتباهى بها أمام الرجال، ينافسهم فيما يسمونه الذكورة، أنكمش داخل نفسى خزيا، أبقى فى مكانى مسمرة مذهولة لا أعرف إن كنت فى حالة من اليقظة أو أغط فى النوم.

ذات يوم جاءتنى صديقة جديدة من الأديبات، دقت الجرس. فتح لها الباب وأدخلها غرفة الاستقبال. سألتنى، "جوزك اللى فتح لى الباب"، ترددت قليلا "لأ مش هو" ثم تراجعت وقلت: "أيوه هو". كان فى نظر العالم رجلا وسيما مملوءا بالرجولة. لكن عين الأديبة تكشف ما تحت الجلد. جلست أمامها فى غرفة الاستقبال أتفادى النظر إلى عينيها. كانت لى هاتين العينين قبل الزواج، كأنما فى حياة سابقة، كنت مثل زرقاء اليمامة أرى ما لا يراه الناس، فما الذى حدث لأفقد البصر؟

كنت أمسك عقله الابيض المرتخى أدلكه أجادله، لتسرى فيه دماء حمراء بدل الزرقاء، أكنت أقاوم الطبيعة؟ ويصيبنى الإعياء أو المرض، لا يعرف هو ما يعترينى، يتطلع حوله فى الشقة الواسعة لا يعرف لماذا لا أفرح، الأثاث الفاخر، الفساتين الحريرية التى اشتراها لى، والشباشب ذات الوردة الذهبية والكعوب الرفيعة العالية، وفخذة الخروف المشوية فوق المائدة والسيارة الطويلة أمام الباب، وصوته يزعق "عاوزة أيه أكثر من كده؟" أمسح دموعى حائرة مذهولة، أتهم نفسى بفقدان البصر، كيف لا أرى كل هذه النعم؟

أعود إلى طبيعتى الاولى، وتنقلب النعم إلى النقم، كلمتان متشابهتان رغم التناقض، لا يفرق الواحدة عن الأخرى إلا نقطة أو نقطتين.

فى السابعة من عمرى ضربنى المدرس على أصابعى بالمسطرة بسبب نقطة حبر سقطت من سن القلم، تحولت كلمة بعل إلى بغل، لم أعرف حينئذ أن كلمة بعل تعنى الزوج. وفى مرة أخرى سقطت نقطتين من الحبر فوق كلمة اللاه، أصبحت اللاة، لم أعرف أنها مؤنث كلمة اللاه، وتعنى الإلهة الأنثى التى كان يعبدها العرب ثم حرم الإسلام عبادتها.

شطب المدرس بالقلم الحبر الأحمر على الكلمة ولسعنى بالعصا الخرزان.

كانت الرواية هى هدف حياتى. قررت تأجيل موتى حتى أنتهى منها. دربت يدى اليسرى على الكتابة. أصبحت أكتب باليدين الأثنتين. أستبدل الواحدة بالأخرى حين يحل بإحداهما التعب. أحتضن القلم بين أصابعى وأكتب. يتسلل نور النهار من شقوق الشيش وأنا منكفئة فوق الأوراق. أسمع زقزقة العصفورة فوق شجرة الكافور تفرد ريشها تحت أشعة الشمس. تلتقى عيناها بعينى وتبتسم ثم تطير محلقة فى الجو.

كان هو يشاركنى السرير. لا شىء يفسد الحياة الزوجية إلا السرير المشترك. والحمام المشترك. انتهاكات يومية للحياة الخاصة.

صحيت من النوم ذات يوم رأيته يقرأ أوراقى. كأنما كان ينتهك جسدى. ربما كان انتهاك الجسد أقل ألما. سمعت صوتى يقول:

- دى أوراقى مش من حقك تقرأها!

رأيته يمسك الرواية، يلقى بها من النافذة، وجدتنى أقفز وراء الرواية من النافذة، تصورت أننى بهذه القفزة سوف أنقذها.

هذه اللحظة كان يمكن أن تنتهى حياتى. أن يتحطم رأسى فوق الأسفلت. لم تكن لحظة جنون. كنت عاقلة فى كامل الوعى. كانت لى تجربة سابقة. قفزت من سور الشرفة فلم أفقد حياتى. كسر فى الريدياس اليمنى ثم إلتأم العظم. هذه الرواية سهرت عليها الليالى والأيام، والشهور والسنين، أكثر من ثلاثمائة ورقة بحجم الفولسكاب الكبير. عقلى قال فى تلك اللحظة إن أنقذت الرواية أنقذت حياتى.

لحظة من الخيال ربما، وجدت نفسى أمشى فوق الماء، أهتز قليلا لكنى أواصل المشى، أدخل إلى سراديب طويلة تشبه الممرات فى مستشفى قصر العينى. طوابير المرضى والمريضات يفترشون الأرض إلى جوارهم قفف وأطفال يخبطون الهواء بسيقان معوجة. يرمقون الأطباء بنظرة استجداء. يدب الاطباء فوق البلاط بكعوب قوية عسكرية، معاطفهم بيضاء ناصعة البياض. عيونهم من خلف النظارات مطفأة أو مغمضة. ينقرون بأصابعهم الغليظة على صدور الأطفال تحملهم النساء فوق صدورهن المهدلة، وأنا أمشى بين طوابير المريضات أترنح فوق ساقين يتساقط من بينهما الدم، تنفرج شفاههن الشاحبة عن صوت خافت: "ربنا يشفيكى يا بنتى". يمسحن عيونهم الذابلة بطرف الجلباب الأسود المغطى بالتراب، أشق طريقى بينهن بصعوبة، أتفادى النظر إلى عيونهن، لكن صدرى يمتلىء بالدفىء، أحتفظ فى ذاكرتى بهذه النظرة الحانية فى العيون الذابلة.

فتحت عينى فوجدتنى غارقة فى الدم. راقدة فوق منضدة من الرخام تشبه مناضد المشرحة أو غرفة عمليات الجراحة، فوقها ملاءة من المشمع الأحمر، فوق رأسى كشاف كهربى قوى الضوء، راقدة فوق ظهرى مفتوحة الساقين، الذراعان والقدمان مربوطة بأحزمة جلدية فى قوائم حديدية ترتفع فوق المنضدة، أسمع الأطباء يتبادلون الكلمات غير المفهومة، يشمخون بأنوفهم ويقولون "إفاكيوويشن" عقلى مشلول مخدر، ترن الكلمة فى أذنى منذ المدرسة الثانوية "إفاكيو ويشن" خرجت مع البنات فى المظاهرة عام 1946، كنا نهتف فى وجه الانجليز فى نفس واحد: إفاكيو ويشن ويذ بلاض"، وتعنى "الجلاء بالدماء"، أو طرد الاحتلال الأجنبى من بلادنا بالحرب المسلحة، لكنها تعنى فى لغة الطب أو الجراحة، طرد الجنين من الرحم بالأدوات الطبية المسلحة، بمعنى آخر عملية "الإجهاض".

* * * *

كان هو نائما إلى جوارى فى السرير العريض. شخيره يسرى فى أذنى مثل دقات الساعة المشروخة. عيناى مفتوحتان شاخصة إلى السقف. تحررت من القيد الذى كان يربطنى به. عملية الإفاكيوويشن حررتنى من الاحتلال الأجنبى لجسدى. نزعت عن نفسى الجسد الغريب الذى كان جزءا منى. بدأ الطلاق يلوح فى السماء مثل شفق الفجر، أنفاسى تلهث كأنما أجرى وأنا راقدة فى السرير.

كان يتغطى بالملاءة من الرأس حتى القدمين. تطل قدماه البيضاوتان من طرف الملاءة مضغوطتان صغيرتان، كأنما حشرتا داخل حذاء من الحديد، كأقدام الفتيات فى الصين القديم، كانت أمه تدلكهما كل ليلة منذ طفولته، تلفهما فى جراب من الصوف، داخل صندوق مبطن بالحرير، تبخرهما تخشى عليهما من عين الحسود.

فتح عينيه ورآنى مفتوحة العينين شاخصة إلى السقف.

- صاحية ليه؟
- بافكر.
- فى إيه؟
- فى الطلاق.

إنتفض واقفا غاضبا. قال إن الطلاق بيد الرجل وحده، الطلاق يتم بإرادة الرجل حين يريد وليس بإرادة المرأة حين تريد. الطلاق حق مطلق للرجل حسب القانون، وهو رجل قانون. رغم قامته القصيرة المربعة شمخ بأنفه مثل الأطباء فى المستشفى وقال: أنا رجل قانون! ثم نطق عبارة باللغة العامية انفجر بعدها شريان فى رأسى: "نجوم الضهر أقرب لك من الطلاق يا دكتورة!".

* * * *

منذ طفولتى سمعت أبى يردد هذه العبارة:

"إذا كان ثمن الحرية فادحا فإن ثمن العبودية أفدح".

وعاش أبى المنفى فى منوف عشرة أعوام، لم تغفر له الحكومة التمرد على الرؤساء، ولم يغفر لها خيانة الشعب. اشتغل موظفا فى هذه الحكومة ثلاثة وثلاثين عاما حتى مات. كل يوم يفكر فى الاستقالة ثم يتراجع. كان العائل الوحيد لأسرته وعياله التسعة وأمهم. كالمربوط فى الساقية، يقول عن نفسه رهين المحبسين: الوظيفة الحكومية وسرير الزوجية.

قبل أن يموت أبى بشهور قليلة أحالته الحكومة إلى المعاش. أصابه انتعاش كأنما يولد من جديد. فرد ذراعيه من آخرهما وأخذ شهيقا عميقا أعقبه بزفير طويل، وقال، أخيرا تحررت بعد ثلاثة وثلاثين سنة سجن، أخيرا سأقرأ وأكتب ما أريد. ثم مات أبى فجأة قبل أن يكتب شيئا، دون أن يترك أثراً.

قبل أن يموت أبى قال لو عادت حياتى إلى الوراء ربما لم أدخل الحكومة ولا الزواج. إنهما المصيدة والمقبرة. وكان يقول، أتركى وظيفة الحكومة وافتحى عيادتك الطبية يا نوال، لاشىء يقتل الإنسان مثل الوظيفة الحكومية.

وفى التاسعة من عمرى سمعت أبى يقول لأخته رقية: الطلاق لك أفضل من الزواج التعيس، إخلعيه يا رقية، من حق المرأة أن تخلع زوجها إذا ردت له المهر وتنازلت عن النفقة. كان أبى دارسا للشريعة الإسلامية فى الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم.

لولا أبى ما استطعت أن أعرف هذا الحق الشرعى للمرأة. يسمونه "انخلع". ساعدنى أبى على أن أخلع زوجى الأول. تنازلت عن النفقة والمهر. الكلمتان ترنان فى أذنى نابيتان. لم يكن المهر إلا خمسة وعشرين قرشا. حين سألنى المأذون كم يكون المهر؟ رنت الكلمة فى أذنى نابية لا أقبل أن يدفع لى الرجل مقابل الزواج، ما الفرق بين الزواج والبغاء؟ قال المأذون، العقد لا يكون صحيحا دون المهر، على الأقل خمسة وعشرين قرشا، كنوع من الرمز! قلت رمز لأى شىء؟! قال رمز قوامة الرجل على المرأة، الرجل واجبه الإنفاق والمرأة واجبها الطاعة. قلت أنا طبيبة يضع الناس أرواحهم بين يدى ولا أقبل أن ينفق علىَّ أحد، كيف أعيش عالة على زوجى وأنا طبيبة؟! قال المأذون، العقد يكون باطلا دون مهر، همس زوجى فى أذنى، هذه مجرد شكليات، أمسكت القلم ووقعت العقد. تكررت الواقعة فى الزواج الثانى. لابد من الرمز بالقروش على قوامة الرجل وإلا بطل عقد الزواج، همس زوجى

فى أذنى، هذه مجرد شكليات. أمسكت القلم ووقعت العقد. أصبحت للمرة الثانية تحت طائلة القانون العبودى، يسمونه قانون الأحوال الشخصية، تفقد فيه المرأة كيانها الإنسانى، تصبح ناقصة الأهلية، قاصرا مثل الطفل لم يبلغ سن الرشد أو المريض بعقله أو المعتوه، فى حاجة إلى الوصاية، وزوجها هو الوصى عليها.

فى الطلاق الأول كان أبى معى. دخل إلى مكتب المأذون بقامته الفارعة. كانت له هيبة الأنبياء. نهض المأذون واقفا، أهلا سعادة البيه. قال أبى، ابنتى الدكتورة تريد خلع زوجها والتنازل عن جميع حقوقها المادية وغير المادية! قال المأذون مخاطبا زوجى، هذا حقها الشرعى يا أستاذ، ثم كتب قسيمة الطلاق.

فى الطلاق الثانى لم يكن أبى موجودا. مات أبى قبل ان أتزوج بعام ونصف. كنت وحدى فى مواجهة رجل قانون. لا أعرف إلا القليل فى القانون. صوت أبى الميت يقول إخلعيه يا ابنتى هذا حقك الشرعى. عيناى تدوران فى المكان تبحثان عن أبى. واقف إلى جوارى بقامته الفارعة يمسك يدى. صوته فى أذنى. تقدمى يا نوال ولا تخافى أنت على حق.

كان رجل القانون واقفا أمامى فى غرفة النوم. صوته يزعق. نجوم الضهر أقرب إليك من الطلاق. قامته مربعة قصيرة. قدماه صغيرتان بيضاويتان. يرتدى منامة حريرية بيضاء. وجهه أبيض بلون المنامة. عيناه صغيرتان غائرتان فى اللحم كعينى أمه.

كنت واقفة أمامه. قامتى أطول من قامته. قدماى كبيرتان أكبر من قدميه. سمراوتان محروقتان بالشمس. وهو واقف أمامى يمط عنقه شامخا بأنفه. يقول أنه رجل قانون. أن الرجل وحده يملك حق الطلاق. المرأة لا تملك هذا الحق.

- المرأة تملك حق الخلع إن تنازلت عن حقوقها المادية حسب الشرع يا أستاذ!
- هذا فى الشرع فقط يا دكتورة وليس فى القانون!
- أتعيش معى ضد إرادتى؟
- هذا حقى القانونى!
- أنا لا أريد أن أعيش معك!
- اذهبى إلى المحكمة!

المحكمة؟ اخترقت الكلمة رأسى مثل طلقة رصاص. لم أدخل فى حياتى محكمة. ترن الكلمة فى أذنى على وزن مشرحة أو مقبرة. الداخل إليها مفقود والخارج مولود. طوابير النسوة بالجلاليب السود أمام أبواب المحاكم. تشبه الطوابير أمام باب المستشفى والمشرحة والقبور. وجوههن الضامرة الشاحبة. عيونهن الذابلة جفت من الدموع. جحافل المحامين والقضاة داخل أروابهم مثل جحافل الأطباء بكعوب حديدية. يشمخون بأنوفهم. ترمقهم عيون النسوة المكلومات. واقفات فى الطوابير الممدودة من الشارع حتى باب المحكمة.

كان واقفا أمامى يمط عنقه القصير الممتلىء باللحم. تيار من الدم الساخن يندفع من قمة رأسى، يهبط إلى عنقى وصدرى حتى بطن القدمين، الغضب المتراكم فى أعماقى منذ الطفولة، العشب الأسود فى قاع البحر. خطوت نحوه خطوة واحدة. أردت أن أقبض بأصابعى على عنقه. أصابعى طويلة قوية أمسكت بها المشرط وفتحت الصدور والبطون. فجأة تذكرت أننى طبيبة جراحة. حقيبتى جاهزة بجوار المكتب داخلها المشرط. سرت نحوها بخطوة بطيئة. لم أسرع الخطو. مشيت بخطوة هادئة تشبه خطوة أبى الميت. رفعت قدمى اليمنى عن الأرض كما كان يرفعها. ثم القدم اليسرى. قدماى ثابتتان عيناى مفتوحتان لا يطرف لهما جفن. كنت هادئة مثل أبى وفى كامل الوعى. إنثنيت بجسمى الطويل أرفع الحقيبة من فوق الأرض. ثم انتصبت قامتى الفارعة مثل قامة أبى. فتحت الحقيبة بأصابع قوية ثابتة. أخرجت مشرط الجراحة من جرابه الجلدى الأسود بحركة قوية سريعة، كالفارس يمتشق سلاحه واثقا من النصر، لمع النصل الحاد تحت الضوء بلون أبيض.

كان ظهرى ناحيته لم أستدر بعد لأواجهه. النافذة مفتوحة أمامى. ضوء الفجر يشقشق فى الأفق. العصفورة فى عشها داخل شجرة الكافور. التقت عيناها بعينى فانتفض ريشها وطارت بعيدا. بدأ جسمى يتحرك لأستدير وأواجهه. قبل أن تكتمل الاستدارة تجمدت لحظة وأنا ألمح وجهى فى مرآة الدولاب. ليس هو وجهى. الملامح لا أكاد أعرفها. البشرة شاحبة بلا قطرة دم. المقلتان كبيرتان مشتعلتان بنار سوداء. الجلباب قديم شاحب البياض يتدلى تحت الركبتين. القدمان حافيتان فوق بلاط أبيض. النصل الحاد يلمع فى يدها بلون الموت الأبيض.

هذه الصورة محفورة فى ذاكرتى حتى اليوم. نسيتها منذ تلك اللحظة كأنما لم تكن، ثم عادت إلىَّ بعد عشرين عاما فى خريف 1981، التقيت لأول مرة فى حياتى بامرأة قاتلة داخل السجن، كانوا يسمونها فتحية القتَّالة، لم أتخيل حين رأيتها لأول مرة أنها يمكن أن تقتل، كانت هادئة وادعة وإن غضبت كل السجنيات هى لا تغضب، ثم رأيتها مرة واحدة فى لحظة غضب. أدركت أنها يمكن أن تقتل. عيناها الصافيتان مثل السماء فى يوم مشرق تلبدت وتعكرت وأصبحت بلون الطين الأسود. كانت الشاويشة فى السجن تقول القتل ليس جريمة يا ضكطورة، إنه لحظة غضب واحدة وتفوت، القتَّالات أحسن ناس، لا يدوروا ولا يلفوا زى بتوع المخدرات والنشالات.

تجمدت أمام المرآة وأنا أنظر إلى وجهى. ثم أكمل جسمى الاستدارة وأصبحت أواجهه وجها لوجه، وعينا لعين. ماذا رأى فى عينيى؟! رأيته يتراجع إلى الوراء دون أن يستدير حتى إلتصق ظهره بالحائط. أصبح جزءا من الحائط بغير حراك. وجهه بلون الحائط الأبيض. شفتاه بيضاوتان منفرجتان دون أن ينطق. تصورت أنه مات وهو واقف قبل أن أقترب منه.

لم أعد فى حاجة إلى المشرط. نطقت عبارة واحدة من كلمتين بصوت أبى الميت: أنا خلعتك.

* * * *

أربعون عاما مضت على هذه اللحظة. تصورت أنها سقطت فى العدم. إلا أنها باقية فى الذاكرة مثل نجم صغير يتألق فى الظلمة. حصلت بعدها على ورقة الطلاق وأنا فى بيتى معززة مكرمة. لم أخرج إلى المحكمة أو مكتب المأذون. لم أدفع شيئا للمحامين أو الزوج المخلوع، لم أرد له شيئا لأننى منذ البداية رفضت أن آخذ شيئا. وتحررت من قانون الطاعة بفضل مشرط الجراحة.

أقمت حفلا صغيرا فى بيتى بمناسبة الطلاق، جاءت صديقاتى الثلاثة بطة وصفية وسامية. أطلقت دادة أم إبراهيم زغرودة طويلة، قالت بصوت جدتى الفلاحة، بركة يا ضكطورة رجعتى لنا بالسلامة، كركرت بطة بضحكتها الطويلة المتقطعة، وقالت، عقبال عندنا يا رب! ابتسمت صفية بهدوئها المعتاد وقالت، إنتى يا نوال أشجع واحدة فينا، ورفعت سامية ذراعها فى الهواء كأنما تهتف فى مظاهرة، تسقط مؤسسة الزواج!

* * * *

أربعون عاما أسمع سامية تنطق الهتافين معا فى نفس واحد: تسقط مؤسسة الزواج تسقط الأمبريالية والصهيونية! مضى أربعون عاما دون أن تتحرر سامية من زوجها رفاعة، ودون أن تتحرر مصر من الأمبريالية والصهيونية.

فى السنوات الأخيرة فقدت سامية بعض قوتها مع فقدان الشباب وأحكم رفاعة سيطرته عليها، ومنذ هزيمة 1967 فقدت مصر بعض قوتها، بعد معاهدة كامب ديفيد عام 1976 فقدت مصر الوحدة العربية، تمزقت داخليا تحت وطأة الفتنة الدينية السياسية، وبعد الهزيمة فى حرب الخليج عام 1991 دخلت مصر غابة العولمة تحت السيطرة الإسرائيلية الأمريكية.

لهزيمة الكبرى

التقيت بشريف عام 1964 فى وزارة الصحة. خرج من السجن منذ عام واحد بعد أربعة عشر عاما وراء القضبان. شهقت بطة حين سمعت الخبر، إنتى مجنونة يا نوال ، خريج سجون وشيوعى كمان؟ !إنتفضت صفية، الشيوعية ضيعت أخويا أسعد ومالهاش مستقبل فى بلادنا يا نوال! مطت سامية شفتيها، الشيوعية ليست المشكلة يا أخواتى، المشكلة هى مؤسسة الزواج، مؤسسة فاشلة وليس لها مستقبل، وسوف تنقرض بإذن الله !

كركرت بطة بالضحك، يسلم بقك يا سامية، لكن المشكلة الحقيقية هى نوال، هى لا تؤمن بمؤسسة الزواج منذ العصر العبودى، فكيف تدخل المؤسسة بارادتها للمرة الثالثة؟! لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين فما بال الثالثة؟

كنت فى الثالثة والثلاثين من العمر، سقطت أوهام كثيرة عشعشت فى عقلى وخيالى .لم يعد قلبى يخفق كما كان فى العاشرة من عمرى أو العشرين .حياتى أصبحت كاملة دون رجل. الطب والأدب وابنتى واخواتى والصديقات والاصدقاء .حياتى ممتلئة بكل ما يشبع حاجات الانسان وما يفيض .فلماذا أتزوج؟ لماذا أضع نفسى تحت طائلة قانون يعود بى إلى الوراء عشرين عاما فأصبح قاصرة لا أملك جسمى ولا عقلى ولا أسافر إلا بإذن من زوجى؟ !

سألت شريف، هل نحن بحاجة إلى قانون الزواج؟ ألا يمكن أن نتزوج بإرادتنا الحرة دون كتابة ورقة؟ !ما جدوى هذه الورقة إذا كنت أثق بك وأنت تثق بى؟ سنتزوج بارادتنا نحن الاثنين ونفترق إن شئنا بارادتنا نحن الاثنين فلماذا الورقة؟

لكننا كنا فى عام 1964 وليس عام 2000، إنقضى ستة وثلاثين عاما حتى يسقط قانون الزواج القديم، كنت أتمرد عليه وحدى، كنت أعرف انه بقايا العصر العبودى، لكن أغلب النساء لم يكن معى، حتى صديقاتى الثلاثة بطة وصفية وسامية لم يملكن شجاعة الطلاق أو الاعتراض على القانون الا داخل الغرف المغلقة، اليوم تغير الحال، زاد عدد النساء والشابات المتمردات على قانون الزواج القديم، وتم تعديل القانون أكثر من مرة داخل مجلس الشعب، تعديل طفيف لا يمس جوهر القانون القديم، هكذا بدأت الفتيات يتزوجن دون قانون، أو بقانون جديد ليس فيه عقد رسمى مختوم بالنسر، وإنما عقد عرفى تعارف الناس عليه قبل نشوء الحكومات، إن الحاجة إلى الحب والجنس تنتصر على أعتى الحكومات المركزية وأقدمها فى التاريخ وهى الحكومة المصرية .أكثر من ذلك بدأت الفتيات يتزوجن بدون عقد على الاطلاق، دون حاجة إلى ورقة مكتوبة، مجرد الثقة المتبادلة بين الرجل والمرأة، كل منهما بالغ الرشد ومسئول عن الوفاء بالوعد .يمسك كل منهما بيد الآخر وينطق الوعد، لا أحد يشهد عليهما الا الله، أليست شهادة الله أهم من شهادة موظف الحكومة؟ !

قلت لشريف، إنهم يتكلمون كثيرا عن الايمان بالله، مع ذلك لا يؤمنون به، والا فلماذا لا تعترف الحكومة بشهادة الله؟ !

ضحك شريف وقال بصوته الهادئ، يا نوال أتريدين أن نتزوج أم تريدين تغيير العالم؟ قلت، أريد الاثنين يا شريف، قال ربما يتغير العالم بعد قرن أو نصف قرن، ولكننا نريد أن نتزوج اليوم، وإن لم نذهب إلى مكتب المأذون ونسجل العقد المكتوب فسوف يصبح أطفالنا غير شرعيين .

كان يوم 10 ديسمبر 1964، ذهبنا إلى المأذون وكتبنا العقد، سأل المأذون كم المهر؟ قلت له خمسة وعشرين قرشا، رمز العبودية، وضحكت، لكن المأذون لم يضحك، كان غاضبا لأن اجره يزداد بازدياد المهر، أراد أن يعقد الأمر طمعا فى أجر أكبر، ناوله شريف أجرا سخيا وقال، إكتب العقد يا شيخ بلاش تعقيدات، عندنا موعد ولازم نمشى بسرعة !

كان موعدنا فى البيت مع إبنتى منى، عمرها سبعة أعوام، طفلة عيناها عسليتان يكسوهما بريق، إشتد البريق وهى تفتح العلبة الملفوفة بالشريط الأخضر اللامع، ارتدت الفستان الجديد .

لونه وردى له كولة بيضاء من الدانتيلا، وباقة من الورد البلدى الأحمر والزهور البيضاء، جلسنا نحن الثلاثة حول المائدة الصغيرة فى شقة الجيزة نحتفل بعيد زواجنا الاول لا أحد يشهد عليه إلا الله والطفلة فى السابعة من عمرها .

فى أول لقاء مع شريف أدركت أننى أثق فيه. عيناه رأيتهما، نافذتان مفتوحتان إلى الأعماق. العينان هما الانسان فى نظرى. هناك قول مأثور يقول: تكلم حتى أراك، وأنا أقول أرنى عينيك حتى أراك .

فى أول لقاء سألت شريف عن علاقته بالكتابة والأدب .هذا السؤال كنت اسأله لأى رجل أو امرأة يمكن أن أصادقها. الكتابة عندى أعز ما أملك .الماء والهواء والكتابة. ثلاثة عناصر ضرورية للحياة. أنا اكتب إذن انا موجودة .لا أتصور الحياة الدنيا بدون ورقة وقلم. الحياة الأخرى أيضا لا أتصورها بدون ورقة وقلم .فى المدرسة الثانوية طردنى مدرس الدين من الفصل عام 1946 حين سألته، أيكون فى الجنة ورقة وقلم لمن يريد أن يكتب؟ وفى السجن عام 1981 كان الحراس يفتشون زنزانتى كل يوم ويقول رئيسهم مهددا: اذا وجدنا ورقة وقلم فهذا أخطر من أن نجد طبنجة! واستطعت رغم ذلك أن أخفى الورقة والقلم تحت أرض الزنزانة دون أن يعثر عليها أحد، ومنذ طفولتى لم أكن أنام دون الورقة والقلم تحت وسادتى، ومن أجل الورقة والقلم خلعت من حياتى الزوج الاول والثانى .

كان شريف هو زوجى الثالث .لم يكن يكتب الا المقالات السياسية .منذ أول لقاء قلت له أنت أديب يا شريف قبل أن تكون سياسى وقبل أن تكون طبيب، قال منذ طفولتى يا نوال كنت أحب الموسيقى والأدب، وكانت أمى تمسك يدى وتقول، أصابعك خلقت للموسيقى .

قبل الزواج حدثنى شريف عن حياته فى السجن وفى البيت، عن طفولته حين كان فى العاشرة من عمره عام 1933، ينتمى شريف إلى الطبقة الارستقراطية المصرية، أصحاب الأراضى والاقطاع منذ الخديوى والسلطان والمماليك، يملكون الأرض والمصانع والشركات، يشاركهم فيها الأسرة المالكة والأجانب، مثلهم الأعلى الملك فؤاد الاول ثم فاروق الأول، يتفاخرون بجذورهم فى الارض المصرية يرثونها عن الأب والجد، يتزوجون الشقراوات الأجنبيات حين يسافرون إلى باريس أو لندن للسياحة أو للحصول على الشهادات العليا. مدينة القاهرة فى الثلاثينات من القرن العشرين كانت تتألق فى الليل كالرجل الداعر، يتزوج المرأة الاجنبية أو الارستقراطية من الطبقة العليا، ثم يتسلل فى الليل إلى العشيقة المصرية من الطبقات الدنيا، يتكلم اللغة الانجليزية أو الفرنسية فى البيت، وفى وكر العشق أو اللذة يتكلم اللغة العامية الدارجة، أو لغة الشوارع، يثبت فى عروة البدلة الانيقة وردة حمراء، والطربوش

الأحمر فوق رأسه مائل نحو أذنه اليمنى أو اليسرى، ينتمى إلى حزب اليمين أو حزب اليسار، يحمل لقب الباشا الأحمر أو الأخضر أو الأصفر، يتحدثون عن الشعب المصرى الفقير مع رشفات الويسكى وقضمات الكافيار ودخان السيجار، يتبارون فى الانتخابات على المقاعد فى مجلس النواب أو الشيوخ، وفى الليل يتبارون على بنات الهوى فى الكاباريهات والعوامات الراسية على شاطئ النيل .فى البيت الكبير بيت العيلة الكريمة يحتفظون بالزوجة الأولى العجوز أم الاولاد، عفيفة طاهرة كالأم العذراء، فى البيت الثانى الخفى، مثل الحكومة الخفية، هناك الزوجة الثانية الشابة المكتنزة باللحم، من أجل الحب والعشق واستعادة الشباب، تحت سنة الله والرسول، لكل منهم ثلاثة بيوت أو أربعة حسب عدد الزوجات، ثم الشقة السرية تحمل اسم "الجارسونيرة "وهى كلمة فرنسية تعنى المكان الذى تفد اليه المومسات أو العشيقات السريات .يعود الرجل منهم آخر الليل إلى زوجته الاولى، تفوح منه رائحة الخمر وعطر النساء .يخلع الطربوش والبدلة والوردة الحمراء فى العروة، يعطى أم الاولاد ظهره، ثم يسقط فى النوم يشخر حتى ظهر اليوم التالى .

لم يرث شريف عن هؤلاء الرجال العهر وفراغ الدماغ .ورث عن أمه الانجليزية الارادة الحديدية، وعن جدته الفلاحة أم أبيه ورث الضمير الحى والاستقامة، لم تقرأ جدته كتاب الله، كانت مثل جدتى الفلاحة أم ابى لا تعرف القراءة، وكانت تقول ربنا هو العدل عرفوه بالعقل، ورث شريف عن جدته الايمان بالعدل، اصبح فى اعماقه منذ الطفولة جهاز عضوى يؤمن بالعدل أشبه بجهاز المناعة ضد الامراض، أليس هو الضمير؟ !

منذ طفولته كان قلبه يرق للخدم فى البيت والشحاذين ذوى العاهات فى الشوارع، فى النوم يرى نفسه نبيا أو قسيسا يدعو إلى العدل والخير، كان طفلا وحيدا حزينا فى بيت كبير، أبوه غائب معظم الوقت، أمه تنظر إلى اصابعه الطويلة النحيفة وتقول أصابع فنان مبدع أو جراح ماهر، كان يحب الفنانين ويكره الجراحين، لم يكن رجال الطبقة العليا يحترمون أهل الفن، يقولون عنهم "أرتيست"، يلفظون الكلمة بطرف اللسان فى ازدراء، يدخل الارتيست إلى قصورهم فى الافراح من الابواب الخلفية مع الخدم. يعزفون العود أو الكمنجة مع الطبلة والرق . يطرب السادة للغناء والموسيقى. يهزون رؤوسهم طربا، يلقون طرابيشهم على الارض، ينتشون، ينهلون من المتع التى حرمها الله حتى الثمالة، ثم ينامون، وفى الصباح ينهضون، يركعون لله ركعتين كنوع من الرشوة، يضعون الطرابيش فوق رؤوسهم، يشمخون بأنوفهم يتفاخرون بالتقوى والصلاح .

على شاطئ النيل فى الجيزة كنت أتمشى أنا وشريف. يحكى لى عن طفولته وايام الدراسة وكلية الطب. المظاهرات الوطنية. احداث كوبرى عباس فى الجيزة. فتح البوليس الكوبرى على الطلبة المتظاهرين، غرق بعضهم فى مياه النيل، تلقى بعضهم الرصاص فى صدره قبل أن يقفز فوق السور. اختلط الدم الاحمر بالماء والطمى .

تخرج شريف فى كلية الطب، عام 1946. كان طالبا متفوقا يحلم أن يكون طبيبا مثاليا، يعالج الفقراء بالمجان. اصطدم الحلم بالواقع القبيح. الدم والصديد والعرق فى جلاليب الفلاحين. الوجوه الضامرة الممصوصة ينزفون الدم فى البول. يمرضون بسبب الفقر والجهل والاستعباد وليس بسبب الجراثيم .

تحول الطبيب المثالى إلى مناضل ثورى يحلم بالغاء الفوارق بين الطبقات. كلمة الطبقة كانت محرمة محظور النطق بها تعنى الشيوعية والالحاد. أليس الله هو الذى خلق الفقير والغنى؟ أليس المال هو مال الله يعطى من يشاء بغير حساب؟

صوت شريف هادئ ينساب فى أذنى مع نسمة الليل فى الربيع .نحن فى عام 1965. عيناه يكسوهما حلم حزين .ملامحه تذكرنى بملامح أبى وزوجى الاول. ملامح الفدائيين والقديسين. أتذكرهما رغم مرور السنين . المظاهرة الصامتة عام 1951، الهتاف يدوى تحيا مصر حرة. عيناه تلتقطانى من وسط الملايين يكسوهما البريق . الحب جزء من الخيال وجزء من الحقيقة .يخفق له القلب رغم الموت والحرب .الدماء فوق الارض والاصابع حول عنقى. الهروب فى الليل قبل طلوع الفجر أحمل طفلتى فوق صدرى. فتح لى أبى بيته وذراعيه .لم يؤنبنى ولم يعاتبنى. ربما كان يحس تأنيب الضمير. ألم يملأ خيالى منذ الطفولة بأحاديث البطولة؟ سعد زغلول وثورة 1919، الحرب والقتال وتحرير الوطن .الحرية والاستقلال أو الموت الزؤام .فى أعماقه جهاز للايمان. أشبه بجهاز المناعة ضد الأمراض. فى خياله صورة عن الله. يحاول أن يستبدل الصورة بالحقيقة. يلوى عنق الحقيقة. يلوى عنقى لأصبح مطابقة للصورة. عنقى غير قابل للالتواء مثل عنقه. رأسى غير قابل للانحناء مثل رأسه. كلما عجز عن تغييرى اشتد به الاحباط .لم يملك شيئا يغيره الا ابنته بعد ان عجز عن تغيير العالم .

راح أبى ضحية الحلم الكبير مثل زوجى الاول. يذوب الحلم فى الحقيقة. مؤرق فى الليل والنهار .يسمع الدقات المنتظمة للزمن والنبض .الساعة فوق معصمه وقلبه تحت الضلوع .دقات منتظمة غريبة فى انتظامها. مفزعة فى استمرارها كدقات الموت البطىء .يهب من النوم حاملا سلاحه. يذهب إلى حرب لا يعرفها .يندفع فى الظلام كمن يمشى فى النوم .يمشى فوق الموت دون ان يتوقف. دون ان ينظر إلى الوراء .يتطلع إلى السماء .يرى صورته محمولا فوق الاعناق. الناس تهتف باسمه. يعيش يا يعيش! وهو يمشى فوق السحب حاملا سلاحه. مرهق يبحث عن الراحة. حزين ينشد الفرح. مهزوم يحلم بالنصر. يمشى وحده مثل خيال .الوجوه من حوله ميتة. كلهم موتى .كلهم غارقون فى الهزيمة. لا يملكون الا سلاحا مكسورا أو قلما مقصوفا .كلمات فوق الورق تطير فى الهواء .طلقات الرصاص والدم المراق .عيناه غارقتان فى الدموع. اهى دموع الحزن أم الفرح؟ اهو الموت أم الانطلاق نحو حياة جديدة؟

كنت أخرج لأتمشى على شاطئ النيل فى الجيزة. شريف يمشى إلى جوارى. يحكى لى عن السجن. أربعة عشر عاما فى السجن .دخل عام 1949 وخرج عام 1963 عشر سنوات منها تحت حكم جمال عبد الناصر من 1953حتى 1963 مع الاشغال الشاقة، قطع الاحجار فى الجبل فى سجن طره وأبو زعبل .

يسترجع شريف الذكريات وانا امشى إلى جواره صامتة ارمق الناس فى الطريق .وجوه الرجال متهدلة عيونهم منكسرة، إلى جوار كل واحد منهم زوجته يقبض على يدها كالأسيرة .النساء اجسادهن سمينة مربعة، يتأرجحن فوق كعوب رفيعة، ثقيلات الخطو بطيئات الحركة، بطونهم عالية، إلى جوارهن تسير بناتهن نحيفات رشيقات، كالزهور يتفتحن فى الربيع، ثم يأتى موسم القطف، يصبحن مثل أمهاتهن بعد ليلة الزفاف مكسورات القلب مترهلات .

انه عام 1967 شهر يونيو، بالضبط 10 يونيو، وانا امشى بجوار شريف فى شارع الجيزة .الساعة الرابعة صباحا قبل طلوع الفجر بقليل. الدنيا ظلام، الناس تمشى فى الليل كمن يمشون فى الحلم. خرجوا من بيوتهم يهتفون ضد الهزيمة. يطالبون بالسلاح. الحرب والقتال حتى الموت .تحيا مصر حرة. الأجساد تغطى الشوارع .لامكان لقدم مثل يوم الحشر، حين ينهض الموتى من القبور افواجا افواجا، وانا امشى إلى جوار شريف، كما مشيت إلى جوار أحمد فى المظاهرة الصامتة منذ ستة عشر عاما .الخطوة فوق الارض هادئة ثابتة. الصوت هادئ يشبه الصوت . العينان يكسوهما البريق ذاته والحلم ذاته. تحيا مصر حرة. نموت فداء الوطن. صوت عبد الناصر يهتف فى الاذاعات سنقاتل حتى النصر، الملايين فى الشوارع تهتف فى نفس واحد: النصر !النصر !

منذ العاشرة من عمرى وانا اهتف معهم، فى المدرسة الابتدائية فى منوف، فى المدرسة الثانوية فى حلوان، فى كلية الطب فى شارع قصر العينى، فى نقابة الاطباء بدار الحكمة، فى وزارة الصحة بشارع مجلس الامة، وفى شوارع القاهرة والاسكندرية والسويس والاسماعيلية وبور سعيد والجيزة والفيوم وبنى سويف والمنيا واسيوط وقنا واسوان .

سمعت شريف يهتف مع الناس :الموت حتى النصر !عيناه يكسوهما بريق الحلم الطفولى، كالدمعة الحبيسة لا تسقط ولا تجف .خرج من السجن بعد حكم بالاشغال الشاقة اربعة عشر عاما. خرج نحيف العود منتصب الرأس اكثر صلابة مما كان. لم يفقد الحلم ولا الامل. يفكر بالليل والنهار فى الثورة. يهب من النوم حاملا سلاحه. يندفع فى الظلام يمشى فى النوم. يمشى فوق الموت لا يتوقف .يسقط بين أيدى البوليس. يدخل السجن ويخرج ثم يدخل

ويخرج. يسير إلى جوارى صامتا يفكر. الرجال من حوله يتكلمون ويثرثرون. يتناثر فى الجو رذاذ لعابهم .لا يكفون عن الكلام .يقاطع بعضهم البعض .يتكلمون فى وقت واحد وهو صامت، واذا تكلم هو صمت الجميع .

منذ أن صدرت القرارات الاشتراكية عام 1962اصبح الناس أعضاءا فى الاتحاد الاشتراكى .صدرت الأوامر الادارية ودخل الموظفون والموظفات الحزب الوحيد .لم يتخلف أحد فى الوزارات أو الجامعات أو مؤسسات الدولة خوفا من الجهاز الحكومى. أقدم جهاز فى التاريخ البشرى منذ الفراعنة .لم يعرف الشعب المصرى إلا حكم الفراعنة أو الاحتلال الاجنبى. جاء القرن الواحد والعشرين ولم يتحرر الشعب المصرى بعد. تغيرت الاسماء والوجوه والالقاب وطرق الاستعباد والاستبداد، وبقى فرعون على حاله ومعه الاحتلال الاجنبى. تخلص الشعب المصرى من السيطرة الاجنبية بضعة أعوام قليلة ثم سرعان ما عادوا .

كلمة "الاشتراكية "كانت تجرى على لسان جمال عبد الناصر قبل الهزيمة بأعوام قليلة، بالضبط منذ عام 1962، ما يجرى على لسان رئيس الدولة يجرى على ألسنة رجال البلاط من الوزراء والموظفين والمثقفين من أصحاب الأقلام فى الصحف والمجلات .بدأت الوجوه تظهر على شاشة التلفزيون، السيد الرئيس من حوله كبار رجال الدولة والادباء والصحفيين، أصبحوا يحملون لقب النخبة، يندرجون تحت فئة المثقفين، احدى فئات الشعب العامل الخمسة "العمال والفلاحون والجنود والرأسمالية الوطنية والمثقفون ."كلمة فئات تبدو اكثر براءة من كلمة طبقات، مفردها كلمة طبقة، تنطوى على الصراع الطبقى أو الشيوعية. رئيس الدولة اصبح ينطق عبارة جديدة "تذويب الفوارق بين الطبقات"، انتشرت العبارة فى كل مكان، يرددها رجال البلاط والمثقفون واصحاب الاقلام . ينطقون العبارة بصوت رئيس الدولة، واللهجة ذاتها، يخرجون لسانهم عند نطق حرف الذال فى كلمة "تذويب ."

كانت بطة لا تزال صديقتى هى وصفية وسامية .اكتشفت بطة جذورها الفقيرة من الفلاحين فى قرية السنبلاوين .زوجها الدكتور حمدى اكتشف ان اباه كان عاملا فى مصانع النسيج بالمحلة الكبرى .ارتدى الدكتور حمدى بدلة زرقاء كحلية من تيل المحلة، لها ياقة مكوية منشاه شديدة الاناقة تشبه ياقة وزير الداخلية، رشح نفسه فى الانتخابات ودخل مجلس الشعب تحت فئة العمال .

لم ينجح الدكتور مصطفى زوج صديقتى صفية فى الانتخابات تحت فئة الفلاحين، رغم إرتدائه الجلباب والطاقية، وتحريك السبحة بين أصابعه بالحركة ذاتها مثل السيد الرئيس والوزراء والمثقفون ورجال البلاط .إلا أنه اصدر كتابا جديدا عن الاشتراكية فى الإسلام، أوضح الخلاف بين الاشتراكية الإيمانية الإسلامية والشيوعية المادية الالحادية، قال الاشتراكية بدأت فى الإسلام بأبى ذر الغفارى رضى الله عنه، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم

كان اشتراكيا يحارب أغنياء قريش من أجل "تذويب الفوارق "بين الطبقات فى الجزيرة العربية .ثم استطرد قائلا، كلمة "تذويب الفوارق "لا تعنى الغاء الفوارق، لأن الله خلق الناس درجات، وهذا هو الفرق بين الاشتراكية الإيمانية والشيوعية الالحادية، الشيوعية ترى العالم بدون طبقات على الإطلاق، مما يخالف كلام الله فى الكتب السماوية، وفى القرآن نص لا يقبل التفسير ولا التأويل، خلقنا الله درجات، أى طبقات، طبقة فوق طبقة، طبقة أعلى وطبقة أدنى، وخلقنا الله من نفس واحدة ذكر وأنثى، لكن الذكر أعلى من الأنثى، "وللرجال عليهن درجة"، إن هؤلاء النساء اللائى يحاولن مساواة المرأة بالرجل يخالفن كلام الله فى القرآن والكتب السماوية .

أصبح الدكتور مصطفى أحد كبار المفكرين فى مصر. إسمه الدكتور مصطفى الزهيرى .زوج صديقتى الدكتورة صفية. كانت صفية تؤمن بأن الناس خلقوا درجات أو طبقات. لكنها لم تؤمن بأن الرجل يرتفع عن المرأة درجة. صديقتى سامية لم تكن تؤمن بالفكرتين معا. تمط شفتيها وتقول، الناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عربى وعجمى ولا رجل أو امرأة الا بالصلاح والتقوى .لم تعد بطة تكركر بالضحك. أصبحت تجلس فى وقار تضع الساق فوق الساق، يكشف فستانها الحريرى الضيق عن ركبتين كبيرتين مكتنزتين باللحم، أصبحت بطة تحتل منصبا كبيرا فى الاتحاد الاشتراكى، وعضوا بارزا فى نقابة الصحفيين، كيف تحولت بطة من طبيبة إلى صحفية؟ أعضاء الاتحاد الاشتراكى دخلوا وزارة جديدة إسمها وزارة الثقافة والإعلام، احتلوا المناصب العالية فى مبنى التلفزيون الجديد، ومبنى الاذاعة، والمؤسسات الصحفية الجديدة ودور النشر ومجلس الثقافة الأعلى الدائم واللجان العليا التى أصبحت تحمل لقب اللجان الدائمة. أم ابراهيم كانت تقول الدوام لله .

أصبحت بطة رئيسة لاحدى اللجان الدائمة فى جهاز التلفزيون .تظهر فوق الشاشة تتحدث، صوتها أصبح وقورا فيما عدا حرف الراء تقلبه إلى غاء، تقول، الاشتغاكية بدلا من الاشتراكية، هذه اللدغة فى اللسان منذ الطفولة لم تستطع تغييرها مهما حاولت. يلتوى لسانها وعنقها القصير السمين وهى تنطق الكلمة، كأنما هى غصة فى الحلق، تشهق قليلا كالمختنقة تمد عنقها إلى أعلى مزهوة بالشعر الأسود أو الباروكة المصفوفة فوق رأسها درجات فوق درجات ، على شكل هرم أكبر من رأسها، تمط شفتيها الحمراوتين المكتنزين بحركة تكاد تشبه صديقتى سامية، وكانت بطة منذ أيام الدراسة لا تكف عن الضحك والكركرة، شفتاها منفرجتان دائما كأنما لا يمكن ان تنطبق احداهما على الأخرى .

العمال والفلاحين نسف المجتمع ومن حقهم الحصول على نسف المكائد فى مجلس الشعب .

صوتها يرن فى أذنى وأنا جالسة أمام الشاشة الصغيرة فى بيتى بالجيزة. شريف إلى جوارى يتابع حديثها. يبتسم فى هدوء حين يسمعها تقول نسف المجتمع بدلا من نصف المجتمع، والمكائد فى مجلس الشعب بدلا من المقاعد فى مجلس الشعب .

إلى جوارها يجلس الدكتور رشاد، ترك الطب وتفرغ للسياسة، أصبح من أعوان الوزير، يرأس احدى اللجان العليا الدائمة. يظهر على شاشة التلفزيون، يعجز مثل بطة عن نطق حرف الراء، يقول الديموكغاتية بدل الديموقراطية، يلتقى بى أحيانا فى فناء وزارة الصحة أو مدخل نقابة الاطباء بدار الحكمة فى شارع قصر العينى . يستوقفنى ويهتف بصوته الرقيق :نوال مش معقول !شعرك بقه أبيض خالص زى التلج، لكن مديكى تشاغم خطيغ! (يعنى تشارم خطير)، وكلمة "تشارم "تعنى باللغة العربية "جاذبية ."

منذ المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية عام 1962 لم ألتق بالدكتور رشاد إلا على شاشة التلفزيون، أو فى الطريق بالصدفة .كان عضوا فى المؤتمر الوطنى مثلى عام 1962إلا أنه كان يجلس فى الصفوف الأمامية مع النخبة المثقفة .كنت أجلس فى الصفوف الخلفية مع الشباب .حين جاء دورى فى الكلام قلت بصوت سمعه الجالسون فوق المنصة منهم جمال عبد الناصر ووزير الداخلية .تعكرت الوجوه وأنا اقول الفلاح هو الذى بوله أحمر، هذا ما سمعته من جدتى الفلاحة، أهناك فلاح واحد فى مصر لا ينزف الدم مع البول؟ ينتشر مرض البلهارسيا فى الريف بنسبة 99%، سجل وزير الداخلية إسمى الثلاثى فوق ورقة أمامه .بعد الاجتماع استوقفنى الدكتور رشاد عند الباب الخارجى للجامعة فى الجيزة، وقال بئه ده كلام يتئال يا نوال؟ الفلاح بوله أحمر؟! ده تهكم واضح على الاشتغاكية وسيادة الغيس شخصيا. (يعنى الاشتراكية وسيادة الريس .(

منذ هذا المؤتمر عام 1962دخل إسمى القائمة السوداء، أصبح لى دوسيه صغير فى وزارة الداخلية يحمل إسمى الثلاثى، الأب والجد السعداوى الذى مات قبل أن أولد. بعد أن تزوجت شريف حتاتة فى ديسمبر 1964 أضيف إلى اسمى كلمة أخرى سيئة السمعة "شيوعية" يضيفون إليها كلمة أكثر سوءا "حمراء"، لى جريمة سابقة تصطبغ باللون الاحمر، هى عبارتى عن الفلاح وبوله الأحمر وأنا امرأة ايضا، المرأة الحمراء ليست كالرجل الاحمر، كان فى مصر رجل يسمونه "الباشا الاحمر" تعنى الباشا الشيوعى :يمكن للرجل أن يكون أحمر دون المساس باخلاقه، فهى كلمة سياسية، اما المرأة الحمراء فهى تندرج مثل الليالى الحمراء تحت بند الاخلاق، مثل "امرأة الشارع "فى اللغة تعنى المومس أما رجل الشارع فهو المواطن الكادح من فئات الشعب، الرجل الحر يعنى الرجل الأبى الشجاع المدافع عن الحرية، أما المرأة الحرة أو الداعية إلى حرية المرأة فهى إباحية تدعو إلى الفساد الاخلاقى .

سكن شريف معى فى شقتى الصغيرة بشارع مراد بالجيزة .أصبحت الشقة تحت المراقبة ثمانية وعشرين عاما حتى انتقلنا منها .كانت مراقبة غير دائمة متقطعة حسب ذبذبات الحكم فى مصر، حكم مذبذب بين اليسار واليمين، يستقر فى الوسط دون نظرية أو فكر، ينتقل من النقيض إلى النقيض بين يوم وليلة، يلعن الاستعمار كالشيطان يوما ويقدسه كالإله فى يوم آخر، ما بين هذا وذاك يتحول الأصدقاء إلى أعداء، أو الأعداء إلى أصدقاء .

مثل هذا الحكم لا يؤدى فى النهاية إلا إلى الهزيمة، منذ ولدت فى بداية الثلاثينات حتى اليوم لم تشهد بلادنا إلا الهزيمة وراء الهزيمة، حل الامريكان محل الإنجليز ودولة إسرائيل أصبحت تملك الترسانة النووية والسلطة العليا، تحلم بأرض الله الموعودة من النيل إلى الفرات، لم يعد الفرات بعيدا عنها بعد حرب الخليج عام 1991، منذ عهد السادات وبداية عصر الانفتاح عام 1974 كف رجال البلاط والنخبة المثقفة عن نطق كلمة الاشتراكية، أصبحت من الكلمات المحظورة، عادت مصر إلى مجتمع النصف فى المائة .ازداد الفقراء فقرا والأثرياء ثراء، فتحت البورصة أبوابها المغلقة منذ العهد الملكى القديم. انتشرت كلمة الديموقراطية والليبرالية .تجمع نفر من النخبة المثقفة فى قصر السادات وصدر قرار جمهورى بإنشاء المعارضة والأحزاب السياسية. أصبح حزب الحكومة هو الأكبر، يمكن عند الضرورة أن يبتلع الأحزاب الأخرى، يمين ويسار ووسط، كما ابتلعت عصا موسى الثعابين الصغيرة .

لم أدخل أى حزب بطبيعة الحال، كتبت مقالا بجريدة الشعب، إحدى الصحف الجديدة التى حملت اسم حزب العمل، أحد الاحزاب المعارضة .كان مقالا بعنوان :من ينشئ الأحزاب فى مصر، الشعب أم الحاكم؟ وفى يوم 6 سبتمبر 1981 اقتحم رجال البوليس بيتى فى شارع مراد بالجيزة، كسروا الباب وأخذونى إلى سجن النساء بالقناطر الخيرية، وجدت نفسى متهمة بالتآمر لقلب نظام الحكم فى مصر لحساب دولة أجنبية إسمها بلغاريا، لماذا بلغاريا بالذات؟ لا أعرف .

لم أسافر فى حياتى إلى بلغاريا ليس لى معرفة بامرأة بلغارية أو رجل بلغارى، لا أعرف اللغة البلغارية، لا أكاد أعرف شيئا عن بلغاريا، أنسى موقعها فوق خريطة العالم .

إن تلفيق التهم للمعارضين أمر معروف فى كل العهود، فى كل البلاد، لكن هذه التهمة كانت أشبه ما تكون بالنكتة، يضحك شريف ويقول :كده يا نوال تتآمرى مع بلغاريا على قلب نظام الحكم من غير ما تقوليلى؟ !

تضامن النساء

فى طفولتى المبكرة قبل أن أعرف من هو أبى، عرفت أمى، عرفتها بالشكل والرائحة والاسم والجسم، كان جسمها هو جسمى أو يشبه جسمى، كنت أتضامن مع أمى ضد أبى والعالم الخارجى، لكن شيئا ما حدث جعلنى أبتعد عن أمى، كنت طفلة لا أعرف بالضبط ماذا يبعدنى عن أمى، وماذا يبعد أمى عنى، ربما هو أبى كان يقف بينى وبين أمى، أو ربما هو العالم الخارجى كان يخدعنى، يصور لى أن الأب هو كل شىء، الاسم والشرف والاحترام والدين والعلم والماضى والحاضر والمستقبل والدنيا والآخرة.

لم يكن للأم شىء من كل هذا. بدأت أثور ضد أبى والعالم الخارجى من أجل أمى. تصورت أن أمى سوف تفرح وتتضامن معى، لكنها تضامنت مع أبى والعالم الخارجى ضدى. هذه أول صدمة فى طفولتى. كنت فى السادسة من عمرى حين تلقيت الصدمة الأولى فى أمى. رأيتها واقفة تبتسم والأيادى الغليظة تنتزعنى من الفراش، تربط ذراعى وساقى، وتستأصل بالموس عضوا من جسدى.

أصابتنى خيبة أمل فى أمى، أصبحت أتجه نحو أبى، بدا أبى كأنما يحنو علىَّ أكثر من أمى، كأنما يحبنى أكثر من أمى، أى خديعة وأى وهم تسرب إلى عقلى دون أن أدرى.

كم مضى من العمر وأنا أعيش هذا الوهم؟ قبل أن تموت أمى بقليل أو ربما بعد أن ماتت بدأت أدرك الحقيقة. كانت الحقيقة مثل جبل الثلج الغارق تحت الماء. تكشف عن نفسها جزءا جزءا.

حيث بلغت الخمسين من العمر وبعد أن دخلت السجن أدركت أن تضامن النساء أخطر من السلاح النووى. لم يكن يهدد إدارة السجن إلا التضامن بيننا نحن النساء. بعد أن خرجت من السجن أدركت أن تضامن النساء يمكن أن يسقط النظام الحاكم.

ألهذا السبب كان تنظيم النساء من المحرمات فى نظر الأحزاب السياسية جميعا، يمين ويسار، وحكومة ومعارضة؟! منذ بدأنا تجميع صفوف النساء فى مصر عام 1982 تضافرت القوى الحكومية وغير الحكومية على ضرب أى محاولة يمكن أن توحِّد النساء.

النساء أنفسهن كن يضربن المحاولة مثل الرجال. كالأم التى تضرب ابنتها إرضاء للزوج المسيطر أو الأب الحاكم. منذ عام 1982 وحتى هذا العام 2000 كم محاولة ضربت؟ بعد كل ضربة ننهض من جديد ونجمع صفوف

النساء. ثمانية عشر عاما نحاول توحيد جهود المرأة المصرية دون جدوى. وفى عام 1999 شكلنا لجنة تحضيرية، أكثر من مائة شخص من أجل تكوين الاتحاد النسائى المصرى. عقدنا الاجتماعات، نشرنا الدعوة بين الجمعيات النسائية. بدأت الفكرة تنتشر. تحمست لها أعداد كبيرة من الشابات والشباب، وجمعيات المرأة فى المحافظات. قررنا عقد إجتماع يوم 22 أغسطس عام 1999 للإعلان عن بدء تكوين الاتحاد النسائى المصرى. قبل موعد الاجتماع بأيام قليلة فوجئنا بحملة صحفية ضد الاجتماع، وتصريحات حكومية أن هذا الاجتماع غير قانونى.

وفى عام 1992 نشرت كتابا كاملا بعنوان معركة جديدة فى قضية المرأة، يوضح الكتاب كيف أغلقت الحكومة المصرية جمعية تضامن المرأة العربية بقرار غير قانونى يوم 15 يونيو 1991، رفعنا قضية ضد الحكومة فى المحكمة الإدارية بمجلس الدولة، وانقضى تسعة أعوام دون أن يصدر قرار المحكمة.

وتستمر المعركة حتى اليوم من أجل تضامن النساء. بدأت ظاهرة جديدة هذا العام هى تضامن الأم مع ابنتها ضد الأب أو الأخ. يوم 17 يونيو 2000 دافعت أم عن حياة ابنتها حتى الموت. الابنة الصغيرة تعرضت للاغتصاب وحملت سفاحا. بدأت علامات الحمل تظهر على الفتاة الصغيرة. ذاع الأمر بين أهل قرية "الرواتب" التابعة لمركز أبوطشت بمحافظة قنا فى صعيد مصر. عقد رجال الأسرة مجلسا واتخذوا قرارا. قتل الفتاة لمحو العار. وقع الاختيار على شقيقها (اسمه بدر نور الدين) للإجهاز عليها، ويساعده فى ذلك عمها (عبد الفتاح) وابن عمتها (عبده محمود) وابن عم أبيها (أحمد راشد)، أربعة رجال أشداء يعملون بالفئوس فى الأرض، استدرجوا الفتاة الصغيرة بمفردها لقتلها، لكن أمها الواعية أدركت ذلك، كانت تقف لهم بالمرصاد تحول دون قتل ابنتها، اتفق الرجال على خداع الأم وابنتها، قالوا أن ابن عمتها عبده محمود سوف يتزوج منها تغطية على العار (ربما هو الذى تسبب فى الحمل لا نعرف) ولكنه سيتزوج منها بعد إجهاضها من الحمل السفاح، أصرت الأم على الذهاب مع ابنتها مع بعض سيدات الأسرة لمتابعة عملية الإجهاض، التى تمت داخل عيادة طبيب فى نجع حمادى، ظلت الفتاة ثلاثة أيام تحت الملاحظة بالعيادة، وفى اليوم الثالث طلبت الأم عودة ابنتها، أحست أن مؤامرة تدبر لقتل ابنتها، هددت بإبلاغ الشرطة إذا تعرضت ابنتها لمكروه، تم اصطحاب الأم لمرافقة ابنتها فى العودة بصحبة ابن عمتها عبده محمود، واتفقوا مع سائق أجرة على السير فى طريق زراعى بعيد عن البيوت لتمكينهم من تنفيذ الجريمة، فى ليلة الحادث كان الثلاثة الرجال الآخرون ينتظرون فى الطريق، وهناك حاولوا انتزاع الفتاة من يد والدتها لقتلها، إلا أن الأم تشبثت فى استماتة لحماية ابنتها، وقدمت نفسها فداء لها وهى تستغيث وتستعطفهم بالصفح عنها، لكن طعنات السواطير هوت على جسد الأم يضربها الأربعة رجال حتى أصبحت جثة ممزقة أمام ابنتها، ثم انهالوا على البنت الصغيرة بالسواطير بعد قتل الأم، وتم تمزيق الجثتين إلى اثنى عشر قطعة، ألقوا بها فى الترعة داخل أكياس بلاستيك كبيرة.

هذه هى الأم الجديدة التى أصبحت تتضامن مع ابنتها الحامل سفاحا حتى الموت. وكانت الأم فى الماضى القريب تتضامن مع رجال الأسرة فى قتل ابنتها لمحو العار. لا يمكن أن أنسى هذه الأم التى كانت تمشى فى الشوارع تزغرد بالفرح، إلى جوارها يمشى ابنها الأكبر حاملا رأس ابنتها الصغرى على سن السكين بعد أن فصل رأسها عن جسمها، لم تكن الفتاة قد حملت سفاحا، بل كانت تحب زميلها فى العمل وتفكر فى الزواج منه، رآها أخوها تمشى فى الشارع مع زميلها، فانقض عليها بالسكين، وراحت الأم تزغرد بالفرح، وتمشى إلى جواره مرفوعة الرأس بعد أن غسلت العار بالدم. أى عار وأى دم؟ أى خديعة وأى وهم كان يعشعش فى عقول الأمهات كما كان يعشعش فى عقلى منذ الطفولة.

كان صوت أمى يخفت إلى جوار صوت أبى. كان أبى يقول هذا العالم فاسد يا ابنتى قائم على دعامتين الظلم والكذب. مع ذلك كان أبى يرى أن أخى أعلى منى درجة لأنه ذكر، يعطيه ضعف ما يعطينى من مصروف، ويقول، للذكر مثل حظ الأنثيين.

كنت أتطلع لأمى لتقول شيئا، كان أبى يدعم كلامه بكلام الله، لم يكن لأمى أن تعارض كلام الله.

منذ عام 1957 حين كنت طبيبة القرية بدأت الحكومة تطاردنى بهذه التهمة، معارضة كلام الله. لم أقترف إثما إلا التضامن مع فتاة مريضة حملها البوليس بالقوة إلى بيت زوجها، كان يكبرها بواحد وخمسين عاما، يضربها كل ليلة ويغتصبها جنسيا من الخلف وهى ساجدة تصلى لله، كنت الطبيبة المسئولة، واجبى حماية الفتاة من زوجها، لكن قوة البوليس كانت أقوى منى، انتزعوا الفتاة وأعادوها إلى زوجها، ألقت نفسها فى النيل بعد أسبوع، وأنا أصبحت متهمة بالعمل ضد الدين، دخل أسمى القائمة السوداء، تحت إسم عدوة الله. هل التضامن بين النساء يعنى عداوة الله؟

منذ عام 1957 أصبحت متهمة بعدم الإيمان بالله، وفى عام 1962 أضيفت إلىَّ تهمة جديدة هى، عدم الإيمان بالثورة المجيدة، كان زملائى وزميلاتى فى نقابة الأطباء قد انتخبونى لأكون عضوا فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية، عقد فى قاعة جامعة القاهرة عام 1962، جلس جمال عبد الناصر فوق المنصة يتوسط الوزراء وكبار رجال الدولة. تبارى أعضاء المؤتمر فى تعريف من هو الفلاح ومن هو العامل. فجأة تلاشت البديهيات والظواهر الواضحة كالشمس. لم يعد أحد يعرف من هو العامل الحقيقى ومن هو الفلاح الحقيقى. كنت شابة صغيرة حديثة العهد بألاعيب السياسة. حين جاء دورى للكلام قلت الفلاح هو الذى بوله أحمر.

فى طفولتى كانت جدتى تقول أن البول الأحمر دليل الصحة والعافية، لم أكن أعرف أنه الدم حتى سمعت أبى يقول أن كل الفلاحين فى مصر يمرضون بالبلهارسيا، وفى كلية الطب عرفت أن أبى كان صادقا، ومات أبى قبل المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية بثلاث سنوات، لم يشهد المباراة حول تعريف من هو الفلاح ومن هو العامل، ولا هؤلاء الذين خلعوا البدل الإفرنجية وارتدوا الجلاليب أو العفاريت الزرق ودخلوا البرلمان أو مجلس الشعب تحت اسم الفلاحين أو العمال.

فى فبراير 1958 بدأت الوحدة بين مصر وسوريا، وفشلت فى سبتمبر 1961. ظلت أسباب الفشل مجهولة. لا يعرف الشعب شيئا عما يدور فى الدوائر العليا. تمتلئ الصحف بالأكاذيب وتسرى الإشاعات.

كان صديقى رجاء الشاعر يعرف ما يدور. كتب قصيدة حذفت الرقابة أهم أجزائها، كشف فيها عن أن الوحدة لم تقم إلا لإنقاذ سوريا من خطر الاشتراكية، وراء قيام الوحدة كان رجال حزب البعث والأثرياء فى سوريا. لم ينفذ جمال عبد الناصر ما أرادوه، طردوه من سوريا وحدث الانفصال.

أصبح رجاء الشاعر مطاردا من البوليس. لم يكن رجاء ينتمى إلى حزب اليسار أو اليمين، كان شاعرا يكتب القصائد، أصبح متهما بالشيوعية، لم يكن أمامه طريق للحياة إلا الهجرة خارج الوطن.

بعد هزيمة عام 1967 لم يعرف أحد سبب الهزيمة. امتلأت الصحف بالأكاذيب. جاءتنى رسالة من رجاء الشاعر، يقول فيها، أعيش فى باريس مع أديب من سوريا وشاعر من العراق، لم يعد الوطن العربى يحتمل وجود الشعراء والأدباء، نتابع هنا ما يحدث فى بلادنا، ما حدث فى مصر يوم 5 يونيو ليس نكسة بل هزيمة كبرى، خططت له الولايات المتحدة مع إسرائيل، أبلغوا الاتحاد السوفياتى كذبا أن إسرائيل تستعد للهجوم على سوريا، أبلغت موسكو هذا الخبر إلى القاهرة، قام عبد الناصر بتهديد إسرائيل إذا اعتدت على سوريا، كانت الخطة هى استدراج مصر إلى الحرب. لم يكن جمال عبد الناصر مستعدا للحرب، لكن المستشارين الامريكيين فى الجيش المصرى غرروا به، شجعوه على طرد القوات الدولية من شرم الشيخ، خرجت القوات الدولية بسرعة دون اعتراض الثالوث المشارك فى الخطة: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ألا يذكرك هذا بالاعتداء الثلاثى على مصر عام 1956؟ ورابعتهم إسرائيل؟ ما أن خرجت القوات الدولية من شرم الشيخ حتى بدأت إسرائيل هجومها على مصر، ضربت الطيران المصرى كله وهو نائم فوق الأرض صباح يوم 5 يونيو 1967، واحتل الجيش الإسرائيلى سيناء بالكامل.

وفى عام 1973 جاءتنى رسالة من رجاء الشاعر، يشرح لى كيف وقعت الثغرة فى حرب أكتوبر 1973، وخسائر الجيش المصرى، كانت الصحف تنشر الأكاذيب ولا أحد يعرف الحقيقة. كتب رجاء الشاعر يقول، لعبت الولايات المتحدة الأمريكية دورا مشابها لما حدث فى حرب 1967، أقنعت أنور السادات أنه يمكن أن يحرك القضية السياسية بمعركة عسكرية محدودة، لكن الجيش المصرى بعد أن أسقط خط بارليف أراد أن ينطلق إلى المضايق ومنها إلى تل أبيب، هنا أصدر السادات أمره بإيقاف إطلاق النار، انتهز الجيش الإسرائيلى هذه الفرصة وطوق الجنود المصريين، هكذا وقعت الثغرة.

أعقب هذه الهزيمة استدراج السادات لتوقيع المعاهدة مع إسرائيل فى كامب ديفيد عام 1976، أكبر مسمار فى نعش الوحدة العربية. وجاءت حرب الخليج عام 1991 لتمسح من الخريطة أسم العالم العربى، وتضع بدلا منه اسم الشرق الأوسط تحت سيطرة إسرائيل.

منذ تزوجت شريف عام 1964 لم تكف الحكومة عن مطاردتنا. حصل شريف على عمل فى الهند وغادر مصر عام 1973. عاش وحده فى المنفى أربعة أعوام. أغرق نفسه فى العمل والكتابة وأحب الهنود. بقيت فى مصر لأرعى الابنة والابن، يرتبطان بحياتهما فى المدرسة، الزملاء والزميلات والأهل والأصدقاء والصديقات، لم يكن لنا أن نخلعهما من جذورهما فى هذه السن المبكرة ليعيشا الغربة.

ثم انتقل شريف إلى أديس أبابا فى الحبشة. عاش ثلاثة أعوام أخرى فى المنفى. لم يعد إلى مصر إلا عام 1980، قبل أن يكسر رجال البوليس باب بيتنا ويأخذونى إلى السجن يوم 6 سبتمبر 1981.

بعد خروجى من السجن بدأت النساء والشابات يترددن على بيتى فى الجيزة. ظهرت فى الأفق فكرة إنشاء جمعية تضامن المرأة العربية. تكونت النواة الأولى، مائة وعشرين امرأة من ثمانية بلاد عربية منها مصر. أصبح شعارنا: رفع الحجاب عن العقل، المعرفة قوة، والتضامن بين النساء قوة.

فى عام 1982 بدأنا نؤسس الفرع المصرى تحت اسم الجمعية الأم. وقفت الحكومة المصرية ضدنا ثلاثة أعوام، وصلنى خطاب فى 19 أغسطس 1983 بشعار الدولة النسر، يقول الآتى بالحرف الواحد:

"تقرر رفض تسجيل جمعية تضامن المرأة العربية لعدم موافقة مباحث أمن الدولة، بعد الإطلاع على رد مديرية أمن القاهرة، إدارة البحث الجنائى قسم مكافحة جرائم الآداب العامة."

أرسلت صورة من هذا الخطاب إلى جميع الصحف فى مصر أردت أن أكشف كيف تتعامل الحكومة مع المواطنات من الشعب، كيف تنتهك الحكومة القانون والدستور تحت اسم مكافحة جرائم الآداب العامة. بدأت حملة صحفية ضد وزارة الشئون الاجتماعية، قادها كبار الصحفيين من اليمين واليسار ومن الحكومة أيضا، جريدة الأخبار من أكبر الصحف الحكومية فى مصر، مصطفى أمين من أكبر الصحفيين المصريين، يكتب عمودا يوميا فى جريدة الأخبار تحت عنوان فكرة، يوم 23 أكتوبر 1983 نشر ما يأتى بالحرف الواحد:

فكرة!

منذ عام اجتمع عدد من السيدات بعضهن أساتذة فى الجامعة ومدرسات بها وصحفيات وشاعرات وكاتبات وربات بيوت واتفقن على تأليف جمعية "تضامن المرأة" مهمتها النهوض بالمرأة والدفاع عن حقوقها والارتقاء بها.

وأعترض البعض بأنها حركة عنصرية رجعية تعمل على تكتيل النساء ضد الرجال، وتفصل بين مشاكل المرأة ومشاكل المجتمع. ولكن جمعية تضامن المرأة كانت تفادت هذا الاعترض عندما فتحت عضويتها للرجال، وفعلا اشترك بعض الرجال فى نشاط الجمعية.

ومنذ بداية العام والجمعية فى نشاط مستمر، تجتمع مرة كل أسبوعين، وتقيم ندوات ثقافية وفنية وأدبية وتناقش بعض الكتب التى ترتبط بأهداف الجمعية. ونظمت دراسات عن مشاكل المرأة العاملة ونظرة الصحافة والتليفزيون والإذاعة والسينما إلى المرأة المصرية.

وتقدمت الجمعية إلى وزارة الشئون الاجتماعية لشهرها. وإذا بالجمعية تتلقى خطابا من إدارة مكافحة جرائم الآداب العامة ترفض قيام هذه الجمعية!

ودهشت عضوات الجمعية، ما علاقة بوليس الآداب بجمعية هدفها المساهمة فى رفع المستوى الاجتماعى والثقافى للمرأة فى مختلف المجالات وربط مشاكلها بمشاكل المجتمع. وفتح مجالات جديدة أمام المرأة فى العمل، وتنمية الشخصية الأصلية للمرأة المصرية؟

هل الحديث عن الحرية قلة أدب؟ هلى الكلام عن الديموقراطية عمل فاضح فى الطريق العام؟ هل مطالبة المرأة بمزاولة حقها الانتخابى قلة حياء؟ نفهم أن يكون عمل بوليس الآداب محاربة الفساد؟ ولكن

ما علاقة بوليس الآداب بأساتذة الجامعة والمثقفات والمؤلفات والشاعرات؟ أى شىء فى أهداف الجمعية فيه قلة أدب أو قلة حياء؟!

إن رئيسة الجمعية هى الدكتورة نوال السعداوى الكاتبة المعروفة وصاحبة المؤلفات العديدة التى ترجمت إلى عدة لغات، وآخر كتاب لها هو "الإنسان". اثنتا عشرة امرأة فى زنزانة واحدة. وهو مهدى "إلى كل من عرف القهر فى البيت أو فى السجن" وهى رواية عن حياة 12 سيدة قبض عليهن فى 5 سبتمبر سنة 1981 بتهمة أنهن خصوم الحكومة! وبينهن عدد من أبرز أساتذة الجامعة ومدرساتها والصحفيات والكاتبات.

فهل أعتبر بوليس الآداب أن هذا الكلام قلة أدب وقلة حياء ولهذا رفض أن تكون جمعية رئيستها مثل هذه الدكتورة طويلة اللسان؟

وسكرتيرة الجمعية هى الدكتورة منى أبو سنة الاستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس. ومن أعضاء الجمعية الدكتورة لطيفة الزيات والدكتورة ليلى عنان والدكتورة عواطف عبد الرحمن والدكتورة عفاف محفوظ وإنجى رشدى المحررة بالأهرام وعائشة أبو النور الكاتبة بأخبار اليوم والأستاذات عطيات الأبنودى وشهيرة محرز ومنى حلمى والدكتورة سهى عبد القادر !..

يقولون أن الدولة تحيل كل شىء يتعلق بالمرأة إلى بوليس الآداب.

وإذا كان هذا صحيحا، فهذا أمر لا يمكن السكوت عليه فى الوقت الذى أصبح فى مصر وزيرات وسفيرات ووكيلات وزارات وعضوات مجلس الشعب!

صدق .. أو لا تصدق!

مصطفى أمين

وفى جريدة الشعب الناطقة فى ذلك الوقت بلسان حزب العمل الاشتراكى، كتب فتحى رضوان من أكبر رجال السياسة فى مصر يقول فى 22 نوفمبر 1983 تحت عنوان:

دولتنا بوليسية

تفضلت الأديبة الكاتبة الدكتورة نوال السعداوى. فأطلعتنى على خطاب أرسل إليها من السيد المدير العام للمكتب الفنى بالإدارة الإجتماعية بالوايلى بمنطقة القاهرة، مؤرخ فى 1982/8/9 يتضمن قرارا صادرا من سيادته يقضى برفض عدم اشهار جمعية "تضامن المرأة"، وقد ذكر الخطاب المشار إليه كجزء من قرار الرفض ومسبب له ما نصه: عدم موافقة مباحث أمن الدولة.

والحق أننى تولانى عجب لا نهاية له من أن إدارة من إدارات الحكومة، لا تجد حرجا فى أن تعلن ببساطة أنها تعمل لحساب مباحث الدولة، وأنها تتلقى صراحة أوامر وتوجيهات من هذه المباحث فتعمل بها وتطيعها، وتعلن للناس ذلك أى تعلن للناس أنها لا تجد بأسا فى أن تكون ذيلا لإدارة مباحث أمن الدولة. وهذا شىء خطير من كل ناحية فمباحث أمن الدولة هى جهاز من أجهزته العديدة المكونة لجهاز أكبر كثيرا وأضخم، وهو جهاز الدولة الشامل العظيم، ومن ثم فإن هذا الجهاز الجزئى، مهما بلغ من خوف الناس منه وخشيتهم من قدرته على إيذائهم ولا سيما فى ظل قوانين الطوارئ، إلا أنه ليس سيد الحكومة، ولا صاحب الأمر والنهى فيها.

فإذا كانت وزارة الشئون الاجتماعية قد قبلت أن تخضع فى المسائل الخاصة بتأليف جمعيات لتوجيهات إدارة مباحث أمن الدولة وأن تتلقى الأوامر منها فتطيع وتنفذ الأمر، وكأن هذه الوزارة عسكرى من عساكر الشرطة، يوجه فيتجه ويؤمر فيذعن، فقد كان ممكنا أن يتم هذا الأسلوب من الخضوع والطاعة، فى تستر. فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا: (إذا بُليتم فاستتروا)، والستر الذى نريد أن نسدله على الوزارة، يقتضيها أن تتلقى خطابات إدارة مباحث الأمن، فتنفذ ما جاء فيها وتتحمل مسئولية القرار الذى أصدرته إدارة المباحث دون أن تعلن أنها تلقت هذا الأمر، تلقت الخطاب الصادر من الوزارة إلى الجمهور المتعامل بوضع هذا الاعتراف المؤذى، فى صدر هذا الخطاب فيعرف الناس جميعا أن حكومتنا هى حكومة بوليسية وأن صاحب السلطة الحقيقية فى تصريف البلاد هو مخبر المباحث الذى يكتب التقرير لإدارة المباحث التابع لها مقترحا عدم الصريح بتأليف تكوين الجمعية التى يطلب تشكيلها عدد من أفاضل أساتذة الجامعة أو عدد من افاضل السيدات والكاتبات وصاحبات الرأى ممن لهن عدد ضخم من التلاميذ والمريدين بدعوى أن هذه الجمعية جمعية شيوعية.

والحكومة البوليسية هى حكومة مكروهة من العالم كله، وبعض الحكومات البوليسية تخفى "بوليسيتها" تحت ستار من المدنية والسرية ولا تفعل ما تفعله وزارة الشئون الاجتماعية علنا وبلا خجل.

فقد سبق أن أخبرنى وكيل تعليم من كليات الجامعة أنه فكر وعدد من زملائه الأساتذة فى تأليف جمعية الدفاع عن حقوق الإنسان فى إحدى عواصم الصعيد، فجاءهم خطاب مماثل تماما للخطاب الذى وصل السيدات اللواتى فكرن فى تكوين جمعية تضامن المرأة.

والمؤسف حقا أن هذا التصرف الذى يصدر من وزارة ترأسها أستاذة للقانون هى الدكتورة أمال عثمان وهى بحكم ثقافتها، ومهنتها، وعلمها تعرف الحكومة البوليسية، ?تعرف ما يقوله وقاله علماء القانون فى استهجانها، والدعوة إلى وضع حد لخصائصها فى كل بلد.

والطريف الذى يحول الأمر - فى موضوع دس المباحث أنفها فى نشاط الوزارات والمصالح الحكومية إلى مهزلة مبكية ومأساة مضحكة - أن طلب وزارة الشئون الاجتماعية يقول: إن اقتراح منع التصريح بتكوين جمعية تضامن، صدر من إدارة البحث الجنائى لمكافحة جرائم الآداب العامة .. ومعنى ذلك بعبارة واضحة ان تصنيف النشاط الاجتماعى فى وزارة الشئون الاجتماعية اضاف تأليف الجمعيات إلى إدارة تكافح الانحطاط الخلقى، وترويج الفاحشة والعمل على ممارستها، وهو شىء آخر يرينا العقلية التى يحكم بها على نشاط أصحاب الرأى والراغبين فى الخدمة.

فبماذا ننصح السيدات اللواتى أردن أن يدافعن عن حقوق المرأة التى هى فرع أو ربما أصل لحقوق الإنسانية؟! أننصحهن بالكف عن هذه المحاولة الشريفة السامية، وأن يدعن مجتمعنا بلا محاولة لرفع مستواه.

أم ننصحهن، بإنشاء جمعيتهن دون مراعاة قواعد القانون التى تحتم على من تسول له نفسه تكوين جمعية أن يعرض أمره على إدارة تكافح عيوب الآداب وآفاتها.

إنه مصاب يبكى ويضحك، ولكن لا نجد له حلا، إلا أن تدعوا له أن يأخذ بيد هذا البلد، وأن نقول للسيدة أمال عثمان وزيرة الشئون الاجتماعية أنها لا تخدم السيد اللواء حسن أبو باشا الوزير المشرف على إدارة مكافحة جرائم الآداب العامة، ولا تتلقى منه الأوامر، بل إنها لا تخدم السيد رئيس الجمهورية، إنما هى تخدم القانون الذى تعلمته واصبحت استاذة فيه وبفضل هذه الاستاذية اختيرت للوزارة وانها بسبب تبعيتها للقانون وانتسابها إلى اسرته يجب أن تراجع قواعد واساليب العمل فى وزارتها لتمنع صدور خطاب بهذه الصورة المؤذية الجارحة التى نقلنا صيغتها بالحرف الواحد، ولنمنع من باب أولى، صدور قررا مؤسف محزن كالقرار المانع من تكوين جمعية تضامن المرأة.

فتحى رضوان

وفى جريدة الجمهورية، وهى من أكبر الصحف الحكومية فى مصر، كتب صلاح حافظ فى 8 ديسمبر 1983 مقالا شديد اللهجة ضد منطق أمال عثمان وزيرة الشئون الاجتماعية، واعتبر خطابها الرسمى إلينا فضيحة للحكومة المصرية، وأنه لا يزال على مكتبه يلوثه.

وكتب صلاح حافظ يقول بالحرف الواحد:

نعم تلوثه.

فلا شىء ينقض الوضوء فى اعتقادى قدر ما تنقضه ورقة تقول لنساء يعلمن أولادنا فى الجامعة: أحلنا أمركن إلى بوليس الآداب!

ولا شىء يهين مصر، ويلوثها، ويمتهن ثقافتها وحضارتها، ويشهر بها فى العالم كله .. مثل ما يفعله قرار مختوم بختم الدولة يعترف بأن الجهة المختصة بالتعامل مع الاساتذة والمديرات والكاتبات فى مصر هى بوليس الآداب! صحيح أن فى مصر عقولا ومنظمات تعتبر مجرد تعليم المرأة فسقا ودعارة، ?مجرد وجودها فى حقل العمل العام ضلالة وانحلالا. لكن الدولة لا تكف فى دعايتها عن اتهام هؤلاء الناس بالجهل والضلال. فما بالها تتبنى نفس أفكارهم، وتجعل التعامل مع المثقفات والرائدات من اختصاص البوليس المتخصص فى مقاومة الفسق والدعارة؟!

هل تسللت هذه العقول، وتلك المنظمات، إلى داخل جهاز الدولة؟ وهل سيطرت إلى الحد الذى جعل الثقافة والدعارة فى بلادنا وجهين لعملة واحدة، حسابها ورصيدها عند بوليس الآداب؟

كنت اتصور حتى الان أن الرأى فى شئون الجمعيات الثقافية للجهات الثقافية فى الدولة.

لقد تخلفنا كثيرا فيما يبدو، ودون أن نشعر.

ومن ينقذنا من هذا التخلف إلا أن ننسى بعض الوقت الذين يشهرون بنا فى الخارج. ونتلفت بعض الوقت إلى الذين يشهرون بنا فى الداخل.

الذين يلطخون وجه مصر على راحتهم. ويزينون اللطخ بالتوقيعات وختم النسر، ويقدمون للدنيا كلها وثائق تثبت أننا قوم نكره الثقافة كراهية الدعارة، ولا نميز بينهما.

ومتى؟

على مشارف القرن الواحد والعشرين. وبعد سبعة آلاف سنة من حضارة نفاخر بها العالم الذى نزعم أننا نحن الذين علمناه وربيناه!

تخلصوا من هؤلاء يا سادة.

وثقوا أن مصر بعدهم ستستعيد رياداتها، وقيادتها، ودورها الحصين فى العالم، وأنها ستقهر كل الصعاب التى تواجهها.

فالمشكلة ليست عجز مصر وإنما إجهاض حماس شعبها، وقدرته الخلاقة، وفرض التخلف عليها فرضا بأمثال هذه النظم التى لا تطالب راقصات الهرم إلا بدفع الضرائب بينما تحيل الكاتبات وأساتذة الجامعات إلى بوليس الآداب!

* * * *

امتدت الحملة الصحفية ضد آمال عثمان وزيرة الشئون الاجتماعية وضد الحكومة المصرية منذ ديسمبر 1983 حتى نهاية عام 1984، هكذا اضطرت آمال عثمان أن تعترف بشرعية جمعية تضامن المرأة العربية، وجاءنا الخطاب الرسمى من وزارة الشئون الاجتماعية فى 7 يناير 1985 يقرر الموافقة على تسجيل الجمعية.

بعد خمسة شهور فقط التقيت بآمال عثمان وجها لوجه فى مؤتمر المرأة العالمى، الذى عقد فى مدينة نيروبى عاصمة كينيا فى يونيو 1985، رمقتنى بنظرة حمراء، أدركت أنها تكن لى كراهية مكبوتة، وأنها لن تتوانى عن توجيه ضربة إلىَّ عاجلا أو آجلا، فى الظهر أو فى البطن، كانت تسرع الخطى لتلحق بموكب السيدة حرم الرئيس، وفى المساء أقامت آمال عثمان حفل عشاء كبير للسيدة حرم الرئيس دعت إليه جميع النساء المصريات المشاركات فى المؤتمر، جاءتنى الدعوة ولم أذهب إلى الحفل، ليس بسبب آمال عثمان فقط، لكن هذه الحفلات لم تكن تروقنى، لم أحضر فى حياتى كلها حفلا من هذا النوع، فى المؤتمر العالمى للمرأة فى كوبنهاجين عام 1980 أقامت سفيرة مصر، عائشة راتب، حفل عشاء كبير للسيدة حرم الرئيس، دعت إليه جميع النساء المصريات المشاركات فى

المؤتمر، لم أذهب إلى الحفل وآثرت أن أقرأ فى سريرى رواية دنمركية جديدة عن مصر القديمة، وفى نيروبى آثرت أن أنام بعد يوم طويل حافل بالعمل واللقاءات مع أعداد كبيرة من نساء العالم.

صديقتى بطة (الدكتورة كاميليا) كانت إحدى المشاركات فى مؤتمر نيروبى، رأيتها فى قاعة كينياتا تهرول فوق كعبها العالى وراء آمال عثمان من أجل اللحاق بموكب السيدة حرم الرئيس، وذهبت بطة إلى حفل العشاء تلك الليلة، وفى الصباح الباكر جاءت إلى غرفتى بالفندق.

- "مش معقول يا نوال اللى بتعمليه ده! ليه ما جيتيش الحفلة؟ كلهم راحوا إلا أنتى؟ مش كفاية اللى عملوه فيكى؟ عاوزاهم يقفلوا الجمعية بتاعتك؟ أنا بصراحة يا نوال باخاف أقول إنك صاحبتى وإلا رفدونى من شغلى! ثم كركرت بطة بضحكتها الطويلة المتقطعة، ضحكت معها ثم قلت: لا يمكن يرفدوكى يا بطة عندك حصانة عائلية برلمانية، أطلقت بطة ضحكة أخرى وقالت، وعندى حصانة دبلوماسية كمان أمال خيبانة زيك يا ست نوال؟

ظلت وزيرة الشئون الاجتماعية على عدائها لجمعية تضامن المرأة العربية، ومع أجهزة الحكومة والأمن، وبعض النساء شجعتهن الوزيرة على تكوين جمعية جديدة للمرأة، لجأت الحكومة إلى مبدأ فرق تسد، امتلأت الساحة المصرية بالجمعيات النسائية، كل أربعة أو خمسة نساء يشكلن جمعية أو مركزا أو رابطة أو شركة مساهمة أو أى شىء، المهم أن تتعدد الفرق وتضرب بعضها البعض، تتنافس ايهما تقترب أكثر من دوائر السلطة والمال والنفوذ.

لم تدخل جمعية تضامن المرأة العربية فى هذا الصراع بين النساء، لكن وزارة الشئون الاجتماعية لم تكف عن مطاردة الجمعية ومعها وزارة الداخلية. أجهزة الأمن والمباحث كانت تتربص، تطارد العضوات فى أماكن العمل والبيوت، تسلط عليهم صحف الجماعات الإسلامية الإرهابية، التابعة للحكومة، بدأنا نقرأ هجوما فى تلك الصحف على أنشطة الجمعية، تحت المانشتات الكبيرة الحمراء والسوداء بدأنا نقرأ عناوين من نوع: جمعية نوال السعداوى الكافرة تنظم مؤتمرات ضد الأخلاق والتراث، جمعية تضامن المرأة العربية مأجورة لهدم الإسلام والآداب العامة.

فى 22 مارس 1990 عقدت جمعية تضامن المرأة العربية اجتماعا كبيرا من أجل الوحدة الوطنية، كانت أحداث القتل الإرهابية تحت اسم الإسلام تغتال الأبرياء فى صعيد مصر، ثم وقعت أحداث أبو قرقاص بالمنيا، وبدأت الفتنة الطائفية تهدد بلادنا. ثم عقدت الجمعية اجتماعا آخر كبيرا ليلة الخميس 29 مارس 1990، زاد عدد المشاركين فى الاجتماع عن المائة، كونوا جميعا الهيئة التأسيسية للجنة المصرية للدفاع عن الوحدة الوطنية. فى الاجتماع الثالث ليلة الخميس 5 إبريل 1990 بلغ أعضاء الهيئة التأسيسية مائة وتسعة وأربعين عضوا وعضوة من

مختلف التيارات السياسية أو المدارس الفكرية فى مصر، أجمعوا على ضرورة العمل المتواصل لإخماد الفتنة الطائفية وتوحيد الشعب المصرى نساءا ورجالا.

هنا أدركت الحكومة خطر جمعية تضامن المرأة العربية، هنا بدأت الحرب الضاربة ضد الجمعية وضد عضواتها على رأسهم بطبيعة الحال رئيسة الجمعية نوال السعداوى. بدأت وزارة الشئون الاجتماعية مع وزارة الداخلية إيفاد المراقبين والمفتشين ورجال المباحث إلى أى اجتماع تعقده الجمعية. اشتدت الحملة فى صحف الحكومة والصحف الإسلامية ضد الجمعية الكافرة ورئيستها الزنديقة التى لا تحترم القيم أو الآداب العامة.

ثم قامت حرب الخليج فى يناير 1991، حرب أخرى جديدة فى سلسلة الحروب المتعاقبة منذ نشوء دولة إسرائيل عام 1948، محاولة كبرى من جانب الثالوث القديم، أو الحلفاء الأربعة ضد العالم العربى، الولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وإسرائيل، وزاد عددهم إلى ثلاثين جيشا مسلحين بالقنابل الليزر، ضربوا بغداد ليلة 16 يناير 1991، احترقت بغداد، مات نصف مليون من النساء والأطفال والشباب، وحتى اليوم ونحن فى يونيو عام 2000 لا يزال الشعب العراقى تحت الحصار، يموت فيه كل يوم آلاف الأطفال دون دواء ودون طعام.

إنها حرب النفط الثانية بعد حرب 1973، إنه الاستعمار القديم يرتدى حذاءا جديدا يسميه النظام العالمى الجديد، ويدوس به على أرواح الشعوب من أجل البترول وتنشيط تجارة الاسلحة، وفتح أسواق جديدة فى بلاد ما يسمى العالم الثالث.

النساء والفقراء هم العملة الرخيصة فى الحروب والأزمات. أول من يدفع وآخر من يأخذ. سنة القانون الطبقى الأبوى الذى يحكم عالمنا الحديث وما بعد الحديث.

أرادت الولايات المتحدة أن تستخدم فى حرب الخليج بعض الجيوش العربية كنوع من الغطاء، كنوع من التمويه يحدث دائما فى كل الحروب. هكذا دخل الجيش المصرى والجيش السورى الحرب ضد العراق تحت لواء الجيش الأمريكى وجيوش الحلفاء الثلاثين.

- الحلفاء؟!

فى طفولتى سمعت أبى ينطق كلمة الحلفاء بطرف لسانه. يلفظها كأنها هى بصقة. الحلفاء يا ابنتى هم الاعداء, يتخفى العدو تحت اسم الصديق، ماذا نفعل يا ابنتى ؟! ضحكنا حين سمعنا الإذاعات تقول بصوت السادات عام 1976 صديقى كارتر. ثم ضحكنا حين رددت الإذاعات هذه العبارات عام 1991 مع تغير الاسماء.

وتجمعت النساء العربيات من خمسة عشر دولة عربية فى مؤتمر جمعية تضامن المرأة العربية خلال الفترة من 4-7 سبتمبر 1990، أصدرت النساء المجتمعات بيانا ضد غزو العراق للكويت، وضد قيام حرب الخليج العسكرية، وتم تشكيل لجنة من النساء للعمل على منع الحرب وحل الأزمة بالطرق السلمية.

هنا انتهزت وزارة الشئون الاجتماعية الفرصة لتوجيه ضربتها إلى الجمعية، وصدر قرار آمال عثمان وزيرة الشئون الاجتماعية بإغلاق جمعية تضامن المرأة العربية، ومصادرة أموالها وتحويلها إلى جمعية أخرى اسمها نساء الإسلام. صدر هذا القرار غير القانونى فى 15 يونيو 1991، بدأت حملة فى الصحف الحكومية والإسلامية التابعة لها لتشويه سمعة الجمعية المأجورة الخائنة للوطن، وسمعة رئيستها نوال السعداوى المعادية للإسلام والآداب العامة ومصالح الوطن الكبرى.

لم يصدق أحد هذه الحملة، وبدأت بعض الاقلام تعارض قرار وزيرة الشئون، الذى أصدره نيابة عنها نائب محافظ القاهرة.

فى 21 يوليو 1991 بجريدة الأخبار كتب مصطفى أمين فى عموده اليومى بعنوان "فكرة" ما يلى:

فكرة

فى يوم 15 يونيو 1991 أصدر نائب محافظ القاهرة لمنطقة غرب القاهرة قراراً بحل جمعية لتضامن المرأة العربية.

ونحن نشجع قيام الجمعيات فى بلادنا، وندهش لأن نائب المحافظ يغلق جمعية لتضامن المرأة العربية وينقل أموالها إلى جمعية أخرى بغير أن يذكر سبب هذا الإغلاق.

والذى نعرفه أن هذه الجمعية قامت منذ سنوات طويلة .. منذ إنشائها وهى تلقى المعاكسات، بالرغم من أن الدكتور محمود شريف وزير الحكم المحلى ألقى محاضرة فى هذه الجمعية وفى الوقت نفسه صدر قرار يحظر على الجمعيات بدائرة غرب القاهرة أن تجادل فى الأمور سياسية) ولا نعرف مثل هذا القرار فى أى بلد ديموقراطى وقد عشنا طوال عمرنا نرى نقابة المحامين ونقابة الأطباء وغيرهما من الجمعيات والنقابات تشتغل بالسياسة، وفى ثورة 1919 كانت جمعية المرأة الجديدة تصدر قرارات تهاجم الاحتلال ولم يحلها الإنجليز.

إننا ندهش أن تحل جمعية بغير تحقيق، وبغير أن يوجه إليها ?نبيه إذا أخطأت.

نفهم أن تحل جمعية بسبب الآداب العامة، أو لأنها تدعو إلى قلب نظام الحكم بالقوة، ولكن لا نفهم أن تحل جمعية لأن رئيستها أو أحد أعضائها يعارض الحكومة، وخاصة أن رئيسة هذه الجمعية الدكتورة نوال السعداوى كانت تلقى الخطب والمحاضرات علنا تعارض فيها سياسة الحكومة، وكانت الصحف العالمية تعتبر هذه المعارضة دليلا على أن فى مصر ديموقراطية تسمح بحرية الرأى.

هذا القرار أزعج كثيرا من الجمعيات، فإذا اعترضت جمعية ما على حالة التموين فى البلاد فهذا تدخل فى السياسة! وإذا طالبت جمعية بالإكثار من زراعة البرسيم فهذا تدخل فى السياسة! وإذا طالبت جمعية بمنع استيراد الحمير إلى مصر فهذه سياسة! بل صميم السياسة، كل شىء فى البلد سياسة، ولهذا فمن واجب كل الجمعيات فى مصر أن تسأل ما هى حدود السياسة المسموح بها.

إن الذين أصدروا هذا القرار لم يعلموا حتى الان أن مصر ديموقراطية.

مصطفى أمين

وفى 31 يوليو 1991 كتب فيليب جلاب رئيس تحرير جريدة الأهالى يقول تحت عنوان:

وزارة الشئون

و"الحلفاء" الراشدون

لا يستطيع أحد مهما بلغت جرأته على الحق أن يقنعنا بأن فى مصر حكومة واحدة.

لدينا حكومة تتحدث عن الانفتاح والتعددية والشرعية ولدينا حكومة أو حكومات أخرى تعتقد أن أعظم مظاهر الديموقراطية والتعددية والشرعية. هى تطبيق القانون العثمانلى أو على أحسن الفروض مبادئ الحكم المملوكى.

ولا يستطيع أحد أن يشكل جمعية لممارسة أى نشاط اجتماعى (دعك من النشاط السياسى) إلا بعد إجراءات وتحريات تستدعى تدخل الأمم المتحدة وربما قوات "الحلفاء" الراشدين لدى صاحبة العظمة وزارة الشئون الاجتماعية.

ويبدو أن الوزارة وافقت فى ظروف دولية غير مواتية على تسجيل جمعية تضامن المرأة (المصرية) كما سجلت إدارة الهيئات الدولية بوزارة الخارجية المصرية جمعية أخرى دولية بنفس الاسم ذات وضع استشارى فى المجلس الاقتصادى الاجتماعى بالأمم المتحدة.

وما أن بدأت تباشير النظام العالمى الجديد حتى رأت وزارة الشئون الاجتماعية والسيد نائب محافظ القاهرة للمنطقة الغربية أن الفرصة أصبحت مواتية لتأديب رئيسة الجمعية المصرية الدكتورة نوال السعداوى والخلط بين الجمعيتين ومصادرة ممتلكاتهما وتسليمهما إلى "محتسب" موظف فى وزارة الشئون يرأس هو نفسه جمعية نسائية مع الاحتفاظ له شخصيا بعشرة فى المائة من هذه الممتلكات جزاء المشقة التى سيعانيها فى عملية الاستيلاء على أموال الغير.

ونشر نائب المحافظ بيانا يعتمد فيه على بلاغ لسيدة تزعم فيه أن الجمعية المصرية تحتفظ فى بنك مصرى بأموال أخرى لم تبلغ عنها. وهى فى الحقيقة أموال الجمعية الدولية وزعم المسئول أنه راجع وزارة الخارجية فأبلغته أنها لا تعرف شيئا عن الجمعية الدولية مع أن لها ملفا منذ تسجيلها فى الأمم المتحدة. والمدهش هو أن رجالا مسئولين يعتقدون أن من يريد إخفاء أموال عن مراقبة وزارة الشئون الاجتماعية يقوم بإيداعها فى بنك مصرى باسم الجمعية فى عاصمة مصر، مع أن تهريب مثل هذه الأموال يمكن أن يتم بغاية اليسر إلى بنوك فى الخارج لو كان الهدف هو خداع وزارة الشئون والسيد المحافظ كما حدث لما يزيد على 100 مليار دولار فى الخارج، والأكثر إثارة للدهشة هو أن السيد نائب المحافظ استفسر عن حقيقة الجمعية فى وزارة الخارجية فعرف منها أنه ليست هناك جمعية بهذا الاسم رغم الوثائق الرسمية التى تقدمها الدكتورة نوال السعداوى.

ولما كان من المستحيل أن تجهل إدارة الهيئات الدولية بوزارة الخارجية المصرية اسم جمعية دولية ذات ملف رسمى لديها، فقد يكون سؤال محافظ القاهرة عن طريق الخطابات الرسمية المعروفة قد وجه إلى وزارة أخرى أو ربما لوزارة الخارجية فى عاصمة أخرى .. أو ربما لم يستدل مندوب المحافظة على عنوان وزارة الخارجية كما حدث منذ أسبوعين عندما سجل أحد "المحضرين" على إنذار موجه لوزارة الصناعة لتنفيذ حكم لصالح عمال المحلة، بأنه لم يستدل على عنوان وزارة الصناعة بالقاهرة.

وهكذا استطاعت وزارة الشئون مع السيد نائب المحافظ أن يعيدا إلى ذاكرة المصريين والقاهرة بعض تقاليد مصر الزاهرة فى عصور العثمانيين والمماليك حتى لا يتوهم أحد أن مبادئنا السياسية والاجتماعية تنبع من خارج بلادنا فى قضية إنشاء الجمعيات بالذات.

وهذا عمل من جلائل الأعمال يمكن أن يبعد الناس ولو لأيام معدودة عن مناقشة أمور كئيبة مثل الارتفاع الصاروخى للأسعار وضريبة الرأس (أو المبيعات) وما يتعرض له العرب من الخليج إلى المحيط دون استثناء من إذلال وإهانة لم يسبق لهما مثيل.

وفى جريدة الأخبار يوم 17 أغسطس 1991 كتب صلاح حافظ تحت عنوان:

وزارة "الجماعات"

عندى "للإسلاميين" فى مصر خبر سعيد:

وزارة الشئون الاجتماعية قررت أن ينوب عنهم، وتنفذ برنامجهم، دون ما حاجة إلى استيلائهم على الحكم!

وقد اختارت الوزارة أن تبشر الأمة المصرية بهذا الفتح العظيم منذ حوالى أسبوعين، وبدأت بقرار لن يصدقه القارئ، وإن كنت أقسم بالله العظيم ثلاثا أنه صدر.

موضوع القرار جمعية اسمها "تضامن المرأة المصرية".

وهى جمعية ترأسها الطبيبة الكاتبة الأديبة نوال السعداوى، ولا أحد يجهل من هى نوال السعداوى. وهذه الجمعية تعمل فى مصر منذ سنوات ولها مقر، ولها صفة اعتبارية، بناء على قرار صادر من وزارة الشئون الاجتماعية.

لكن شيئا ما حدث فجأة فى الوزارة.

شخص ما فى الوزارة لم تعد تروق له هذه الجمعية، وقد يكون السبب أنه يكره النساء المتمردات، أو أن زوجته التحقت بالجمعية وعادت تناقشه بلهجة لم يألفها، أو أنه مسئول عن مراجعة حسابات آلاف من الجمعيات .. ويريد أن يختصر العدد، أو أن السيد البدوى زاره فى المنام وأركبه حصانا أبيض، وقال له "قم وأشطب هذه الجمعية".

المهم على أية حال، هو أنه فعل.

وفى الصباح التالى صدر قرار من الدكتورة أمال عثمان الممثلة للمرأة فى مجلس الوزراء، بإلغاء جمعية "تضامن المرأة المصرية".

ولم يكن فى القرار أسباب، لأن القوانين فى مصر لا تلزم صاحب أى قرار بأن يشرح أسبابه.

لكن هذا لا يهم.

إنما المهم أن القرار فرض على الجمعية أن تسلم بيتها، وأدواتها وأموالها، لجمعية أخرى فى ضاحية المعادى ,,, أسمها "جمعية نساء الإسلام"!

وهذا هو ما يستحق أن نتوقف عنده.

فجمعية "نساء الإسلام" هذه بحكم اسمها جمعية للمسلمات فقط .. والجمعية التى تقرر حلها لكل المصريات، فكيف تسلم جمعية قومية ممتلكاتها وفلوس عضواتها لجمعية لا تقبل فى عضويتها غير فريق المسلمات!

وإذا كانت جمعية نوال السعداوى ضارة، وغير مرغوب فيها ونخشى إذا تركناها أن تلوث البيئة، أو تثير حربا عالمية ثالثة. فلم لا تحل وتؤول أموالها إلى أعضائها, وما معنى اغتصاب ممتلكاتها كما فعل صدام حسين بالكويت؟

إن شيئا كهذا لا يمكن أن يحدث فى بلد متحضر.

وأمام القضاء المصرى الآن دعوى رفعتها هذه الجمعية وستكسبها. لأن القضاء المصرى لا يزال متحضرا والحمد لله.

لكن ما يهمنا هو السؤال الخطير: من الذى قرر حين رأت الوزارة حل الجمعية أن تلتهم فلوسها جمعية دينية؟

قيل لى عندما سألت: إن المسألة أبسط كثيرا مما توهمت، وأن الرجل المكلف بتصفية جمعية نوال السعداوى كان بالصدفة الرجل الذى أسس جمعية نساء الإسلام فاختار على سبيل الكسل أن يضم الجمعية المحلولة إلى الجمعية التى أسسها.

وفى اعتقادى أن هذا عذر أقبح من الذنب.

فمعناه أن مصائر الجمعيات فى بلادنا أصبحت رهنا بمدى راحة بعض الصغار ,, من كبار الموظفين فى أجهزة الدول، وأن حكوماتنا لم تدرك بعد برغم آلاف الدروس اهمية الجمعيات الأهلية فى

بناء المجتمع والنظام، وأنها بإهدار كرامة العمل الاجتماعى الأهلى تنهى إلى الابد إمكان التوحد ما بين الناس ونظام الحكم، وتلغى المبادرة الشعبية، والإرادة الجماهيرية، وكل ابتكار يمكن أن يساند اجهزة البيروقراطية البلهاء المتعفنة.

ثم يبقى بعد ذلك السؤال..

من الذى أصبح يحكم هذه الأجهزة البلهاء .. إلى أى مدى أصبحت تديرها "الجماعات"

وهو سؤال: أشفق على الدكتورة أمال عثمان من مواجهته لكننى أدعوها أن تفعل.

فهى بالنسبة لى نموذج لنجاح المرأة فى المناصب الكبرى ونجاحها ينصف موقفى من المرأة عموما. وسيؤلمنى كثيرا أن تقفل عينيها عن مثل هذه الفضيحة فى وزارتها وأن يخرج علينا غدا من يعيرنا قائلا: هذه وزيرتكم ضحكوا عليها. ولا يفلح قوم ولوا أمورهم امرأة!

مع خالص حبى، وتأييدى واحترامى للدكتورة أمال عثمان!

صلاح حافظ

لم تسفر هذه الحملة الصحفية عن شىء، كما أن القضية العاجلة التى رفعناها بالمحكمة الإدارية لم تسفر عن شىء. لقد قررت الحكومة المصرية إغلاق جمعية تضامن المرأة العربية، وكانت وزيرة الشئون الاجتماعية أمال عثمان تنتظر هذه الفرصة منذ أصدرت قرارها بتسجيل الجمعية عام .

لم تدخل صديقتى سامية جمعية تضامن المرأة منذ إنشائها. لم تكن تؤمن بتضامن النساء داخل تنظيم خاص بهم. فقط تؤمن بالحزب السياسى ومشاكل العمال والفلاحين، ثم تغيرت سامية وأصبحت ترأس جمعية نسائية وتتحدث عن النظام الأبوى والختان والعنف ضد النساء حتى حصولها على وسام الختان ثم سرعان مانقلبت على نفسها حين تغيرت موازين الحكومة وبدأت تعلن أنها لم تتكلم عن الختان أو ذلك الشىء الهامشى فى حياة النساء وهو الجنس، إنها فقط معنية بمشكلات الفقر ومحو الأمية بين النساء.

أصبحت هذه هى النغمة الجديدة السائدة فى مصر خلال هذا العام 2000، أصبحت زعيمات الجمعيات النسائية يهرولن إلى مؤتمرات المرأة، ينطقن كلمة "الفقر" بالطريقة ذاتها التى تنطقها الحكومة، وفى المساء

يحضرن حفل العشاء الفاخر على ضفاف النيل، تلتهم الواحدة منهم فخذة خروف مشوية، مع رشفات من الكأس البللورى، وترن كلمة "الفقر" فى الجو عارية كالعورة.

وفى اغسطس 1997 بعد عودتى من المنفى، كنت أسير فى شارع قصر العينى حين التقيت وجها لوجه بصديقتى سامية، كانت واقفة عند ناصية الشارع، حيث كانت تعمل فى الصيدلية القديمة هى وزوجها رفاعة، اختفت الصيدلية وانتصب مكانها مبنى كبير تعلوه يافطة لامعة: الشركة التجارية العالمية، مكتب الاستيراد والتصدير، وأدركت أن سامية أصبحت تملك شركة خاصة مع زوجها، أصبح الاثنان من كبار رجال الأعمال فى مصر، يتاجران فى العقاقير والكيماويات وحبوب منع الحمل، وحبوب إعادة الشباب وتنشيط القوى الجنسية لدى الرجال، منها حبوب الفياجرا وحبوب جديدة لم تنزل السوق بعد.

- خلاص يا سامية بقينا نعيش فى دولة رجال الاعمال؟

- ونساء الاعمال يا نوال، يعنى نسيب الرجالة ياخدوا كل حاجة؟ لازم يكون فيه مساواة! واحنا فى عصر العولمة، العالم كله مع العولمة الا انتى يا عزيزتى!

ضحكت سامية ضحكة قصيرة ساخرة، ثم مطت شفتيها الرفيعتين، وقالت، انا شركتى صغيرة بالنسبة لشركة صاحبتك بطة، عارفة رأسمالها كام؟ وكمان جوزى رفاعة مشاركنى فيها، لكن بطة عاملة شركة لوحدها وجوزها حمدى عنده شركة لوحده.

- وبطة بتاجر فى ايه يا سامية، حبوب الفياجرا برضه؟

- الفياجرا سوقها واقف يا نوال، رجل عجوز عنده تسعين سنة بلع الحبوب ومات بالسكتة القلبية، اسمه معروف كتبت عنه الصحف ومن ويومها حصل هبوط كبير فى المبيعات.

- بطة اخبارها ايه؟ بتشوفيها يا سامية؟

- طبعا، بنتقابل دائما فى مؤتمرات رجال ونساء الاعمال مع الوزراء والمسئولين، لكن بطة من نساء الأعمال الشاطرين أوى يا نوال.

- بتاجر فى ايه يا سامية؟

- عاملة مصنع كبير لملابس المحجبات، شوبينج سنتر كبير فى الدقى للزى الاسلامى والجلاليب الفلاحى والقلل الفخار والتحف والآثار القديمة، وعندها مجلة مهمة اوى بتدافع فيها عن تراثنا القديم والهوية الاصلية، والخصوصية الثقافية و...

واطلقت سامية ضحكة قصيرة جافة ثم مطت شفتيها الرفيعتين فى امتعاض: التجارة بالدين لها سوق كبير اوى اكبر من سوق الفياجرا يا نوال، على العموم التجارة حلال، والوزراء بقوا من رجال الاعمال، مش احسن من اللى بيسرقوا، وعندهم حصانة برلمانية؟ خدى الجورنال إقرأى عن السيد الوزير والسيدة الوزيرة، وطبعا عندهم حصانة وماحدش قفل الجمعية بتاعتهم، ولا حد عمل تحقيق معاهم، وشوفى حكاية نواب القروض وسرقات أعضاء مجلس الشعب ?اللى هربوا من اصحاب البلايين من غير ما حد يمسكهم فى المطار، رغم ان ما حدش يقدر يخرج من المطار اذا كانوا عاوزين، و.. ثم تمط شفتيها وتسكت.

حتى المجلات والصحف الحكومية اصبحت تنشر عن ظاهرة تهريب الأموال وفساد النظام السياسى فى مصر. فى مجلة روز اليوسف يوم 24 يونيو 2000 قرأت موضوعا كبيرا تحت عنوان "الشائعات صناعة رجال الاعمال"، جاء بالحرف الواحد: انتشرت الشائعات عن الهروب وسوء الموقف إلى حد ينذر بزعزعة سوق المال"، ثم ما نشيت كبير "ديون رجال الاعمال للبنوك 7 مليارات فقط مشكوك فى تحصيلها من اجمالى 240 مليار جنيه".

وفى جريدة الاهالى، احدى الصحف المعارضة، جاء فى الصفحة الاولى يوم 28 يونيو 2000 هذا المنشيت الضخم: القائمة السرية للقروض التى تواجه خطر الضياع، 25 مليار جنيه، ديون 37 رجل اعمال للبنوك، شركات وهمية، وقروض نظير عمولات وشيكات وسماسرة لنهب الاموال، نواب القروض ليسوا وحدهم، والنظام المصرفى بلا ضوابط"

أزمة الاقتصاد فى مصر اصبحت حديث الساعة، ازمة السيولة وازمة الركود، وانتشرت النكت والفكاهات حول القطط السمان والرؤوس الكبيرة والحيتان اصغرها بلقب وزير أو وزيرة أو نائب بمجلس الشعب أو الشورى.

الصديقات القديمات

أجلس إلى مكتبى الصغير فى غرفة نومى. أطل على القاهرة من الدور السادس والعشرين. ترقد المدينة تحت سحابة من الضباب الأسود بلون الدخان. يبدو أول النهار كأول الليلز عدت إلى مصر بعد سنوات الغربة. أعيش الغربة داخل الوطن كالغربة خارجه. لم تعد السماء زرقاء صافية كما كانت، الهواء أصبح مشبعا بالدخان والهزيمة، نهر النيل أصبح حبيسا داخل مدينة من الأسمنت، ارتفعت الجدران السوداء وزحفت على كل شئ. لم تعد هناك شجرة واحدة خضراء ألمحها فى مجال الرؤية.

نافذتى عالية أطل منها على نهر النيل. كانت له رائحة جدتى وطفولتى. الطمى الأسود بلون بشرتى. كنت أسبح فى النيل مغمضة العينين. يدفعنى التيار الهادئ. يهبط نحو الشمال مع الأشرع البيضاء. وجناحات حمائم السلام. والطيور المهاجرة من الشمال أو من الجنوب، مع حركة الشمس والقمر.

فى مصر تنساب مياه النيل مع الأرض من الجنوب إلى البحر الابيض، وقد تعاكسها الرياح الشمالية تبطئ حركتها، تمشى بجوار الشاطئ مع حركة الحمير والجاموس، والأقدام الحافية بلون الأرض، يذهبون إلى الحقول عند الفجر، يعودون عن الغروب، بيوتهم من الطين المحروق بالشمس. وجوههم بلون اقدامهم وأكثر سمرة، ضامرة ممصوصة وأيديهم مشققة بالفأس.

تركت حى الجيزة الذى كنت أسكنه قبل أن أسافر إلى المنفى. قررت ألا أعود اليه. أركان شقتى فى الجيزة تعشش فيها ذكريات سوداء. سنوات المطاردة والحبس. وجوه رجال البوليس تطل من الباب. فوهات البنادق مصوبة ناحيتى. رائحة الخيانة أشمها فى كل ركن. تحت الابتسامات الناعمة المح آله القتل. تحت إسم الحماية يمشى البودى جارد خلفى ويده فوق المسدس.

عدت من المنفى منذ عامين إلى هذه الشقة الصغيرة فى حى قديم إسمه شبرا، يكتظ بالجوامع والكنائس، تبرز قبابها ومآذنها فوق أسطح البيوت الواطئة المتلاصقة، بحر أسود من الأسمنت بلا شجرة واحدة خضراء، يرتفع عند جبل المقطم ناحية الشرق تعلوه قلعة محمد على، قمم الأهرامات الثلاثة خوفو وخفرع ومنقرع تبرز من الضباب بلون الدخان ناحية الغرب، والنهر يمشى يشق طريقة بين الاسفلت، كالسهم الأبيض ينعكس عليه الضوء، يرتفع عند شبرا ليحتضن الجزيرة الصغيرة إسمها وراق العرب، ثم يمشى رغم محطة الكهرباء الضخمة إلى القناطر الخيرية، يجتازها رغم السدود، وشبح السجن الأسود بنوافذه الصغيرة المسدودة بالقضبان الحديد.

عيناى مشدودتان إلى الماضى بحكم الحنين، رغم الجرح الدفين يبدو الماضى أجمل من الحاضر، والنيل كما كان يمشى إلى الأمام لا ينظر إلى الخلف، ينقسم إلى الفرعين الكبيرين، دمياط ورشيد، كالأم تفرد ذراعيها وتحتضن دلتا النيل، تشبه المروحة أو الكف المفتوح الأصابع على البحر، صدرها مفتوح لتلقى الضربات من الغرب فوق منارة الإسكندرية، واحترقت بورسعيد من الشرق تحت قنابل بريطانيا وفرنسا واسرائيل، وأمريكا من وراء الستار، لم تكن مياه النيل تتقهقر إلى الوراء، تمشى فى طريقها، تفرغ شحنتها فى جوف البحر، تلقى فيه نفسها كالفتاة العذراء تفضل الموت غرقا عن أن يغتصبها الإله.

من نافذتى أطل على المدينة كلها، يسمونها القاهرة الكبرى، هى العاصمة منذ أكثر من ألف عام، عندها يختنق النيل بالدخان والجدران المسلحة، إنها القاهرة، تقهر أهلها منذ الفراعنة كما تقهر معبودها المقدس إله الفيضان، ترفع صيحاتها قبل الشروق عبر مكبرات الصوت المثبتة فوق المآذن، وأجراس الكنائس فى حى شبرا تتبارى مع أصوات الرجال يؤذنون للصلاة خمس مرات فى النهار، وفى الليل تعلو فوق التراتيل المقدسة طرقعة الصاجات فى حفلات الزفاف مع دقات الطبول والغناء والرقص.

فى طفولتى كنت أحب الغناء والرقص، وأجلس إلى جوار عمتى بهية، تتربع فوق الأرض الترابية، بين ساقيها تحتضن الطبلة، تنقر عليها باصابعها السمراء المشققة، ينطلق اللحن الراقص، والقدم تدق الارض مع الإيقاع، أقدام النساء كبيرة مثل قدم جدتى، بحجم قدم النبى المحفورة فوق الحجر الأسود، أقدام نساء يخرجن قبل الفجر حاملات الفئوس، يأكلن ما تزرعه أيديهن، يشربن من ماء النيل، جدتى أطولهن قامة، ورثت قامتها الفارعة عن أمها، لم تكن أجيرة عند أحد، زوجها مات قبل أن يسيطر عليها، العمدة كانت تقف أمامه مرفوعة الرأس، تشوح فى وجهه بيديها الكبيرتين المشققتين، وفى الليل تغنى مع النساء على إيقاع الطبلة: يا عزيز يا عزيز كبه تاخد الإنجليز.

فى الخامسة من عمرى سألتها "الإنجليز مين يا ستى الحاجة؟" تضحك حتى تدمع عيناها، تمسحها بطرف جلبابها الواسع، وتحكى حكاية الإنجليز حين دخلوا مصر وهى طفلة، تمد عنقها القوى العضلات وتشمخ بأنفاسها وتقول: كنت عيلة صغيرة ألعب مع العيال، سمعنا أن الإنجليز دخلوا مصر. رحنا للعمدة كان عددنا عشرين أو تلاتين وكلنا عيال صبيان وبنات، وسألنا العمدة عاوزين إيه يا عيال قلنا عاوزين نحارب الإنجليز يا عمدة، كان راجل كشر غلس وشه أحمر زى الإنجليز، شخط فينا وقال إمشوا على بيوتكم يا ولاد المركوبة، حسيت أن جتتى ولعت نار، يقول على أمى المركوبة، أمى اللى عمر ما حد ركبها حتى جوزها ماعرفش يركبها، رحت ما سكه طوبة وزقلاها فى عينه، طارت عينه الشمال، وأنا جريت على الدار ورايا العيال والغفر ورانا بالشوم، ضربوا

العيال، فتحوا راس الواد عقلة الصباع، كان زى القرد، ياما فتحوا راسه وأمه تلطم وتقول مات لكن بعد يومين يقوم زى العفريت، وهو اللى فتن علىَّ وقال إنى أنا اللى رميت الطوبة فى عين العمدة، وأبويا كان يخاف من العمدة، وقال لازم البت نجوزها، ما فيش غير الجواز يشكمها ويا لا هوب مسكونى وجوزونى.

ورثت بشرة جدتى السمراء، والدماء فى جسدى تشدنى إليها، فى أعماقى عشق لقوة ملامحها، كأنما منحوتة فى الصخر، والنيل تسميه البحر، تنعكس عليه أشعة الشمس بلون الذهب السائل، أو الدم القانى المخلوط بالطمى، كانت جدتى جامحة كالنيل فى عصره الاول حين كان يفيض، ينحدر من منابعه العليا جموحا يجتاز الصخور والنتوءات الحجرية لا يجسر على ركوبه أحد، فاذا ترك الأرض العالية يفقد جموحه، يستطيع الناس الاقتراب منه، قد يضيق فلا يصبح سوى أذرع مسطحة، يجتازه الناس مع بهائمهم وسلالهم من الجريد المضفور أو القش المبروم، يبولون فيه دون جرح، يفقد إله الفيضان شموخه القديم، يمضى منحدرا إلى الوادى السهل، يبتلع فى جوفه قمامة الصعيد والدلتا، وعظام مفرغة من اللحم، جلود خراف مذبوحة ومسلوخة ثم منفوخة، يتعلق بها جسد فتاة صغيرة تسبح مع النهر جسدا إلى جسد، ترتج مع رجرجات الموجات كأنما فى رقصة النفس الاخير.

أتطلع إلى وجوه النساء أبحث عن وجه جدتى، قسمات وجهها كانت أكثر حده، قامتها أكثر طولا من هامات الرجال، رأسها فى السماء كالشجرة، عيناها سوداوتان بريقهما خاطف كالبرق، نظرتها ثاقبة كالسهم تفلق الكون نصفين، تنطلق الى الحقل كالشراع لا يوقفها شئ، وحيدة من غير حارس ولا زوج، وجهها ناحية الشمس رفيقها القمر فى الليل، وأشجار النخيل على ضفاف النيل.

القلم فى يدى يتحرك فوق الورق كأنما بقوة لا إرادية، أريد التوقف عن الكتابة دون جدوى، انها الملاذ الوحيد اتمسك بها حتى النفس الأخير، لولا الكتابة لا ندثرت منذ نصف قرن وراح إسمى فى العدم كما راح إسم جدتى وأمى.

منذ طفولتى كنت أندهش كيف تروح السماء فى العدم، أتلفت حولى أبحث عن أحد مندهش غيرى فلا أجد، امامى فوق المكتب صورة فى الصفحة الاولى من جميع الصحف، كلمتان تحت الصورة، صاحب الجلالة، الملك أو الرئيس، أتلفت حولى وأندهش، كأنما الماضى يبعث حيا، ينهض من قبره الإله خادم فرعون، أو فرعون خادم الإله، وفى كل بلد أسافر اليه داخل الوطن العربى، أرى الصورة فوق الجدران، لا يكاد يخلو جدار من الصورة بالحجم الطبيعى، بالبدلة العسكرية، أو بدلة الصلاة، أو بدلة التشريفات، أو وشاح القضاء، أو الروب الجامعى، أو بدلة

العمال أو الفلاحين إلا فئة النساء، لا يمكن للرجل ان يرتدى ملابسهن وأن تحدث باسمهن فى الانتخابات وحصل على أصواتهن.

فى رحلتى داخل الوطن العربى أتلفت حولى وأندهش أبحث عن أحد مندهش غيرى فلا أجد، وأسأل الناس فيضحكون، يحكى أحدهم فكاهة أو حكاية، كثيرة هى الحكايات عن الحكام العرب، يختلفون ويتفقون، يتخاصمون ويتصالحون، يتغير الحلفاء إلى أعداء، وينقلب الأعداء أصدقاء، يجتمعون فى حلقات هرمية يسمونها القمة، بعضهم يسلك الممشى المركزى ويطوف حول المحراب وصولا إلى البيت الابيض فى واشنطن. بعضهم يفضل الممشى الجانبى الأكثر ظلالا المفضى إلى الحظيرة حيث تحجز خراف الأضاحى، أما الخيول الجامحة فهى تحبس وراء القضبان، تسرح الغزلان والحملان فى أى مكان دون خوف، وفى مواسم الانتخابات تطوف بهم العربات البوكس، تجمعهم للإدلاء بأصواتهم وأصواتهن، تتراوح النتيجة ما بين 98.9%، 99.9% أو شيئا من هذا القبيل.

أهبط الأدوار الستة والعشرين لأمشى على شاطئ النيل، ساعة ونصف أمشيها كل صباح، عضلاتى قوية بشرتى مشدودة إلا من خطوط خافته تحت العينين، البريق الأسود داخل النني يطل كأنما من بؤرة لم تكشف عن نفسها بعد، لم يبق أمامى إلا عامان وأبلغ السبعين من العمر، ياه سبعين سنة؟! الرقم يرن فى أذنى مهولا، مع ذلك تبدو طفولتى قريبة، تزداد قربا مع التقدم فى العمر، كأنما كنت بالأمس فى العاشرة، ذكريات الطفولة تعود أقوى مما كانت، وسنوات الشباب حين كنت فى العشرين أو الثلاثين تبدو الامس.

منذ أيام قليلة التقيت صدفة بصديقتى بطة (الدكتورة كاميليا). رأيت امرأة عجوزا تملأ وجهها التجاعيد، تتكئ على ذراع زوجها، لم أتعرف عليها، توقفت عن السير حين رأتنى وصاحت: نوال! مش معقول!

كانت بطة من أقرب الصديقات إلىَّ، تخرجنا معا من كلية الطب. رغم الاختلاف فى كل شئ كنا نلتقى. تمر السنوات دون أن أراها وفجأة يدق جرس التليفون فى بيتى وأسمع صوتها: ازيك يا نوال؟ أهلا يا بطة.

كان هناك شئ يجمع بينى وبين صديقتى بطة. التعود القديم أو الإدمان؟! تملأ حياتى الجادة بشئ من الاستهتار. إلى جوارها أحس بالنقاء. يحتاج النقاء لشىء من الفساد ليرى نفسه. يحتاج الإله إلى الشيطان ليكون له وجود ودور فى الحياة. أو ربما كان الإله والشيطان داخل كيان واحد لا ينفصلان.

كانت بطة تحب الفن والسينما والرقص. لم تكن تطيق الحديث فى السياسة. لا تؤمن بهذه الكلمات الثلاثة الكبيرة: الوطنية. الاشتراكية. الإخلاص الزوجى. تطلق ضحكتها المتقطعة كالشهقات وتقول: إذا كان ربنا أباح

للرجالة الخيانة الزوجية ليه إحنا نؤمن بالإخلاص؟ وإذا كان ربنا خلقنا درجات ليه نؤمن بالاشتراكية أو العدالة؟! لم تكن سامية توافق على ما تقوله بطة. تزم شفتيها الرفيعين وتصف بطة بالبرجوازية المنحلة. تشهق بطة بسخرية وتقول لسامية أنت شيوعية غارقة لأذنيك فى حب البرجوازية. ينسحب الدم من وجه صفية حين تسمع كلمة الشيوعية، كأنما تسمع عن مرض أو وباء، كلمة البرجوازية أيضا كانت تغضبها، تهمس فى أذنى، بطة وسامية زى القط والفار لازم يتناقروا، يالابينا يا نوال نلعب ماتش تنس!

كانت صفية أقرب الصديقات إلىَّ. أن غابت عنى الصديقات هى لا تغيب. تزورنى فى بيتى من حين إلى حين. أراها من النافذة وهى تركن سيارتها الفيات الزرقاء، فى شارع جانبى صغير متفرع من شارعنا فى الجيزة، فى مواجهة سور حديقة الحيوان، منذ بدأ السادات عصر الانفتاح غرقت الشوارع تحت فيضان من السيارات المستوردة، أصبحنا نستورد كل شئ حتى الخبز وعصير البرتقال، ومن كاليفورنيا أخيرا جاء الفول المدمس فى العلب.

اختفت الشجرة أمام بيتى وارتفعت الجدران، حجبت الشمس والهواء، لم أعد ارى الشارع الجانبى الصغير حيث تركن صفية سيارتها، أمام محل البقالة، أتابعها بعينى وأنا واقفة فى النافذة بالدور الخامس، يبدو الشارع العريض مسدودا بالسيارات، تلتصق السيارة بالسيارة بجوار الرصيف وفوق الرصيف، لا يبقى إلا ممر ضيق لا يسمح بمرور المشاة، أتابع صفية وهى تشق لنفسها طريقا بين السيارات، رأسها مطرق إلى الأرض قليلا، وفى كلية الطب كانت تتهيب الدخول إلى المدرج الملىء بالطلبة، تختفى ورائى حين ندخل من الباب، تتعثر خطواتها قليلا حين ترمقها العيون، تكاد تجرى لتلحق بى وأنا امشى بخطواتى الواسعة السريعة، أواجه عيونهم أرد إليهم سهامهم، صفية تطرق إلى الأرض، لا تريد النظر إلى هذه العيون المحملقة، تمد ذراعها وتمسك ذراعى، تتشبث بيدى كالطفلة تمسك يد أمها.

قالت صفية، مبروك يا نوال روايتك الأخيرة، أنا أحسدك لا أعرف من أين تأتيك الشجاعة؟ ألا تخافين ألسنة الناس؟ تنهش سمعتك يا نوال، ألا تسمعين ما يقولون؟ ليس عندى وقت يا صفية لسماع ما يقوله الناس، إسمعى هذه القصة القصيرة، إنتهيت منها الآن فقط.

تراجعت صفية إلى الوراء فوق الكنبة فى الصالة الصغيرة، فوق المنضدة زجاجة بيرة ستلا مثلجة، صحون صغيرة بها قطع جبنة بيضاء، خيار، طماطم، زيتون أخضر وأسود.

تنهدت قبل أن تمسك زجاجة البيرة، مسحت بمنديلها قطرات عرق فوق جبينها، لم يكن العرق يظهر فوق جبينها مهما جرت، كنا نلعب التنس ولم يكن العرق يظهر، شئ ما يحدث فى حياة صفية، يظهر رغم إرادتها على شكل قطرات العرق، رعشة خفيفة لأصابعها البيضاء وهى تمسك زجاجة البيرة، تصبها فى الكوب بحذر حتى لا تفور الرغوة، قطرات ماء تتكثف على جدار الكوب الزجاجى. تنتشى قليلا، يعود البريق إلى عينيها الخضراوتين الناعستين قليلا، الشمس اختفت تقريبا، لم اعد ارى الشمس من نافذتى، إلا شعاع طويل رفيع يتسرب عند الغروب مائلا بين الجدران العالية، أبواق السيارات تزعق فى الشارع، لا أكاد أسمع صوت صفية وهى تحكى عما حدث لها بالأمس، أغلق النافذة بالزجاج والشيش، مع ذلك يصلنا صوت الأبواق تصرخ، أصوات الرجال تزعق فوق مآذن الجوامع من خلال الميكروفونات، طرقعات جارتى بالقبقاب فوق بلاط غرفتها المجاورة، الرجل فى الشقة الأخرى يؤدب زوجته بالصفعات والشتائم، رياح وعواصف رملية تهب من الصحراء، صفافير سيارات البوليس والإسعاف والنجدة، ما سورة المجارى مكسورة فى الشارع المجاور، طبيخ بايت يغلى تتصاعد رائحته من المنور، أصوات قطط تتنافس حول صفائح القمامة، مقلوبة أو مفتوحة بدون غطاء، بائع الروبابيكيا ينادى، وبائع الصحف يزعق: أهرام! أخبار! السادات يزور اسرائيل! أهرام! أخبار! جمهورية!

أفرغت صفية كوب البيرة المثلج فى جوفها، أسندت رأسها إلى الوراء فوق المسند، ثم ضحكت، جاءه الله فى المنام وقال له قم وانهض وسافر إلى إسرائيل! شوفى الراجل المجنون يا نوال! معقول ربنا يقوله فى الحلم روح إسرائيل؟ هو فاكر نفسه سيدنا محمد وبيعمل رحلة الإسراء والمعراج؟ لكن العيب مش عليه، العيب على اللى حواليه، كلهم منافقين وكدابين زى الدكتور المحترم جوزى.

- المناخ العام الفاسد يا صفية يشجع الناس على الفساد.
- أيوه، لكن جوزى مصطفى طول عمره فاسد، عارفة البنت إياها اللى كان ماشى معها؟
- البنت انهيه يا صفية؟
- اللى حكيت لك عنها قبل كده.

كنت أنسى هذه الحكايات عن الخيانات الزوجية، ما أكثر هذه الحكايات التى سمعتها من الصديقات، ومن النساء اللائى يترددن على عيادتى أو بيتى، تشبعت ذاكرتى بهذه الحكايات فلم أعد أسمعها، وهى قصص متشابهة إلى حد كبير، الرجل الذى يخون زوجته فى السر، تكشف الزوجة الخيانة، الصدمة والغضب والرغبة فى الانتقام، تظل الرغبة مكتومة فى صدر المرأة، تعجز عن الإنتقام، تخاف من الإنتقام، أكثر ما يخيفها غضب زوجها أو

غضب الله، تخشى الطلاق أكثر مما تخشى نار الآخرة، أكثر ما تخشاه أن تتحول العشيقة السرية إلى زوجة ثانية، وكم من زوج أقدم على الزواج من عشيقته كنوع من العقاب لزوجته التى كشفت السر، وقد منحه الله والقانون حق الزواج بأربعة نساء.

أصبحت صفية تتردد على طبيب نفسى إسمه الدكتور عبد القادر، كان زميلا لنا فى كلية الطب، منذ الصدمة الأولى حين عرفت لأول مرة أن زوجها يخونها ذهبت إلى الدكتور عبد القادر، كان يكتب لها بعض الأدوية المهدئة للأعصاب، يتابع حالتها منذ خمس سنوات، تشعر بشىء من الراحة حين تتحدث معه، يكن لها نوعا من الإعجاب أو الحب منذ أيام الدراسة، أراد أن يقيم معها علاقة، ترددت صفية وامتنعت ربما بسبب الخوف، لكن الدكتور عبد القادر كان يرى أن صفية مريضة بالوفاء الزوجى، يقول لها الوفاء مرض نفسى عند كل الزوجات مثل الوفاء عند الكلاب، يعطيه إسما علميا فى الطب النفسى، ويحكى لها قصة الكلب الوفى.

حكت لى صفية القصة كما حكاها لها الدكتور عبد القادر: اشترى الشاب الأعمى كلبا صغيرا بخمسة وعشرين قرشا ليقوده فى الطريق. ظل الكلب مع سيده خمس سنوات. شفى الشاب وعاد إليه بصره. حاول أن يستغنى عن الكلب لكن الكلب رفض أن يفارق سيده. كان للكلب دور هام فى حياة سيده الأعمى. أصبح الكلب هو عيناه يرى بهما بدلا من عينيه المريضتين. أحب الكلب هذا الدور فى حياة سيده. أحب سيده وأخلص له كل الإخلاص. أصبح إحساسه بحاجة سيده إليه هو الحب فى نظر الكلب. وهو القانون الذى يحكم علاقة الكلاب بأسيادها ويجعلها أوفياء لهم. لكن السيد شفى ولم يعد بحاجة إلى الكلب. كيف يتحمل الكلب هذا الموقف الجديد عليه؟ إنه يرفض التنازل عن الدور الذى كان يؤديه لسيده. دوره الوحيد فى الحياة ولا دور غيره. أصبح وجود الكلب يعتمد على وجود سيده. لم يعد هناك كلب له ذات مستقلة عن ذات سيده، لم يعد هناك "أنا وأنت" أصبح "أنت" فقط، ذابت شخصية الكلب فى شخصية سيده، كالزوجة التى تذوب شخصيتها فى شخصية زوجها. إزاء هذا التفانى وهذه التضحية وافق السيد على رغبة الكلب ولم يطرده من بيته كما تطرد المرأة المطلقة. ثم مات السيد، توقف الكلب عن الأكل، ارتدى الحداد ومات حزنا على سيده كالأرملة التى تموت بموت زوجها. هذا الإخلاص والوفاء يسميه الدكتور عبد القادر "الوفاء الكلابى"، وثمن شراء الكلب خمسة وعشرين قرشا، مثل الحد الأدنى للمهر فى عقد الزواج.

كفت صفية عن الحديث، وامتلأت عيناها بالدموع وهى تردد لنفسها بصوت مشروخ: وفاء كلابى!

كان ذلك فى نهاية عام 1978، وكان شريف قد أمضى أربعة سنوات بعيدا فى الهند، الرسائل بيننا متصلة، تنقطع أحيانا لانشغاله فى العمل، أو لانشغالى فى عملى، ومسئولية البيت والإبنة والإبن، وفى الليل أجلس الى

أوراقى أكتب روايتى الجديدة، ومقاومة حرب الإشاعات التى أطلقها أعوان السادات ضدى، وضد كل من عارض سياسة الانفتاح، أى فتح أسواق مصر للبضائع الأجنبية دون ضوابط، تدمير الإنتاج والصناعات المصرية، تكميم الأفواه واستيلاء موظفى الحكومة على الصحف والإعلام ودور النشر، بدأ نقاد الادب المعنيون فى المؤسسات الصحفية الهجوم على أعمالى الأدبية، بدأت الصحف الإسلامية الحكومية الجديدة تشوه صورتى، ترسمنى على شكل الشيطان، الذى يحارب الإسلام ويتمرد على القيم والآداب العامة.

وجدت نفسى معزولة داخل البيت، هرب الأصدقاء والصديقات، انضم بعضهم الى حزب الحكومة، البعض الآخر الى حزب الإخوان المسلمين، وأحزاب المعارضة يسار ويمين، كان السادات قد أصدر قراره بانشاء الأحزاب، واختيار أعضائها ورؤسائها. أصبحت هذه المعارضة الشرعية بديلا للمعارضة الشعبية الحقيقية.

شعرت بالاختناق والغربة، أغرقت نفسى فى العمل والكتابة، امتنعت دور النشر فى مصر عن نشر أعمالى. أرسلتها الى دور النشر فى لبنان، اخترقت الحصار المفروض علىَّ، انتشرت كتبى فى البلاد العربية، بدأت الرسائل تصلنى من المغرب والمشرق، القراء والقارئات العربيات، أصبحت هذه الرسائل تشجعنى على الاستمرار فى الكتابة، اختفى إسمى من القائمة الرسمية للأدبيات فى مصر، تم طردى من لجنة القصة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب، أصبح نقاد الأدب يتبارون فى الهجوم على أعمالى وكتاباتى، يقولون أنها لا تنتمى الى الأدب، أنها مجرد بحوث طبية أو اجتماعية، أنها تسئ الى المجتمع، تشوه صورة الوطن والدين، تدعو الى الفوضى والإباحية، ترفض القيم الاصلية والتراث المجيد.

ظهر على سطح الحياة الادبية نساء موظفات مواليات للنظام الحاكم، يضعن الحجاب على عقولهن، تملك كل منهن عمودا فى جريدة حكومية كبرى، أو صفحة كاملة تعرض فيها الأزياء والمكياج، تحولت الصحفيات فجأة الى أديبات، يحملن لقب مبدعة أو كاتبة كبيرة كالحلية تتدلى من الأذنين، وفصوص الماس تلتف حول العنق، والتيربون الأنيق يغطى الشعر إلا خصلة أمامية تتدلى فوق الجبين، والروج الأحمر القانى بلون الشفتين، والبشرة المشدودة بالعملية الجراحية فى نيويورك أو باريس أو لندن، والمساحيق تغطى ما قد يظهر من تجاعيد، والعبارات الإنشائية الضخمة عن الخصوصية والهوية الإسلامية.

لم يكن لى مكان داخل هذا الصخب. جاءتنى فرصة للعمل خارج مصر بالأمم المتحدة. سافرت الى آديس أبابا بالحبشة عام 1978، والى بيروت بلبنان عام 1979. قدمت استقالتى فى نهاية عام 1980 وعدت الى مصر. أدركت أن الأمم المتحدة لا يختلف نظامها عن الحكومة المصرية وغيرها من الحكومات. الداخل اليها مفقود

والخارج مولود. النظام الطبقى الأبوى تسيطر فيه القوة على الحق. تسيطر الأموال على الفكر والإبداع. يسيطر الرئيس على المرؤوسين والمرؤوسات، خاصة الصغيرات السن، الرقيقات الناعمات المعطرات، الناعسات العيون المسدلات الجنون، يخفق قلب الواحدة منهن للحب، فى المؤتمر الدولى على جبال سويسرا فى الصيف، أو فى الشتاء تحت أشعة الشمس الاستوائية فى سرىلانكا أو الهند، وفى الربيع يعقد المؤتمر فى جنوب أوربا أو شمال افريقيا، وما يسمى حوض البحر الابيض المتوسط، على ساحل الريفيرا يعقد المؤتمر الدولى لمناقشة مشاكل الفقر والجوع فى العالم، أو مشاكل ختان الاناث وحوادث الاغتصاب. يتبارى خبراء الأمم المتحدة فى القاء الخطب عن الجنس أو الاقتصاد، وفى الليل يتبارون على الرقص مع الخبيرات الشابات، ينجذب الخبير العجوز الأبيض الى العذراوات السمراوات فى إفريقيا، وينجذب الخبير الإفريقى الأسود الى الشقراء البيضاء من الشمال.

كنت أقاطع هذه الحفلات، يكتب رئيس الادارة تقريرا ضدى، يقول لى أن حضور الحفلات جزء من العمل بالأمم المتحدة، والرقص مع الرئيس نوع من المجاملة الرقيقة لا يخرج عن واجبات الموظفة الدولية، بدأ النزاع يدب بينى وبين الرؤساء الأفارقة السود والرجال البيض على حد سواء. حاول أحدهم أن يغازلنى، كان يشبه الدب الابيض، يصعد الدم الأحمر الى وجهه حين يرانى، أستاذ بجامعة بنسلفانيا فى الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يلتحق بالأمم المتحدة، أصبح يحمل لقب كبير الخبراء فى اللجنة الاقتصادية الافريقية، لم يكن يعرف شيئا من مشاكل إفريقيا الاقتصادية، يقبض راتبا من الأمم المتحدة يصل الى ثلاثين ضعف من راتبه فى جامعة بنسلفانيا، وراتبا آخر من البنك الدولى تحت لقب مستشار، كان ينادينى بإسمى الأول، وأناديه باسمه الأول، المساواة التقليدية الشكلية داخل الامم المتحدة، للتغطية على عدم المساواة بين الأفراد والدول.

- جاية الحفلة الليلة يا نوال؟
- لأ يا رولاند.
- ليه يا نوال؟
- عندى شغل.
- شغل إيه؟
- رواية جديدة يا رولاند.
- لازم تاخدى أجازة شوية.

لم يكن رولاند ذكيا، أغلب الرؤساء أغبياء، تعمى السلطة عيونهم عن رؤية الحقيقة الواضحة كالشمس. عيناى مثل كتاب مفتوح يقرأه الجميع من حولنا. إننى لا اطيق رؤية رولاند أثناء النهار فما بال الليل. وكان الليل ساحرا على شواطئ إفريقيا الدافئة، فى الشرق أو الغرب أو الجنوب، أجملها شاطئ بحيرة فيكتوريا ومنابع النيل، التقيت هناك بأحد الثوار من شيلى فى أمريكا الجنوبية، هرب من وطنه قبل أن يحكموا عليه بالإعدام، كان طبيبا نفسيا ترك الطب والتحق بالأمم المتحدة كأحد خبراء التنمية الصحية، ثم استقال بعد أن أكمل الأربعة أعوام، الحد الأدنى للحصول على المعاش، عاد إلى شيلى ثم مات فى فبراير 1984، انطلقت فى صدره رصاصة من مصدر مجهول. هرب القاتل دون أن يمسكه البوليس. أرسل إلىَّ كارت صغير من شيلى قبل اغتياله بشهرين فقط، بالضبط فى عيد رأس السنة الجديدة أول يناير 1984، كتب على الكارت هذه الكلمات: إلى من جعلت شاطئ فيكتوريا أجمل من الوطن، وتركت فراغا فى حياتى لا يملأه أحد، انتهيت من الرواية التى بدأتها منذ خمس سنوات يوم لقائنا الاول عند منابع النيل، ربما نسيت هذا اللقاء يا صديقتى العزيزة، لكنه اليوم الذى رأيت فى عينيك نفسى الحقيقية. صديقك المخلص روبرت.

حين قرأ شريف الكارت ابتسم وقال: يبدو أنه انسان عاطفى، قلت جدا، قال هل أعجبك؟ قلت جدا، ضحك شريف وقال، حكيت لى عن كل الذين غازلوكى بما فيهم الدب الابيض ولم أسمع شيئا عن هذا الروبرت؟ قلت وأنت حكيت لى عن كل من وقعت فى غرامك إلا تلك السوزانا الصغيرة من لوزان، (وكانت صورتها قد وقعت فى يدى بالصدفة وهى مرتدية مايوه بيكينى على شاطئ موزنبيق إلى جوارها شريف يبتسم فى سعادة، مرتديا مايوه إفريقى من سبعة ألوان، مثل ألوان الطيف،

فى صباح يوم مشرق على شاطئ بحيرة فيكتوريا دعانى روبرت على الغداء فى مطعم صغير يطل على البحيرة. كنت أمشى كل صباح على الشاطئ لمدة ساعة ونصف قبل أن أحضر جلسات المؤتمر الدولى. تعودت على رياضة المشى كل صباح أو الجرى سبعة كيلومترات، أستقبل أول شعاع للشمس من وراء البحيرة، أرفع ذراعى فى الهواء، أغمض عينيى، أحس الشعاع الدافئ فوق جفونى، أفتح عينيى على خضرة الشجر والارض، وحصان أبيض يركبه فارس يرتدى بدلة بيضاء، يلوح لى بيده من تحت زرقة السماء.

- صباح الخير يا نوال.

- صباح الخير يا روبرت.

- ?ين ستتناولين العشاء الليلة؟

- لا أعرف، هناك حفلة عشاء للمشاركين فى المؤتمر.

-لا أحب حفلات العشاء.

-ولا أنا.

-ايه رأيك أدعوكى إلى مطعم صغير يطل على البحيرة؟!

-سأدفع ثمن عشائى يا روبرت.

-كما تشائين.

وأنا ارشف النبيذ الاحمر مع قضمات من الحمامة المشوية كنت أراه جالسا أمامى يرمقنى بعينين زرقاوتين يكسوهما البريق، عيناه تلتقيان بعينى. اتظاهر أننى لا أرى ما فيهما. أقضم بأسنانى عظام الحمامة الصغيرة، أسمعها تقرقش بصوت مسموع، أثبت له ?ننى منشغلة عنه بالحمامة المشوية، وأننى لست هشة العظام مثل الحمامة، أو حسناوات الأمم المتحدة، السمراوات أو الشقراوات، وقلبى ملئ بالحنين إلى منابع النيل.

- عيناك السوداوتان ساحرتان وشعرك الأبيض هذا فى ريعان الشباب.

- ?نت أيضا شعرك أبيض فى ريعان الشباب.

- ?هى وراثة؟

- ربما.

- أو دليل العبقرية؟

الحوار يدور حتى نعود إلى الفندق، لم يكن شريف معى فى هذا المؤتمر، قلت له حين سافرت اليه، كدت أقع فى الحب يا شريف لولا..، قال لولا ماذا يا نوال؟ قلت لولا ذلك المرض النسائى، قال أى مرض هذا؟ قلت، هذا المرض الذى يسميه الدكتور عبد القادر.. قال شريف وماذا يسميه؟ قلت الوفاء الكلابى، وضحكنا ثم شربنا نخب هذا الوباء المزمن.

* * * *

الصوت يوقظنى من النوم، أمد ذراعى وأمسك يده، تنسحب يدى وحدها وتختفى تحت الوسادة، عيناه زرقاوتان بلون البحيرة فى يوم مشرق، أعود إلى النوم وأصحو على صوت جرس التليفون، إنها صفية تكاد تصرخ، صحيح يا نوال ما يقوله الدكتور عبد القادر؟ أفتح جفونى وأرى الساعة تشير إلى الثالثة صباحا، أصيح بضيق، يا صفية أنت تعرفين الدكتور عبد القادر منذ أيام الكلية، ألم يكن يدس لك فى الكشكول رسالة حب كل يوم؟ إنه يريد الانتقام منك لأنك رفضت الزواج منه، يرد لك الصفعة يا صفية، الدكتور عبد القادر يقول لى ما أقول لنفسى يا نوال، كيف أخلص لزوجى وهو خائن؟ الوفاء مقابل الخيانة ليس وفاءا بل مرضا! إنه التعلق المريض بالزوج وإن كان فاسدا، إنه الخوف المريض من فقدان الحب وإن كان غير موجود، أو فقدان الدور المزيف الذى لعبته فى حياة زوجى خمس سنوات، كيف أفقد حاجته الىَّ، كان يقول لى لا أستطيع الحياة بدونك، أنا لم أحبه يا نوال، لكنى أحببت اعتماده على وجودى، أدمنت حاجته إلىَّ، كان يريد أن يطلقنى بعد عام واحد من الزواج، لكنى تشبثت به، كنت أخاف الطلاق، أصبحت أعتمد عليه يا نوال، لا أستطيع أن أعيش بدونه، انقلبت الأوضاع، أصبحت مثل الكلب التابع لسيده، لا يستطيع أن يفارقه، ويموت بموته،

العبارة تنطقها صفية بصوت يقطر مرارة، تضغط على الحروف، تلوكها تلفظها من بين شفتيها حرفا حرفا، كالعلقم المر ينساب قطرة قطرة.. وفاء ... كلابى...؟!

* * * *

عام 1998 دق جرس التليفون فى شقتى الصغيرة الجديدة فى حى شبرا القديم. تركت شقتى فى الجيزة بعد العودة من المنفى العام الماضى. عشت فيها منذ عام 1960. سبعة وثلاثين عاما عشتها فى شقة الجيزة بشارع مراد، بعد الطلاق الثانى استأجرت هذه الشقة فى الدور الخامس، إلى جوار الكنسية الكبيرة، تطل على آخر سور حديقة الحيوان، عشت مع طفلتى الصغيرة ودادة أم ابراهيم، استأجرت لأخواتى الشقة فى الدور الثالث، دخلت ابنتى

مدرسة الحضانة المجاورة فى شارع النيل، ودخلت أخواتى الجامعة لا تبعد عن البيت إلا مسافة عشر دقائق على الأقدام بالخطوة السريعة.

فى ديسمبر 1964 تزوجت شريف، ترك بيت أسرته فى الزمالك وأصبح يشاركنى شقتى الصغيرة، ثلاثة غرف وصالة، غرفة مستقلة لابنتى تشمل سريرها، دولاب ملابسها، مكتبها الصغير، مكتبتها بها رفوف حتى السقف تحمل كتبها، كراريسها، البومات الصور، علب الألوان، شرائط الموسيقى، والافلام السينمائية، جهاز التلفزيون، البيانو فى الركن بجوار النافذة. منذ طفولتها عشقت ابنتى الموسيقى والغناء ومشاهدة الأفلام، منذ العاشرة من عمرها أصبحت تكتب خواطرها فى مفكرة تشبه مفكرتى وأنا فى مثل عمرها. أصبح لها أخ اسمه عاطف، ولدته فى المستشفى الجامعى فى مدينة نيويورك فجر يوم 10 ديسمبر 1965، كنت أدرس فى جامعة كولومبيا للحصول على درجة الماجيستير، عدت إلى مصر أحمل ابنى وشهادة التفوق، عمره سبعة شهور، بشرته سمراء بلون بشرتى، عيناه سوداوتان يكسوهما بريق، فرحت ابنتى منى بأخيها، أصبح شريف أبا لأول مرة فى حياته، حمل عاطف بين ذراعيه وقال: طفل جميل يا نوال لأنه يشبهك، عيناه السوداوتان وبريق الذكاء، ضحكت وقلت ربما بريق ذكاء الأب ألست اكثر منى ذكاء يا شريف، ضحكت ابنتنا الطفلة وقالت أظن انه ورث ذكاء اخته أكثر من الأب أو الأم!

أصبح لعاطف غرفة خاصة به فى الشقة الصغيرة، بها سريره، دولاب ملابسه، مكتبه الصغير، مكتبة بها رفوف حتى السقف تحمل كتبه، كراريسه، البومات الصور، علب الألوان، شرائط الموسيقى والأفلام السينمائية، منذ طفولته عشق عاطف السينما والموسيقى، يعزف على الجيتار، يسجل أفكاره مثل ابنتنا منى فى مفكرته الخاصة.

الغرفة الثالثة فى الشقة اقتسمتها مع شريف، لكل منا سرير صغير، دولاب ملابس، مكتب صغير، مكتبة لها رفوف حتى السقف، ثلاثة وثلاثين عاما منذ تزوجنا عشنا فى هذه الغرفة، نكتب فيها وننام ونقرأ ونسمع الموسيقى ونشاهد الأفلام. كانت هذه الغرفة هى حياتنا، المساحة الصغيرة الدافئة التى تضمنا، لم تكف الحكومة عن مطاردتنا داخل هذه الشقة الصغيرة، حوطها رجال البوليس والحراسة والبودى جارد، تخلل نوافذها الأصوات الزاعقة فى الميكروفونات تهدر دمنا، وأجهزة الإعلام والصحف تنشر عنا الإشاعات، قطعوا الأشجار فى الشارع أمامنا، حلت مكانها العمارات العالية والجدران الأسمنت، حجبت عنا الشمس والهواء، فى الليل يتسرب من شقوق الشيش أضواء النيون المتحركة من حول الديسكو كلاب، ومآذن الجوامع التى أصبحت تتوالد وتتكاثر على نحو سريع، لا يفوقها سرعة إلا توالد وتكاثر محلات ماكدونالد الأمريكية، أغلقت المحلات المصرية أبوابها واختفت المنتجات المحلية من السوق.

حين عدنا من المنفى عام 1997 وجدنا شقة الجيزة مظلمة خانقة مثل زنزانة السجن. تعشش فيها ذكريات سوداء. فقدنا فيها الأمن والطمأنينة. لم يكن لنا أن نعيش داخل هذه الشقة. انتقلنا إلى الشقة الجديدة فى حى شبرا القديم، غرفتان فقط والصالة، غرفة خاصة لى بها سريرى ومكتبى ومكتبتى، أنام فيها وأكتب فيها، وغرفة خاصة بشريف ينام فيها ويكتب فيها، الصالة للاستقبال، ومنضدة صغيرة للطعام فى المطبخ، وشرفة صغيرة تطل على النيل من الدور السادس والعشرين فى حى شبرا القديم.

استقلت ابنتنا فى حياتها الخاصة، أصبحت الدكتورة منى حلمى الكاتبة والأديبة المعروفة، لها مؤلفاتها وكتبها ومقالاتها فى الصحف والمجلات، ابننا استقل فى حياته الخاصة، أصبح المخرج السينمائى عاطف حتاته، يهتم النقاد بافلامه الروائية، يقولون أنها تفتح بابا جديدا فى السينما المصرية، حصلت أفلامه على جوائز مهمة داخل مصر وخارجها.

اصبحت أنا وشريف نعيش وحدنا فى شقة شبرا الصغيرة، نهبط الأدوار الستة والعشرين كل صباح فى الساعة السادسة، نمشى على شاطئ النيل مسافة سبعة كيلومترات، نعود لنشرب الشاى مع الجبنة القريش أو الزبادى بدون دسم، وعسل النحل والخبز البلدى المحمص.

أصبح لنا عدد قليل من الأصدقاء والصديقات، يتناقص عددهم بمرور السنين، يموت بعضهم أو يهاجرون، أو ينشغلون بمشاكل الأولاد والأحفاد، مرت السنوات دون أن أسمع صوت الصديقات القديمات بطة وصفية وسامية، أقرأ أخبارهن من حين إلى حين، أو يرن جرس التلفون بعد غياب السنين ويأتينى صوت إحداهن.

لم تنقطع زيارات الشباب والشابات إلى بيتنا منذ عودتنا من المنفى. أجيال جديدة من المبدعين والمبدعات فى مجال الأدب والفن والسينما. بدأنا فكرة تكوين مدرسة فكرية جديدة تضم هؤلاء الشباب والشابات، أصبحت الفكرة تنمو، تتخذ شكلا أكثر تحديدا فى ظل القوانين المتغيرة، خاصة قانون الجمعيات الجديد الذى ما أن صدر فى نهاية عام 1999 حتى ألغته المحكمة الدستورية العليا فى بداية هذا العام 2000، وفى مصر يحكمنا قانون الطوارئ، الذى يحرم الاجتماعات، ويسوق إلى السجن أى مجموعة لا ترضى عنها القوى الحاكمة المسيطرة.

ثم دق جرس التليفون فى بيتى ذات يوم من أيام شهر يونيو الماضى. صوت رجل عبر الأسلاك يقول: بطة هانم معاكى على الخط يا دكتورة.

كلمة هانم لم أسمعها من نصف قرن. فى طفولتى كانت النساء فى عائلة جدى شكرى بيه يحملن لقب الهانم، أمى كان أبى يناديها أحيانا زينب هانم. لم تكن النساء فى عائلة أبى الفقيرة فى قرية كفر طحلة يحملن لقب هانم، كلمة هانم توحى بالرقة والنعومة والانتماء إلى الطبقات العليا وسلالات الأتراك منذ المماليك والامبراطورية العثمانية.

- بطة هانم يا دكتورة معاكى على الخط.

دوى صمت طويل عبر الاسلاك، ثم سمعت صوتها المألوف، أصابته بحة أو شرخة الشيخوخة.

- ?زيك يا نوال؟

- ?هلا يا بطة.

- بنتى شيرين كتب كتابها الخميس الجاى، وقالت لى لازم يا ماما تدعى الدكتورة نوال، بنتى معاها الدكتوراة من جامعة هارفارد فى النقد الأدبى، قرأت كل كتبك ورواياتك بالعربى والإنجليزى، ومعجبة بيكى أوى يا نوال، لازم تيجى عشان انتى وحشتينى أوى، نفسى أشوفك بعد الغيبة الطويلة دى، ده احنا صحاب من زمان من أيام الكلية، ولا يمكن الصداقات القديمة تروح يا نوال، أنا عاملة الفرح فى الفيلا الجديدة جنب أرض الجولف فى مصر الجديدة، خدى العنوان يا نوال، والعريس إنسان ممتاز، كان زميل شيرين فى هارفارد ومن أكبر رجال الأعمال.

نطقت الكلمتين الأخيرتين من أنفها وقلبت الراء إلى غين كعادتها القديمة قالت غجال الأعمال، رنت فى أذنى عجول، بعض الأشياء الساقطة منذ النظام الملكى عادت ومنها اللدغة الفرنسية فى اللسان، والديوك الرومى المحشية بالمكسرات فى ليالى الكريسماس، والعجول المذبوحة فى مولد النبى يوزعونها على الفقراء، والزبيبة السوداء عادت بارزة فوق جباه المؤمنين الصالحين، والطرحة السوداء أصبحت تلتف حول جبين المؤمنات الصالحات، وصديقتى بطة ذات الميكرو جيب رأيتها ترتدى الطرحة من الحرير المستورد الثمين، تميل فوق جبينها ناحية أذنها اليمنى بانحدار شديد كما كان الطربوش يميل فوق رؤوس الرجال أيام الملك والإنجليز.

- أهلا نوال، الدكتورة نوال يا هوانم صاحبتى من أيام الدراسة كانت أشطر واحدة فينا لكن يا خسارة سابت الطب وبقت تكتب روايات مش معقول آن بوسبيل!

- آن بوسبيل ليه يا بطة هانم ما شاء الله الدكتورة نوال أسمها مالى الدنيا ده أنا كنت فى سوسيغا (سويسرا) الصيف اللى فات، كان عندى كده شوية دبريشن "اكتئاب" والدكتور بتاعى الله يمسيه بالخير قال اخرجى بره شمى شوية هوا، قلت أروح أزور بنتى فى جنيف، أصل بنتى متجوزة خبير فى الأمم المتحدة طبعا أسلم وبقه إسمه جابر بدل جورج، وعندهم بنت ما شاء الله زى القمر سموها فاطمة على إسم بنت النبى يقولوها فاتيما تتكلم إنجليزى وألمانى وفرنساوى وما تعرفش كلمة عربى، علمتها تقول يا جدتى بالعربى أصل كلمة جدتى حلوة أوى فى ودانى وأنا باحكى الحكاية دى كلها ليه؟ أيوه افتكرت لقيت بنتى ماسكة فى إيدها كتاب بالألمانى، وقالت لى ده كتاب الدكتورة نوال السعداوى بيدرسوه فى الجامعة هناك وهيتعمل عليه دراسة وقالت والنبى يا مامى لما تروحى مصر ابعتى لى كل كتب الدكتورة نوال.

صوتها يذكرنى بصوت طنط هانم منذ نصف قرن، إلا أنها أكثر ثراء، تلمع المجوهرات حول عنقها، ترمق خواتمها المرصعة بفصوص الماس وتمصمص شفتيها "الحاجات" دى كانت مرمية فى الصندوق خمستاشر سنة كل سنة تنطح أختها، من أيام الحراسة السودة ربنا ما يعيدها لغاية ما شفت الهانم لابسة جواهرها، الستات كلهم حواليها لابسين، رحت فاتحة الصندوق وقلت يعنى أنا مش واحدة من الهوانم، ده أبويا كان بيه وأمى كان أبوها باشا، ويعنى الهانم كان أبوها مين؟

دب الصمت فى الصالون المطل على الحديقة الهادئة فى مصر الجديدة، وتظاهرت بعض الهوانم بعدم السماع، انكبت بعضهن على الأطعمة الممدودة داخل الشرفة الزجاجية الطويلة، قربت إحداهن فمها من أذنى وهمست: "أصل العريس يقرب للهانم من بعيد" ونهضت إلى الطابور المتدافع نحو المائدة بخطوات وئيدة، كل منهم يحمل صحنا كبيرا من الصينى المزركش، تعرفت على الدكتور حمدى بسهولة بين الواقفين، ساقه المعوجتان داخل البنطلون المكوى، صدره النحيف المبطط تحت البدلة الأنيقة المحكمة حول جسمه، رأسه الكبير بشعره المجعد، لم يعد كثا كما كان ولا أسود، ظهرت له صلعة حمراء وسط الرأس، من حولها كتلة بيضاء من الشعر المضغوط كأنما بالمكواة الحديدية، كان يتحدث مع أحد الرجال حين لمحنى جالسة، تقدم نحوى وقال بصوت تشوبه حرارة غير عادية.

- الدكتورة نوال السعداوى لازم تعرفها يا محمد بيه.

- اتفضلى يا دكتورة.

وأفسح لى الدكتور حمدى مكانا فى الطابور، وقفت أمامه أحمل صحنا كبيرا فارغا، لم ألتقط من الطعام إلا قطعة طماطم مع الجبن وأعواد قليلة من الجرجير، رائحة الأطعمة الدسمة لم تعد تثير شهيتى، منذ سنوات قاطعت السمن والزبدة والدهون الحيوانية، أصبحت أفضل الخضروات على اللحوم، فى الصحن الضخم وسط المائدة يطل فخذ خروف أو عجل يكاد يشبه أفخاذ بنى آدم، تسقط عليه السكاكين بصوت مسموع، والأسنان أيضا صوتها يكاد يسمع، أولا صوت الدكتور حمدى المرتفع يتحدث مع صديقه غير بعيد عنى.

- خلاص يا محمد بيه التليفزيون والفيديو والإنترنيت طغوا على كل حاجة، الكتب خلاص سوقها راحت، ما حدش بقه يقرأ يا محمد بيه.

- أيوه صحيح يا معالى الباشا,

- لكن العريس بتاعنا راجل غاوى كتب، عنده دكتوراه فى العلوم الإلكترونية، من جامعة هارفارد، وراجل مثقف جدا جدا رغم أنه قريب الهانم.

جاءت العبارة الأخيرة خافتة شبه هامسة أعقبتها ضحكة مكتومة متقطعة، ثم صمت طويل عادت فيه أصوات السكاكين والملاعق والأسنان، وارتفع صوت الدكتور حمدى مرة اخرى.

- إيه يا دكتورة نوال إنت مش بتاكلى ليه عاملة رجيم ولا إيه عشان كده محافظة على قوامك. ثم دارت عيناه تبحثان عن زوجته، رآها منهمكة فى الأكل والحديث مع إحدى السيدات، قرب فمه من أذنى وهمس "قولى لصاحبتك بطة هانم تعمل رجيم".

كانت بطة منهمكة فى الحديث مع المدعوين والمدعوات، ألمح بينهم وجوه الصديقات القديمات وزملاء قدامى من الأطباء والأدباء، وجوه جديدة لا أعرفها من رجال الأعمال (البزنيس) وكلاء الشركات الأجنبية، ونساء الأعمال صاحبات الشركات الجديدة فى السوق الحرة، رجال البورصة وقيادات أحزاب المعارضة، وأعضاء مجلس الشعب والشورى والقيادات الصحفية والإعلامية، رئيسات الجمعيات النسائية والمنظمات غير الحكومية، فى العهد الملكى كان اسمها الجمعيات الخيرية، تنشغل فيها النسوة بتنظيم الحفلات أو جمع التبرعات تحت رعاية صاحبة الجلالة الملكة أو الأميرة. تغير اللقب فى عهد السادات إلى السيدة الأولى على غرار النظام الأمريكى، وكانت التبرعات توضع فى مكان أمين لا ينفق منه إلا الأمناء والأمينات، يوزع الباقى على الفقراء والعميان "عبيد إحساناتهم" حسب القول المأثور عن الشعب المصرى بلسان الخديوى.

فوق الجدار لمحت صورة تشبه الملكة تتطلع بطة هانم إليها بخشوع "والله يا نوال الست دى عظيمة وبتقوم بدور مهم جدا وبتعمل حاجات كثير أوى للناس الغلابة واليتامى" وأكملت السيدة التى سافرت تشم الهواء فى سويسرا "يسلم بقك يا بطة هانم وربنا قال فى القرآن الكريم" فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث" وربنا ما شاء الله أنعم عليها خير كتير أوى".

قبل أن تنتهى الحفل أخذتنى بطة من يدى إلى غرفة داخلية، "لازم تشوفى الشبكة يا نوال، إيه رأيك مش تجنن! أنا عاملة حفلة تانية صغيرة "أنتيم" أوى، داعية صاحباتى القريبين أوى واعملى حسابك حنسهر للصبح!".

* * * *

الصداقات القديمة لها ذكرياتها الخاصة، لكن الضحك لم يعد يخرج من القلب كما كان. أكبرنا سنا هى سامية بلغت السبعين عاما، وبعدها بطة تصغرها بعامين ثم صفية وأنا من عمر واحد. أعلاهن صوتا هى سامية، يخرج من الأنف المرفوع فوق الشفتين الرفيعتين شبه المتلاشيتين، قامتها طويلة نحيفة تحوطها بشال ملون، تبدو كالطيف الشاحب يتلفع بألوان زاهية، عنقها نحيف ينثنى قليلا تحت رأس كبير وشعر قصير "ألاجارسون" مصبوغ بلون أسود داكن، كأنما هو رأس مسروق من تمثال رجل أفريقى، الجاكت من الصوف الإنجليزى المتين مطرز فوق الصدر بشعار حزب اليسار، أو حزب الطبقة العاملة، وهذا الشكل مجرد ذكرى، لأن صديقتى سامية لم تعد من الطبقة العاملة، ولا هى عاملة بل مالكة لمزرعة كبيرة فى دلتا النيل وشركة إعلام أو كومبيوتر، انطفأ فى عينيها العنف القديم، وأخذت رعشة تهز شفتيها المزمومتين كأنما سؤال مكبوت يتأهب للإفلات من قبضة إرادتها الحديدية.

على الرغم من بلوغها السبعين فإن ابنة الطبقة العاملة لا تشعر بالتقدير الكافى لطبقتها، تتهكم على الرجال فى حزبها خاصة زوجها رفاعة، تمط شفتيها المطبقتين وتقول مناضل ماركسى!! بهذه العبارة من كلمتين، كانت تقدم زوجها، وقد أسقطت الكلمة الثانية مع سقوط الاتحاد السوفيتى.

فى عينيها الصغيرتين شبه الخاليتين من الرموش تلمع دمعة شفافة حين تسمع كلمة ماركس أو الاتحاد السوفيتى، الأمر بالنسبة لها ليس هذا ولا ذاك، بل هو إيمانها الذى سقط، وكانت ترغب فى الإيمان بشىء، تراه

ضخما فوق عرشه معصوما من الخطأ، محصنا ضد الموت أو السقوط، ترتعش جفونها كأنما نظرة مكبوتة تستعد للإفلات منها.

صوتها تشوبه رنة أنفية شبه بكائية، تميل إلى النحيب الصامت، حتى قبل السقوط السوفيتى كان صوتها ينتحب إن اقترب أحد بالنقد لمعبودها، وكنت أشاكسها أحيانا فأقول: "لكل جواد كبوة يا سامية"، هنا تتحمس لإنقاذ ماركس من كبوته، تلمع عيناها فجأة ويرتفع صوتها مسرسعا: "مش ماركس يا نوال ده جورباتشوف الملعون تآمر مع أمريكا!" تضيق عينها حتى تطفر الدمعة الحبيسة وترتعش شفتاها كأنما تكبت الرغبة فى الصراخ. إلا أن هذا الغضب ينقلب إلى حزن صامت شبه مستسلم حين تتحدث عن زوجها رفاعة. يدق جرس التليفون فى بيتى ويأتنى صوتها الباكى: "نوال عاوزة أشوفك". تجتاحها هذه الرغبة المفاجئة لرؤيتى حين تريد أن تغتاب زوجها "تصورى يا نوال بعد أربعين سنة جواز أكتشف إنى عمرى ما حبيت الراجل ده!"

* * * *

فى غرفة داخلية لا يدخلها الرجال تربعت السيدة التى سافرت إلى سويسرا أمامها السبرتاية تعلوها الكنكة، ورائحة البن المطحون بالحبهان، فناجين صغيرة من الصينى، ترشف الهوانم القهوة، ترتسم الشفاه الحمراء على حافة الفناجين، لا يبقى فى القاع إلا التنوة، ترجها السيدة بحركة تذكرنى بطنط نعمات وأنا طفلة فى العاشرة، تقلب الفنجان ثم تعدله وتقرأ البخت أو الطالع، هؤلاء الهوانم أكثر دجلا من الهوانم القديمات منذ نصف قرن، يكتبن ما يسمى الوثيقة، تشبه العهد القديم بين الآلهة والعبيد، أو بين أرواح الجان والبشر، مكتوبة على مطواة قرن غزال أو حدوة حصان، تطلب من الجان إبقاء الزوج مع زوجته كى لا تخلعه من قدمها مدى العمر، وحروف مكتوبة بدم الحيض على ظهر صورة الزوج تأمره بالعودة راكعا فوق ركبتيه كالخروف يعود إلى الحظيرة,

تلتقى عيناى بعينى بطة، الدكتورة كاميليا، متربعة فوق الشلتة بجسمها القصير السمين، أزدادت سمنة، عيناها الواسعتان أقل أتساعا، النتى الأسود أقل سوادا، جفونها وارمة شاحبة رغم الكحل الأسود، تحت الجفون تجاعيد تختفى تحت البودرة والمكياج، ساقاها السمينتان القصيرتان مضمومتان تحتها، تبسمل وتحوقل وتلقى قطعة الشبة مع البخور فوق الفحم المشتعل، تطرقع باللبانة بين اسنانها البيضاء، شفتاها السمينتان الحمراوتان منفرجتان

فيما يشبه الشبق، تكركر بضحكتها القديمة كانما عادت التلميذة الصغيرة "فاكرة يا نوال أد إيه أنا كنت باحب حسين، وكنت مخطوبة لحمدى وباكرهه زى العمى، كنت واخدة حريتى وانا متجوزة، ولا عمرى حفظت آية فى القرآن ولا ركعت لربنا ركعة واحدة، وطلع طارق ابنى طويل وحلو مش زى أبوه المكعبر، أصلى وأنا حامل كنت باتوحم على حسين".

وقاطعتها السيدة الهانم التى سافرت إلى سويسرا

- ?يوه يا بطة هانم الوحم مفعوله باتع زى السحر تمام وربنا ذكره فى القرآن وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قال..

وانطلقت أصوات النساء تصلى وتسلم على النبى، وبطة هانم تواصل كلامها، توجه الحديث إلىَّ، كنت جمهورها المستمع الوحيد والأخريات انشغلن عنها بأحاديث جانبية، كل منهن تحكى قصة حبها المكبوت. كلمة هنا أو هناك، وعبارة تكاد تتكرر وبصوت خافت "أصل جوزى عمرى ما حبيته يا حبيبتى" ويرتفع صوت بطة هانم على الأصوات، وقطعة الشبة تطرقع فى النار وتتخذ شكلا آدميا مثل جمجمة محروقة، تشير إليها الأصابع القصيرة ذو الظفر الأحمر الطويل المدبب يشبه مخلب القط.

-شوفى يا نوال راسها السودة زى وشها علشان تعرفى إن البت السكرتيرة كانت عاملاله عمل، وانت عارفة حمدى طول عمره راجل دوغرى لا يمكن يبص لواحدة، الا البت المفعوصة دى ما عرفش عملت إيه شألبت كيانه، عمرها عشرين سنة وهو فوق السبعين، أصل الرجاله عقلهم بيصغر كل ما يكبروا فى السن، ورحت شفتها فى مكتبه، بت سودة وجربانة جلدة على عضمة، وطردتها من المكتب، راحت عملاله عمل عند الشيخ المحلاوى، ده شيخ مشهور أوى يا نوال لازم سمعتى عنه، الناس تيجى له من كل البلاد، حتى من أمريكا واستراليا، ناس متعلمين ودكاترة، وكنت لا يمكن أصدق فى حكاية المشايخ، وانت عارفانى من زمان، لكن قالوا لى عليه، وكان حمدى عشان يعاندنى فرش شقة فى الزمالك للبت المفعوصة، وسمعت إنه عمل معاها عقد عرفى أو رسمى ما اعرفش، بقيت ما نامش الليل يا نوال، وقلت يانا يا هى فى الدنيا، ورحت للشيخ المحلاوى، قلت أجرب، مش حاخسر حاجة، أول ما دخلت عليه شفت النور، نور يا نوال والله، نور من عند ربنا، قمر منور قاعد على الكنبة، وقال لى تعالى اقعدى جنبى يا كاميليا يا بنت سعدية، عرف إسم أمى ازاى ما اعرفش، أمى ماتت من ثلاثين سنة وما حدش يعرف إسمها، لقيته عارف عنى كل حاجة، عمل لى العمل، علقه فى صدرى، حجاب عليه كلام من القرآن وكلام تانى لا يمكن حد يقراه غيره، وقال بعد أسبوع واحد جوزك حيرجع ويقفل شقة الزمالك، وفعلا يا نوال بعد اسبوع واحد

بالضبط، وكان يوم جمعة الصبح، لقيت حمدى راجع، من يومها ما بقتش اقرأ غير القرآن، وربنا قال عن السحر يا نوال وعن أرواح الجان، وآلاف الناس بتروح للشيخ المحلاوى، رغم إن الفيزيتا بتاعته بقت عشرة الاف دولار يعنى ثلاثين الف جنيه، لكن كل يوم عنده آلاف ولازم احجز قبلها بشهر أو شهرين، باشوفه مرة واحدة فى السنة، وحمدى يقولى ازاى تصرفى فلوسك على الشيخ المحلاوى، واقول له أهى فلوسى من عرق جبينى أصرفها على واحد عارف ربنا أحسن ما اصرفها على الشيطان، ويسكت حمدى خالص، يخاف يفتح سيرة الشيطان، عشان ما فكروش بالفلوس اللى صرفها فى شقة الزمالك.

* * * *

كانت المرة الاخيرة أرى فيها صديقتى القديمة بطة. صوتها كان يأتينى أحيانا عبر الأسلاك. يرد عليها شريف نيابة عنى: نوال خرجت يا بطة لما ترجع اقولها تطلبك. لم أكن أطلبها، عيناها لا أريد أن أراهما مرة اخرى. رأيت فيهما شيئا مخيفا يشبه الموت. كانما ماتت عيناها، تسرى قشعريرة باردة فى جسدى إذا تذكرتهما، وأسال نفسى أهى الصدمة النفسية العنيفة فى الزواج وشريك الحياة؟ أهو الانحدار الذى أصاب المجتمع فى السنين الاخيرة؟ أهو اليأس المطلق إلى حد الإيمان المطلق بالشيخ الأعمى، وكان الشيخ المحلاوى أعمى مثل الشيخ حمدان فى القرية، وكانت تقول عنه أم ابراهيم منذ أربعين عاما: ربنا كشف الحجاب عنه يا ضكطورة وما حدش يعرف ربنا إلا العميان"

* * * *

إنها بدايات يونيو 2000 يوم صيفى رمادى، القاهرة غارقة تحت شبورة خانقة بلون الدخان، أعيش المنفى داخل الوطن كما عشته فى الخارج، أشعر بالغربة وأنا أمشى فى الشارع، تشبه غربتى حين كنت فى مدرسة منوف الابتدائية، يرمقنى الرجال بعيون جاحظة، يقذفنى أحد الصبية بطوبة أو كلمة نابية يسب بها أمى، يصب اللعنات على أعضاء الانثى، خاصة العضو المبتور بالموس، الملعون فى الغياب كالحضور.

هربت من المدينة إلى القرية لكن الضجيج هو الضجيج، فى النهار والليل، مكبرات الصوت مثبتة فوق الجوامع والبيوت حتى المقابر، أصبح من حق الموتى سماع الآذان للصلاة وتلاوة القرآن فى المآتم أو الطبول والغناء فى الأفراح، ولم يعد من حق الأحياء النوم، خاصة فى الاحياء الفقيرة مثل حى شبرا القديم، وفى الاحياء الراقية فى مصر الجديدة لا تسمع الطبقة العالية ورجال الأعمال ونساؤهم إلا زقزقة عصافير وحفيف الأشجار فى الحدائق الخضراء.

شبح الموت يطاردنى منذ زيارتى الأخيرة لبطة، أشعر بالإثم حين تطلبنى فأنكر وجودى. أقلب احيانا فى البوم الصور القديم. أراها إلى جوارى يدها فى يدى نضحك وسط حوض من الزهور. شعرنا الأسود يطيره الهواء. فمها مفتوح عن آخره كانما أطلقت نكتة من نكاتها المأثورة، تبتسم صفية فى الصورة بهدوئها المعهود، لم تكن تطلق هذه الضحكة الرنانة التى تطلقها بطة، تكركر ضحكتها مثل الماء الرقراق يخرج من عنق بللورية ضيقة، وسامية واقفة فى طرف الصورة، شفتاها الرفيعتان مزمومتان فى مواجهة الشمس القوية، لم تكن تضحك أبدا، وإن ابتسمت لا تنفرج شفتاها عن مساحة مرئية للعين.

أحيانا يدفعنى الحنين فأطلب صفية، هى أقربهن إلىَّ، إن لم أجدها أطلب سامية، ذلك اليوم طلبت بطة، بالأمس تركت لى رسالة تلفونية على آلة التسجيل، "نوال كلمينى أنا فى البيت". صوتها المبحوح تشوبه شرخة خفيفة جديدة، ربما عندها زكام أو برد، فى صيف مصر أيام متربة حارة يهب هواء ساخن من الصحراء مع ذرات الرمال والدخان وفيروسات الأنفلونزا الصيفية القادمة من وراء البحار، ترشح الانوف مع ارتفاع خفيف فى الحرارة ثم ينتهى الزكام بعد أيام قليلة.

قلت ربما أصابها فيروس وهى فى البيت لم تخرج، ربما هى تنتظر مكالمتى، وأدرت قرص التليفون برقمها، رعشة خفيفة كالقشعريرة زحفت علىَّ كالهواء البارد، كأنما النافذة انفتحت مع أنها مغلقة، كأنما جسدى يدرك اللحظة القادمة قبل أن يدركها عقلى، وجاءنى صوت رجل غريب. هل أخطأت الرقم؟ كدت أضع السماعة حين سمعته يقول:

- عاوزة مين حضرتك؟

- عاوزة بطة.

- مين حضرتك.

- ?نا نوال السعداوى.

- ?هلا يا دكتورة.

- مين حضرتك.

- ?نا الدكتور حمدى.

- ما عرفتش صوتك يا دكتور أقدر أكلم بطة.

- بطة؟... تعيشى انتى.

توقف الهواء فى صدرى. الكلمتان "تعيشى انتى" نسيت معناهما. غاب عن ذاكرتى لحظة، - ?صبح عقلى مثل صفحة بيضاء، ثم بدأت الذاكرة تعود بالتدريج. كنت طفلة فى منوف حين سمعت الكلمتين لأول مرة فى حياتى، كانت لنا جارة اسمها أم محمد، سألت عنها أمى ذات يوم فقالوا لها: تعيشى انتى" وقالت أمى أن أم محمد ماتت.

أمسكت رأسى بيدى الاثنتين وأجهشت دون بكاء دون دموع، كأنما نسيت البكاء منذ الطفولة ولم تعرف عيناى الدموع. عاد شريف إلى البيت رآنى راقدة فى الفراش مربوطة الرأس، قلت له بطة ماتت يا شريف، كأنما أقول أمى ماتت أو أختى أو أخى، وكان أخى طلعت قد مات منذ شهور قليلة، ربما لم يكن وجهى شاحبا مثل هذا الشحوب، فلم يكن أخى صديقى فى الطفولة، لم يكن بيننا حكايات عن الحب ولم نكن نضحك كثيرا كما كنت اضحك حين تحكى بطة آخر النكت، وأفقت على صوت شريف: البقية فى حياتك يا نوال.

ومن يمكن أن يواسينى فى هذا اليوم إلا صديقتى صفية أو سامية. لم تكن سامية فى مصر، كانت فى مؤتمر خارج البلد، وبكت صفية عبر الأسلاك حين سمعت الخبر، أغرقتها بالدموع، وسماعة التليفون فى يدى أصبحت مبللة.

قلت لها تعالى شوية يا صفية، وجاءت صفية إلى بيتى، جلست إلى جوارى وأنا راقدة فى السرير، حكيت لها عن زيارتى الاخيرة لبطة. كانت تعرف كل شئ، ولا شئ يدهشها، هى أيضا تعرضت لصدمة من نوع آخر، إلا أنها لم تذهب مثل بطة إلى الشيخ المحلاوى، كانت تذهب إلى الدكتور عبد القادر أستاذ الطب النفسى، وكان زميلا لنا فى الكلية منذ أربعين عاما، أصبح يمتلك الخمسة عين، ومنها عمارة عالية فى مصر الجديدة يسمونها عمارة

"الدكتور" إلى جوارها عمارة لا تقل عنها ارتفاعا يسمونها عمارة "الشيخ". أصبح الدكتور والشيخ متجاورين كما كانا فى العصور السالفة، ومن الكهنة ورجال الدين القدامى انزلق الاطباء إلى التاريخ الحديث.

* * * *

كان الليل قد تأخر وصفية تحكى دون انقطاع، ست ساعات مضت وهى متكئة بكوعها على الوسادة دون أن تغير جلستها على السرير، دون أن تتغير نبرة صوتها الخافت، أو تتحرك عيناها الشاخصتان نحو قطعة من السماء وراء زجاج النافذة المغلق، كأنما تهمس لنفسها أو لامرأة أخرى كامنة فى أعماقها، أو تخاطب القوة المجهولة داخل هذا الخضم الاسود الذى إسمه السماء. والذى بدأ سواده ينقشع بالتدريج ليصبح رماديا بلون الضباب، وانتبهت صفية فجأة كمن تصحو من النوم وصاحت:

- يا خبر النهار طلع يا نوال!

- باين عليكى تعبانة تحبى أوصلك البيت!

- بيت إيه وزفت إيه خليه ينهد على اصحابه!

- نامى شوية يا صفية وبعدين نتكلم.

أغمضت عينيها، راحت فى النوم وكوعها كما كان فى مكانه لم يتغير، حركتها قليلا لتنزلق الوسادة تحت رأسها، غطيتها بالبطاطين، وأطفأت اللمبة الصغيرة إلى جوارى، لتغرق الغرفة فى الظلمة إلا خيط رفيع من الضوء الرمادى يتسرب من وراء الزجاج.

واغمضت عينيى أنشد النوم دون جدوى، صوت صفية الهامس يسرى كأنما لم ينقطع، أراها إلى جوارى نائمة مغمضة العينين، ليلة كاملة مضت ونحن نتحدث، تذكرنى بليالى الداخلية فى حلوان الثانوية، كنا نقضى الليل كله فى حديث متصل، تفتح القلب الذهبى يتدلى من السلسلة حول عنقها، تلثم الصورة وخصلة شعر من رأسه، اسمه مرقص أبوه قبطى وأبوها مسلم، هددها بالسكين لتقطع علاقتها بمرقص، أصابته ذبحة صدرية حين دخل أخوها

أسعد السجن بتهمة الشيوعية، أمسكه البوليس وهو يهتف فى مظاهرة ضد الإنجليز، وكانت ضابطة الداخلية تمر علينا بكشافها، تفتش على نومنا وأحلامنا، لم نكن نحلم إلا بالحب والحرية، وفى ضوء القمر نشتغل فوق صدورنا الحروف "الجلاء بالدماء"، والناظرة تضربنا بالمسطرة فوق أصابعنا حتى تنزف منها الدماء، نلف حولها أربطة من الصوف، ندفنها تحت البطاطين ونتهامس طوال الليل، نتشاطر الألم والفرح والأمل فى المستقبل.

الليل ساكن لا أسمع إلا صوت أنفاسى، وأنفاس خافتة إلى جوارى، صفية غارقة فى النوم، عضلات وجهها مسترخية كأنما نفضت عنها العبء، بشرتها بيضاء إلا خط واحد داكن اللون عميق فى اللحم يمتد من زاوية عينها اليسرى حتى زاوية الفم، لم ألحظ هذا الخط من قبل، أدرك فجأة أنها لم تعد شابة، لم يبق أمامها ألا شهور قليلة وتبلغ السبعين من العمر، إلا أن أنفها ودقنها وشفتاها وكل ما فى وجهها يبدو طفوليا، كما كانت فى المدرسة الثانوية، ولا شئ يخرجها من الطفولة إلا هذا الخط الوحيد الذى بدا أنه ظهر فجأة على وجهها، كأنما طعنة مباغتة أصابت نصف وجهها الأيسر، أو صفعة حادة غيرت موضع الفك فتحرك نحو الأنف، أكاد أرى الأصابع مرسومة فوق الخد الأيسر، تشبه أصابع زوجها الدكتور مصطفى، كان له كف كبير ضخم يشبه قدم الفيل.

وعلى مهل دون أن أوقظها طبعت على خدها قبلة خفيفة، كأنما بهذه الملامسة السريعة أمسح نصف قرن من الألم الغائر فى اللحم.

* * * *

منذ كتابه عن أبى ذر الغفارى والاشتراكية فى الإسلام لم يكتب مصطفى الزهرى ?لا مقالات قصيرة تنشرها صحف الحكومة فى مصر وصحف حكومية أخرى فى عدد من البلاد العربية، تصله المكافآت بالدينار أو بالدولار على شكل شيكات، تكون فوق مكتبه قبل النشر. إلا أن كلمة الاشتراكية سقطت تماما من مقالاته منذ السبعينات، وسقط أبو ذر الغفارى فى الثمانينات، ولم يبق فى التسعينات إلا الإسلام ووجه الله الكريم، أعلن الدكتور مصطفى الزهرى فى أحد المقالات أنه رأى الله، ومنذ ذلك المقال ظهرت الزبيبة السوداء فوق جبهته العريضة، والسبحة الصفراء بين أصابعه لها فصوص تلمع فى الظلمة، وأصبح أستاذا له لحية طويلة بكرسى فى جامعة هيوستن فى ?مريكا، وقصر ملىء بالكراسى فى أرض الحجاز بجوار الحرمين الشريفين، وفى مصر أصبح يملك الخمسة عين، وعيون أخرى تتجاوز أحلام طلبة الطب والكليات الأخرى، ومنها شارع وجامع فى مصر الجديدة

أصبح يحمل إسم الزهرى، ومكتبة كبيرة وقاعة سينما وساعة لعرض الأفلام الدينية فى رمضان الكريم وموائد الرحمن لليتامى والمساكين.

حين تزوج صفية منذ أربعين عاما عاهدها على الوفاء والصدق، حكى لها عن حبه الأول لابنة العمدة، حين تزوجت ابن خالتها التاجر بالموسكى، صام عن الطعام ثلاثة أيام، فى اليوم الرابع قرصه الجوع، كان يوم الجمعة وأمه تخبز أمام الفرن تساعدها واحدة من البنات اليتيمات، تكسب قوت يومها بمساعدة النساء فى الخبيز، حملت أمه الخبز الساخن مع الجبن والمخلل وخرجت إلى زوجها فى الحقل، كان يوما شتويا باردا، وقبع الدكتور الزهيرى وكان عمره عشرين عاما على ظهر الفرن يلتهم الرغيف والبنت اليتيمة الصغيرة، كانت تقاومه بذراعيها وساقيها، تستحلفه بالله والرسول أن يتركها، ولم يتركها وقد تخيلها حبيبته الأولى ابنة العمدة، إلا أنها بلا أم ولا أب، ولن يصيبه أذى إذا انكشف الأمر، وفعلا ظل الأمر طى الكتمان، ولم يعرف شيئا عن البنت منذ حادث الفرن، غادر القرية إلى القاهرة، استأجر غرفة فى شارع الملك، كانت له مع البنات والنساء مغامرات، حكى لصفية عنها بزهو كثير، كان الفساد الاخلاقى هو الرجولة، وسألها عن حياتها السابقة، كانت صفية عذراء لم يمسسها بشر، إلا أن قلبها ملئ بالإثم، فى المدرسة كانت تعلق فى عنقها صورة مرقس، لم تعرف فى حياتها إلا هذا الحب العذرى، لم يقبلها أحد على شفتيها أو خدها، حرقت الصورة ومعها الذكرى قبل الزواج، وفى ليلة الزفاف ارادت أن تقول الصدق، حكت لزوجها قصة حبها الوحيدة، نسى كل شئ فى الكون إلا هذا القصة، وإن شردت عيناها لحظة نحو السماء بعد أربعين عاما يسألها: بتفكرى فى الدكتور مرقص؟

- كان عنده شك فيكى يا صفية رغم السنين دى كلها؟

- ?بدا كان عنده شك فى نفسه طوال الوقت، رغم جسمه الطويل العريض وغزواته مع البنات والستات كان عنده شك فى رجولته ودايما يبلع فيتامينات ويشترى برطمانات زيت كبد الحوت وملكات النحل وكل ما يسمع عن أقراص جديدة للتنشيط الجنسى يشتريها. حتى حبوب الفياجرا، لكن المشكلة مش الجنس، المشكلة الشرخ فى الشخصية من الطفولة، الفساد اللى ينخر فى العضم. أبوه كان كده وجده، ويظهر إن معظم الرجال بالشكل ده إلا القليل جدا، ويمكن كلامك صحيح يا نوال عن النظام الطبقى الأبوى، كنت دايما أعارضك وأقولك طبقى إيه وأبوى إيه، لكن أخيرا فهمت بعد أربعين سنة جواز وكنت مش عارفة حاجة، ومشغولة بالعيال والشغل فى المستشفى، وهو كان المدير لا شغل ولا مشغلة، ييجى آخر الليل ويقول كان فى اجتماع مع الوزير، وبعد ما انحال على المعاش بقت الحجة السفر فى المؤتمرت، والحقيقة أنه كان متجوز واحدة ثانية، وعايش معاها أكثر من عشرين سنة وأنا مش داريانة، ولما عرفت قالى ده حقى حسب القانون والشرع، وإن كان مش عاجبك نعمل طلاق، قلت له نعمل طلاق،

راح رافع إيده وضربنى، حسيت إن عينى الشمال طارت، ولعن أبويا وأمى وقال: كان لازم أطلقك من أربعين سنة من أيام سى مرقص افندى بتاعك!

بعد ساعة نهضت صفية وعادت إلى بيتها، لم يطلقها زوجها ولا هى طلبت الطلاق. جاءنى صوتها مستسلما عبر أسلاك التليفون: طلاق بعد أربعين سنة يا نوال واروح فين أبويا مات وأمى ماتت والعيال اتجوزوا وما عنديش بيت إلا بيتى، يروح هو مطرح ما يروح وأنا فى بيتى لغاية ما أموت، وعندى معاشى ومش عاوزة حاجة من حد، ولكن أى بنت تسالنى "أقول لخطيبى بصدق عن حياتى قبل الخطوبة" أقول لها "تبقى حمارة لو قلتى والدنيا دى ما ينفعش فيها إلا الكذب!".

الشرفة فى الدور السادس والعشرين

يوم من أيام يوليو الحارة عام 2000، أجلس فى الشرفة المطلة على النيل فى الدور السادس والعشرين، منذ عودتى من المنفى وأنا أعيش فى هذه الشقة الصغيرة فى حى شبرا القديم، أعيش المنفى داخل الوطن كما عشته فى الخارج، لم يعد هناك داخل وخارج، أو شرق وغرب، أو شمال وجنوب، أو العالم الاسلامى والعالم المسيحى، نحن نعيش فى عالم واحد يحكمه نظام طبقى أبوى منذ نشوء العبودية، تغيرت أشكال العبودية تحت أسماء جديدة منها العولمة وحرية السوق، والخصخصة والخصوصية، يتربع على قمة النظام العالمى الجديد أقل من خمسمائة شخص يملكون أكثر من نصف ثروة العالم، ويعيش مليار ونصف من البشر تحت خط الفقر، أغلبهم نساء وشباب وأطفال، يعيشون داخل هذه البيوت على شكل العشش أراها من حولى، تمتد من شبرا إلى امبابة وبولاق وروض الفرج، ومن نزلة السمان عند سفح الأهرامات إلى القلعة والسيدة زينب وسفح المقطم، تتساند البيوت القديمة الآيلة للسقوط إلى جوار المبانى الجديدة الفاخرة، يتربع على العرش فى بلادنا قلة قليلة تملك الثروة والسلطة والسلاح، والاتصالات بالخارج، من حولها نخبة مثقفة تعيش فى كنفها، تحول جرائمها إلى بطولات، تحت اسم الديموقراطية يتم ذبح الديموقراطية، تحت إسم حقوق الانسان يتم ذبح حقوق الانسان، تحت اسم حقوق المرأة يتم ذبح حقوق النساء .من يختلف فى الرأى عن الفرد الحاكم أو الأفراد الحاكمين يجد نفسه فى السجن دون محاكمة، أو محاكمة شكلية تختفى فيها العدالة، يفقد الإنسان سمعته الادبية أو الوطنية، يتحول من مدافع عن حقوق الفقراء والنساء إلى خائن للوطن، يتم اختزال الوطن إلى أفراد قلائل أو فرد واحد يجلس على العرش، مثل فرعون القديم الحاكم والإله فى آن واحد .

حين يبلغ الحزن مداه تعجز العين عن الدمع. تكف الحواس الخمس عن الإحساس .لا يبقى إلا الحاسة السادسة. المجهولة الغائرة فى أعماق الجسد والعقل والتاريخ. القادرة وحدها دون الحواس الأخرى على إدراك أن الأرض تدور رغم السكون. أن الزمان يلتحم بالمكان. لا شئ يفصل الروح عن الجسد أو الإله عن الشيطان أو المرأة عن الرجل .

منذ أيام قليلة أصابنى غثيان شديد وقئ .رقدت فى الفراش لا أستطيع الحركة .تصورت أنها النهاية طلبت حضور إبنتى وإبنى لأراهما قبل مغادرة الدنيا .الإثنان الغاليان هما قطعة من جسدى وعقلى. ثالثهما شريف رفيق العمر منذ خمسة وثلاثين عاما. الأسرة الصغيرة الدافئة العواطف، تختلف عن أغلب الأسر الخاضعة لسيطرة رجل واحد، أسرتنا لا يسيطر فيها أحد، لا رجل ولا امرأة ولا إبن أو ابنة، كلنا سواسية يدور بيننا الجدل حتى نصل إلى القرار الأصوب .

قالت إبنتى ماذا أكلت بالامس يا أمى؟ قلت لم آكل إلا بطيخ مع جبنة بيضاء قريش. قال شريف هناك حالات تسمم بسبب البطيخ أو الخيار أو الخوخ، يرشونها بالمبيدات الحشرية، أو يحقنونها بالهرمونات، يستوردون أغذية من الخارج غير صالحة للبشر، يرسلونها إلى بلادنا الافريقية بمثل ما يرسلون النفايات النووية لتدفن فى صحرائنا الشرقية أو الغربية، أصيب بعض الفلاحين فى قرية ميت حلفا بمحافظة القليوبية بإشعاع نووى وماتت أسرة بكاملها ويعيش سكان القرية تحت رعب الإشعاع، وهناك تكتم شديد على هذه الأخبار الأخيرة، لا نعرف بالضبط ماذا حدث لكن بعض الحقائق تتسرب إلى الصحف .

إشتد الغثيان والدوار .قلت لشريف ولابنتى وابنى، لا أريد أن أدفن فى مقبرة تحت الارض ليأكل جسدى الدود، أريد أن أتبرع بجسدى إلى مشرحة عادلة، تشرح جسدى وتعرف الأسباب الحقيقية لهذا التسمم الغذائى، وأرجو محاكمة المسئولين الكبار عن مشروعات التنمية والإصلاح الاقتصادى، التى أدت إلى مزيد من الفقر والجهل والمرض أحدها التسمم الغذائى .

سمعت صوتى يصرخ وأنا فى الفراش، لازم الناس دى تتحاكم محاكمة علنية عشان الناس تعرف .رأيت حولى ثلاثة من الاطباء، شخصوا الحالة تسمم غذائى، أخذت العلاج ثم تماثلت للشفاء بعد أن فقدت شهيتى لجميع أنواع الفاكهة فى مصر .

أجلس فى الشرفة العالية أطل على أسطح البيوت القديمة الآيلة للسقوط، جسمى لا يزال ضعيفا بعد النقاهة من المرض، أشعر بالدوار كلما حركت رأسى، كأنما سأفقد الوعى، فكرة الموت تلوح قريبة منى، أتذكر أمى حين ماتت ويدها فى يدى، أكاد أحس يدها تمسك يدى، رغم مرور أكثر من أربعين عاما على موتها، وجه أبى يلوح أمامى كأنما مات بالامس، كنت فى أول الشباب أتفتح كالزهرة المغلقة الأوراق .لا أعرف شيئا عن جرائم الإله المتنكر فى زى فرعون، لا أحد يحاسب الإله، يعيش ويموت ملفوفا بالعلم المقدس، ويساق إلى المقصلة كبش فداء من عامة الشعب، يطلقون عليه إسم الشيطان، رجل فقير نطق الحقيقة دون أن يدرى، أو فتاة صغيرة غريرة حملت سفاحا ولم تعرف من الذى اغتصبها فى ظلمة الليل. ربما هو الإله ذاته المتنكر فى ثوب رب العائلة الكبيرة أو الصغيرة، تسقط عنه الجريمة بحكم القوة أو القدسية، وتساق الفتاة إلى الموت أو إلى الزواج ممن اغتصبها، حماية لشرف العائلة .

تغيرت الاشياء عبر أربعين عاما، تضامنت النساء المقهورات تحت إسم الشرف مع الرجال المقهورين تحت إسم الفقر، بدأ الترابط بين القهر الجنسى والقهر الاقتصادى، أخطر ما يهدد النظام الحاكم هو هذا الترابط، بين

الجنس والاقتصاد، منذ نشوء العبودية حتى اليوم، كيف يغتصب الإله الفتاة العذراء فى الظلمة وكيف يسرق قوت الفقراء من الشعب، كيف ينجو من العقاب تحت إسم السيادة أو القدسية. ربما يحاكم بعد الموت، ربما ينقلب عليه بعد الموت أحد أعوانه ويكشف جرائمه تحت اسم "عودة الوعى ."

قبل أربعين عاما كنت فى ربيع الشباب، اليوم أنا فى مكان آخر وزمان آخر، أشعر بشىء من الوهن بعد النقاهة من التسمم الغذائى، أشعر بشىء من التفاؤل كلما زاد الترابط بين المقتولات تحت إسم الشرف والأخلاق والدين، وبين المقتولات والمقتولين تحت اسم التنمية والاصلاح الاقتصادى، رغم المحاولات لضرب التضامن بين هؤلاء وهؤلاء فإن المقهورات والمقهورين لا يكفون عن التمرد والثورة والاستمرار فى الكفاح ضد النظام الحاكم وأعوانهم من النخبة المثقفة .

يحدث هذا فى مصر وفى بلاد العالم الاخرى، تتكرر المظاهرات الشعبية فى عواصم الغرب والشرق، والشمال والجنوب، ضد الآلهة فى واشنطن ولندن وباريس ودمشق والرياض والقاهرة والخرطوم وبغداد وتونس والرباط وموسكو وطوكيو وبكين وغيرها وغيرها .يتجمع الآلهة فى اجتماعات القمة هنا وهناك تحت اسم العولمة والديموقراطية وحقوق الإنسان وحقوق النساء، ويتجمع الشياطين المقهورين والمقهورات فى مظاهرات فى الشوارع تحت اسم العولمة من أسفل، يضربون الآلهة بالحجارة والطوب والزلط، يرد الالهة بالقنابل النووية والمسيلة للدموع حسب قوة الشياطين وقدرتهم على الصمود .

قرأنا عن المظاهرات فى سياتل فى خريف 1999، ومظاهرات أخرى تتكرر، آخرها المظاهرات فى جنوب فرنسا فى أول يوليو 2000، تجمع الرجال والنساء والشباب والأطفال وضربوا معاقل الآلهة، منهم "ماكدونالد " الإله القوى الذى يلد نفسه فى جميع بلاد العالم، و"سينسبرى "الإله الجديد المنافس للآلهة القدامى، وفى شارعنا الذى يسمونه شارع معهد ناصر فتح "سينسبرى" محلا ضخما، أطلق عليه اسم "سينسبرى أغاخان"، ليست منطقة أغاخان الثرية المجاورة لنا، ولكن منطقة حى شبرا القديم الفقير، جاء هذا السوبر ماركت البريطانى الجديد ليضرب محلات البقالة الصغيرة والمنتجات المحلية المصرية، وليملأ شارعنا بالصناديق الفارغة والقمامة والذباب دون أن تحاسبه وزارة البيئة المصرية، رغم أنها تحاسب المحلات المصرية الفقيرة حسابا عسيرا، قد تأمر بإغلاقها إن لم تتخلص من قمامتها أو ما يسمونها النفايات .

حاولنا أنا وشريف مع سكان الحى الفقير أن نعترض على النفايات المتراكمة فى شارعنا، التى يلقى بها السوبر ماركت اللامع البلاط "سينسبرى "إلى عرض الشارع الذى نعيش فيه، ذهبت محاولاتنا حتى اليوم عرض الرياح لم يتحرك مسئول واحد فى الحكومة المصرية لحماية حى شبرا الفقير من نفايات الإله البريطانى الجديد .

يدور الصراع غير المتكافئ بين الآلهة الكبار القليلين المالكين للإعلام والسلاح والمال، وبين الملايين من الشعوب الفقيرة المعدمة من النساء والرجال، يلعب الإعلام دورا أمضى من السلاح العسكرى، بالأمس قرأت فى بعض الصحف المصرية تشويها للمظاهرات الشعبية الأخيرة فى جنوب فرنسا، كتب أحد رؤساء تحرير صحيفة حكومية مصرية يقول فى 1يوليو 2000 التالى :شهدت فرنسا مظاهرات شعبية مؤيدة للشذوذ الجنسى ضمن الهتافات ضد العولمة، تحولت هذه المظاهرات إلى ما يشبه الظاهرة العالمية لتشجيع الشذوذ الجنسى تحت إسم محاربة العولمة والشرعية الدولية، وقد قطع الرجال والنساء فى الغرب شوطا كبيرا فى قبول الشذوذ الجنسى كأنما هو شئ طبيعى مع أنه انحراف أخلاقى خطير، وقد شارك فى هذا المظاهرات مئات الألوف من الشعب الفرنسى تتقدم صفوفهم الأحزاب السياسية المختلفة ومنظمات حقوق الإنسان، فهل يمكن لنا أن نؤيد مثل هذه المظاهرات المنتشرة فى الغرب اليوم؟ نحن بلاد شرقية لنا خصوصية دينية وقيم نابعة من تراثنا وثقافتنا وهويتنا الأصلية، ولا نقبل أن ننساق وراء هذه الإباحية والشذوذ الجنسى الخطير ."!

هكذا تم الربط بين المظاهرات الشعبية ضد العولمة وضد كافة أشكال القهر الاقتصادية والجنسية إلى مجرد مظاهرات ضد القيم والأخلاق والخصوصية والهوية .

جسدى ينتفض بالغضب وانا أقرأ الصحف، اكتشف الزيف بحكم خبرتى ومشاركتى فى بعض هذه المظاهرات الشعبية العالمية، التى كسرت الحواجز بين الناس، حواجز الدين أو الجنس أو الجنسية أو العرق أو اللون أو المهنة أو غيرها، كنت اجد نفسى بين آلاف البشر بصرف النظر عن اختلافاتنا نهتف معا ضد هؤلاء القلة من الآلهة الذين يتربعون على العروش فى جميع البلاد، وأسمع صوت شريف يقول: هذا الغضب يا نوال مضر بصحتك، وأنت لازلت فى دور النقاهة بعد هذا التسمم الغذائى، علينا أن نحافظ على صحتنا، وأقول له معك حق يا شريف، لكن كيف لا أغضب وأنا أقرأ هذا التزييف اليومى تحت اسم الهوية والخصوصية واحترام الاختلافات الثقافية. يضحك شريف ويقول تحت اسم احترام الاختلافات المحلية يشجعون الفتن الطائفية والإثنية، وتحت اسم الخصوصية الثقافية يشجعون الخصخصة وضرب الاقتصاد المحلى، وتحت اسم العولمة من أعلى يضربون العولمة من أسفل .

كان معنا تلك الليلة صديق قديم لشريف، اسمه عادل أمين، وهو محامى معروف، تولى الدفاع عنى حين دخلت السجن عام 1981، جاء فى زيارة لنا تلك الليلة يحمل زجاجة نبيذ وكتابا جديدا سجل فيه وقائع محاكمة الشيوعيين عام 1953، ضحك عادل أمين وهو يجلس معنا فى الشرفة العالية، يرشف من كأسه على مهل، وقال: لابد لنا من نبيذ عمر الخيام يا دكتور شريف حتى نتذكر هذه المحاكمات منذ سبعة وأربعين عاما، وفى هذا الجزء من كتابى نقلت أقوالك فى التحقيق عام 1953، وأقوال الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله وغيره من قيادات الشيوعيين، وسوف تكتشف الفرق الكبير بين أقوالك فى التحقيق وأقوالهم، أنت يا شريف إنسان صادق مستعد أن تدفع حياتك لتعبر عن رأيك، وهذا واضح فى التحقيق معك، لكن بعض زملائك الشيوعيين لم يكونوا كذلك، لقد دخلوا السياسة لأهداف أخرى مثل الحصول على منصب وزير أو رئيس وزراء أو جوائز الدولة، وأنت لم تحصل على شئ من هذا، لكنك حظيت باحترام الجميع وأنا منهم .

تركت شريف وعادل أمين يتبادلان الذكريات عن التحقيقات، أخذت الكتاب إلى غرفتى لأقرأ ماذا قال شريف حتاتة فى ذلك التحقيق عام 1953، ذلك العام كنت طالبة بكلية الطب، أعانى ما يعانيه أحمد حلمى والفدائيين الذين شاركوا فى حرب القنال عام 1951، أصبحوا كبش الفداء بين صفقة الحكومة المصرية والإحتلال البريطانى، مات بعضهم على أرض المعركة، مات بعضهم فى المنفى فى الخارج أو فى الداخل، من عاش منهم أصابه المرض النفسى أو الإدمان من أجل النسيان .حتى اليوم لم يؤرخ أحد لهذه الفترة من حياة مصر. سقطت أسماء هؤلاء الفدائيين الشهداء فى العدم .

تحت اللمبة الكهربية فى غرفتى فتحت كتاب عادل أمين وقرأت أقوال شريف حتاتة فى التحقيق :

"ذكر شريف أنه قبض عليه فى 3 نوفمبر 1953الساعة الرابعة صباحا وأودع السجن الحربى، وتم التحقيق معه يوم 5 نوفمبر 1953، وقيل له أنه مقبوض عليه بأمر من مجلس قيادة الثورة، وعومل بطريقة غريبة، السجن الانفرادى المطلق لمدة أربعة شهور محروما من كل شئ، صحف أو كتب أو الاتصال بعائلته أو بمحامى، وضرب عدة مرات ضربا مبرحا، وكبل بالحديد الخلفى والحديد فى الارجل، وهدده ضابط المخابرات أحمد محمود بالشنق، وبالاعتداء الجنسى، والانتقام من أفراد عائلته إن لم يدل بالأقوال التى يريدها، كما هدده عدة مرات بالاعتداء عليه وشنقه داخل زنزانته - لم يصدر أمر من النيابة العامة بحبس شريف حتاتة إلا فى 15 مارس 1954، ونقل إلى سجن مصر بأمر حبس عسكرى، كان مطلوبا تقديمه لمحكمة الثورة وإعدامه مع بعض زملائه، لولا أن هذه المؤامرة أحبطت، كان التحقيق يجرى فى ظل الأحكام العرفية، وقال شريف فى التحقيق أن الشعب المصرى يريد الكفاح المسلح فى القنال لطرد الاحتلال، وأن النيابة مشتركة فى الجريمة ضده، وأنه يحتج على هذا

الإرهاب، وأضاف أن التعذيب أدى إلى إصابة زميله كمال عبد الحليم باختلال فى قواه العقلية، وعولج بالصدمات الكهربية فى المستشفى العسكرى، ومرض الآخرون بحالات عصبية وجسمية يحملونها معهم بقية العمر .

وتم ضبط مع شريف حتاتة مطبوعات كالآتى :ست نسخ من نشرة صوت الفلاحين، ستة عشر صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة ومطبوعة بالرونيو فى شكل كتيب صغير، الصفحة الأولى منها عبارة مأثورة عن فرردريك إنجلز تقول "النظرية تصبح قوة مادية عندما تتغلغل وسط الكتل"، وعبارة لينين تقول "بغير نظرية ثورية لا يمكن أن توجد حركة ثورية"، وفى الختام عبارة تقول "رجال الحكم فى مصر يتعاونون مع الاستعمار لا يستطيعون مواجهة الشعب إلا بالدبابات والمشانق ومحاكم الثورة"، ثم هذه العبارة الأخيرة "تسقط جمهورية الدكتاتورية العسكرية وتحيا الجمهورية الشعبية الديموقراطية"، وقد حكم على شريف حتاتة بعشرة أعوام سجن مع الأشغال الشاقة، أداها بالكامل داخل سجون مصر، لم يطلق سراحه إلا عام 1963، وظل تحت المراقبة عدة سنين بعد ذلك، حتى غادر مصر عام 1973، ثم عاد إلى الوطن عام 1980 .

وفى عام 1981 دخلت أنا السجن وبقى شريف خارجه، وعشنا المطاردة عدة سنوات حتى 1988، حين دخل إسمى قائمة الموت، وفى عام 1991 وجهت إلينا الحكومة ضربة كبيرة بسبب وقوفنا ضد حرب الخليج، وفى عام 1992 كان لابد من السفر خارج الوطن حماية لأرواحنا، ثم عدنا إلى الوطن بعد ستة أعوام فى المنفى، وها نحن نعيش المنفى داخل الوطن، فى تلك الشقة الصغيرة، تكاد تشبه العلبة من الأسمنت المعلقة بين السماء والأرض فى الدور السادس والعشرين فى حى شبرا القديم، لولا هذه الشرفة العالية المطلة على النيل والفضاء الواسع، لولا انهماكنا فى الكتابة الإبداعية، لولا زيارات الأصدقاء القدامى والصديقات الجديدات من الشابات والشباب ربما أصابنا الاختناق أو الموت بالذبحة الصدرية أو التسمم الغذائى .

فى هذه الشرفة نجلس فى الليل، شبورة سوداء ترقد تحتها مدينة القاهرة، المآذن وقباب الكنائس تغرق فى الخضم الأسود على حد سواء، أصوات صاخبة ترتفع من خلال مكبرات الصوت، تراتيل دينية بصوت ذكورى خشن، وتراتيل غنائية بأصوات المطربات وراقصات يطرقعن بالصاجات، رائحة الهامبيرجر الأمريكى تتصاعد مع قمامة سينسبرى البريطانى، فوق الشاشة وفى الإذاعات تتكرر الصورة الواحدة والصوت الواحد للحاكم الإله، من حوله رجال ونساء البلاط .

قلبى ينوء بالحزن على هذا الوطن، ستون مليونا من البشر يعيش نصفهم تحت خط الفقر، أغلبهم نساء معذبات داخل البيوت، يعانين إلى جوار الفقر الاغتصاب الجنسى داخل الزواج أو خارجه، يقهرهن رجال العائلة بمثل ما يقهرهن رجال الدولة .

منذ ولدت فى بداية الثلاثينات وأنا غاضبة ثائرة ضد هذا الظلم، منذ الطفولة أحلم بعالم آخر، أبحث عن شئ لا أعرف ماذا أسميه .تعجز اللغة الطبقية الأبوية عن التعبير عنه ليس هو الحب الذى يتغنى به هذا العالم المزدوج الوجه، وليس هو الإله الذى يعبده الرجال ويضعهم فى درجة أعلى من النساء .

شئ أبحث عنه لا أجده فى هذا الكون .قد يجذبنى البريق فى عينيى الإنسان أو الإنسانة .أنتبه كالعصب الحساس العارى .أبحث تحت البريق عن الشىء العميق .أنخدع وأخدع نفسى المرة وراء المرة. ثم أفيق بعد عام أو عامين أو عشرين عاما .أكتشف جزءا من الحقيقة التى تتخفى مثل جبل الثلج. يتراكم الحزن فى قلبى العام وراء العام .لا شئ إلا الحزن حين أواجه الحقيقة فى هذا العالم المزيف .

مفتوحة العينين أحملق فى وجه الموت .أحملق فى وجه الزيف. فى وجه فرعون الإله حاكم البلاد، أثبت عينى فى عينيه وهو جالس فوق المنصة العالية، أشير اليه باصبعى وأقول له: أنت أول من يحاسب عن الظلم والفساد والفقر فى هذه البلد وليس نائبك أو مندوبك، لأنك الوحيد الذى تقبض فى يدك على السلطة المطلقة، ومن يملك السلطة هو المسئول .

لكنهم يفصلون بين السلطة والمسئولية، كلما ازدادت السلطة اكتسب الحاكم حصانة أكبر، مثل الإله يصبح مسئولا عن الخير فقط، أما الشر فهناك كبش الفداء أو الضحية يسمونه الشيطان أو حواء الآثمة، أى النساء الفقيرات المغتصبات جسديا واقتصاديا تحت سطوة القيم الطبقية الأبوية .

فى المرآة أرى سحابة الحزن تكاد تخفى البريق القديم فى عينى. أجلس فى الشرفة العالية أطل على المدينة، القاهرة لأهلها المقهورة بحكامها .أقاوم الحزن بالكتابة. أحب ملمس القلم بين أصابعى، الأوراق متراكمة فوق مكتبى بخط يدى .تطل من داخل الغلاف البرتقالى مكتوب عليه: أوراقى حياتى، الجزء الثالث، مفكرتى الصغيرة غلافها أزرق تشبه الكشكول الأزرق فى طفولتى عام 1942، مكتوب عليها عام 2000، ثمانية وأربعين عاما مضت منذ بدأت أكتب فى مفكرتى السرية، لم يعد عندى أسرار .كتبتها كلها ونشرتها على الناس. تحولت من ذكريات مكبوتة تبعث على الخزى والعار إلى قيمة علمية وأدبية يدرسها الطلاب والطالبات فى جامعات العالم، ما عدا الجامعة المصرية .

هناك مثل شائع يقول لا كرامة لنبى وسط أهله. أحيانا أدرك أن الحظ يحالفنى، لأننى أعيش ولم يغتالنى أحد بعد. أفرد ذراعى عن آخرهما وآخذ شهيقا عميقا .أشعر بحرية الخروج من دائرة المألوف .أتذكر أبى منذ اثنين وأربعين عاما حين ترك الحكومة المصرية .فرد ذراعيه عن آخرهما وقال، أخيرا تحررت بعد ثلاثة وثلاثين عاما عشتها رهين المحبسين، الوظيفة الحكومية وسرير الزوجية !

ضحك شريف وقال أبى أيضا مثل أبيك تحرر من الحكومة بعد الإحالة إلى المعاش، لكنه تحرر من سرير الزوجية قبل ذلك بأعوام كثيرة وتزوج امرأة فى الخفاء دون أن تعرف أمى .قلت يا شريف كان أبى مخلصا لأمى، لم يكن يفصل بين الإخلاص للزوجة والإخلاص للوطن، قال شريف انت مثالية يا نوال، كل شئ نسبى فى الحياة، لا يوجد إخلاص مائة فى المائة، قلت كم تستخدم نظرية النسبية يا شريف لتبرير كثير من الموبقات فى العالم! ضحك شريف وقال، وكم من موبقات أكثر تحدث تحت إسم المثالية والمطلق .

يدور الحوار بينى وبين شريف ونحن جالسان فى الشرفة .ستة وثلاثين عاما مرت منذ تزوجنا ونحن فى حوار دائم، نطل من الشرفة العالية على القاهرة من أهرامات الجيزة إلى جبل المقطم والقلعة، مساحات من الأسمنت بلا شجرة خضراء أو حديقة للأطفال، قطعوا الأشجار وزحفت الجدران على الزرع، جدران سوداء بلا نوافذ، أو نوافذ كالشقوق داخل الشقق، كالعلب المستوردة، يحفظون فيها الفاصوليا وحبوب الصويا، داخل كل علبة تكدست الأجسام، الجد والجدة والأب والأم والأولاد والبنات والأحفاد والحفيدات، والأعمام والأخوال والخالات والعمات وأولادهم وبناتهم، يرقد اللحم إلى جوار اللحم فى غرفة واحدة، يدس الواحد منهم إصبعه فى عين الآخر دون أن يراه، يدخل قضيب أحدهم فى ثقب مظلم داخل الجدار أو داخل اللحم، لا يعرف فى الظلمة الجدار من الجسد، لا شئ يتحرك فى النوم إلا الأشباح وأرواح الجان، ورد ذكرهم فى كتاب الله، كلهم يؤمنون بالكتاب وبالأرواح الخفية، ينامون دون أن يتكلم أحد فى النوم، فى النهار يسيرون بعيون نصف مغمضة، لا أحد ينطق بشىء مما يدور فى عقله، إنهم يعيشون تحت حكم قانون الطوارئ، يشبه قانون الأحكام العرفية، إن نطق أحدهم بما يدور فى رأسه يأخذوه إلى السجن دون تحقيق، بالأمس وافق مجلس الشعب على مد العمل بقانون الطوارئ ثلاثة أعوام أخرى حتى عام 2003، وبعدها لا أحد يعرف الغيب إلا الله والسيد الرئيس .

بالأمس اعترض مجلس الشعب على حق المرأة فى السفر دون إذن زوجها، قلت لابنتى، أنت اكثر حرية من أمك لأنك غير متزوجة. قالت ابنتى، ولماذا تزوجت يا أمى، قلت لم يكن ممكنا أن انجب أطفالا منذ أربعين عاما دون زواج، أنا لا أومن بورق الزواج أو شهادة الطب أو الادب أو شهادة الميلاد أو الوفاة، لكنى تزوجت بعقد مكتوب ليكتسب أطفالى الشرعية، لكن اليوم لم يعد عقد الزواج الرسمى صالحا، لم تعد النساء خاضعات مكسورات،

أغلب الشابات المثقفات يرفضن الزواج الرسمى، بدأت أنواع أخرى من الزواج غير الرسمى تنتشر مثل الزواج العرفى وزواج المسيار وزواج الدم، وكلها تتحدى الزواج الرسمى المختوم بالنسر .

فى هذه الشرفة فى الدور السادس والعشرين يدور الحوار بين أجيال مختلفة من الشباب والشابات، من عمر ابنتى، وعمر إبنى، أرمقهم بإعجاب عيونهم لم تعد منكسرة، رؤوسهم لم تعد مطرقة الى الارض، عيونهم لم تعد نصف مغمضة، يتحاورون ويعبرون عما يدور فى عقولهم دون خوف .

وقال شريف، سيكون المستقبل أفضل من الحاضر يا نوال، قلت، لكننا لن نكون هنا يا شريف، قال لا يهم أن نكون هنا بأجسامنا لكن أفكارنا ستكون موجودة فى الكتب .

وأسأل بدهشة: أيكون الورق أطول عمرا من البشر؟! ألهذا لجأ الآلهة أيضا إلى الكتب من أجل البقاء؟

من مفكرتى السرية عام 1947

اليوم 9 يوليو 2000، تجمعت فى بيتى أعداد من الشابات والشباب، أسسوا جمعية جديدة باسم النهضة الفكرية للمرأة المصرية، بدأت معاكسات وزارة الشئون الاجتماعية، رفضت تسجيل الجمعية فى مارس الماضى، لكن العضوات والأعضاء أصروا على مواصلة العمل، أنظر إلى وجوههم، أتذكر نفسى منذ أربعين عاما، حين كنت فى مثل هذا العمر، ربيع الشباب، يعود إلىَّ حماسى كما كنت فى العشرين أو الثلاثين، إبنتى منى وإبنى عاطف جزء من هذه النهضة الفكرية والفنية الجديدة، هذه الوجوه تشبه إبنتى وإبنى، كأنما ولدتهم جميعا فى مكان وزمان لا أدرى عنه شيئا.

لاشىء يعيد إلىَّ التفاؤل والأمل مثل العمل الجماعى ، هذه الوجوه الشابة المليئة بالتفاؤل والأمل، عيونهم يكسوها البريق، يبتسمون ويضحكون، يتحركون فى بيتى كأنما بيتهم، يدخلون إلى المطبخ، يصنعون الشاى، يقطعون فطيرة الذرة، ثم تتولى واحدة منهم إدارة الاجتماع، شابة فى الخامسة والعشرين إسمها ابتسام، تكتب الأدب والشعر، تخرج إلى المظاهرات ضد الفساد فى الدولة والعائلة، خاضت تجربة الزواج والأمومة، خرجت من التجربة برواية جديدة طويلة وطفلة عمرها ثلاثة أعوام، تحملها معها فى كل مكان، تدربها منذ الطفولة على رؤية العالم، والتحدى، تعيش وحدها مع طفلتها، تنفق عليها من راتبها الشهرى، تشتغل فى إحدى الصحف الجديدة، تحصل على ما يكفيها ويكفى طفلتها، قالت ابتسام فى الاجتماع، أنا امرأة سعيدة أستمتع بالحياة دون حاجة إلى رجل، قال أحد الشباب، ليس كل الرجال متخلفين يا ابتسام، ضحك الجميع، وقال شاب، أغلبهم متخلفين، لابد من الاعتراف أن قلة نادرة من الشباب تخلصوا من عقدة الذكورة، وقالت إحدى الشابات، لابد من الاعتراف أن قلة نادرة من الشابات تخلصن من عقدة الأنوثة.

يدور الحوار بينهم وهم جالسون فى صالة بيتى. استمع إليهم. ربما هم هؤلاء القلة النادرة، وإلا فلماذا جاءوا إلىَّ أنا بالذات ؟! وقالت ابتسام: قرأت كتبك يا دكتورة نوال وتغيرت حياتى كلها، استطعت أن أحول كل تجربة مؤلمة مررت بها إلى عمل إبداعى. هذه الكلمات ترن فى أذنى كالموسيقى. كالماء يروى الزهرة. كالهواء النقى يدخل صدرى، يطرد الغبار والحزن واليأس، أتلفت حولى وأرى الفقر يشتد، الجهل يشتد، المرض يشتد، الثالوث المزمن القديم منذ عهود الملكية والإقطاع:" الفقر، الجهل، المرض". هذا الثالوث يتجسد أمامى أينما ذهبت، كأنما لم يتحرك الزمن منذ كنت طفلة فى السابعة من العمر.

لكن هذه الوجوه الشابة تعيد إلى التفاؤل والأمل. تقول ابتسام، لسنا قلة نادرة يا دكتورة نوال، نحن أغلبية هذا الشعب، الأغلبية الصامتة التى لم يكن لها صوت، أصبح لنا صوت، ربما صوت ضعيف فى مجموعة صغيرة لكن صوتنا سوف يكبر ويكبر. تطلق ضحكة مرحة يشاركها الجميع الضحك. أضحك معهم. أسمع صوت ضحكتى بأذنى،أستعيد طفولتى وشبابى، يتسرب الألم من جسدى والحزن، انهض بحركة خفيفة كأنما فى العشرين من العمر، كأنما تلاشت أربعين سنة من عمرى. أيكون الزمن هو الوهم؟! أتكون الشيخوخة هى المرض المؤقت لا يشفيه إلا الأمل؟!

همست لشريف فى الليل، سأعيش حتى القرن الثانى والعشرين، ضحك شريف وقال، بالأمس قلتى يا نوال أنك ستموتين غداً، نعم يا شريف، كان ذلك بالأمس، لكن اليوم أنا شابة من جديد، ما رأيك فى كأس من النبيذ وقليل من الفول السودانى، وكثير من الحب؟! يضحك شريف، الساعة الآن الثالثة صباحا يا نوال، إيه يعنى يا شريف؟ وليه تبص فى الساعة؟ تعود شريف أن ينام والساعة حول معصمه، وخاتم الزواج حول إصبعه، تعودت أن أنام بدون ساعة وأصحو بدون ساعة، وليس حول إصبعى أى خاتم، ولا أعترف بأى ختم.

يقول شريف عنها "الفوضى الضرورية لأى نظام" نحن فى حاجة إلى شىء من الفوضى لندرك النظام، شريف كان يدرس معى فى جامعة ديوك المادة الجديدة التى أطلقنا عليها إسم "التمرد والإبداع"، حين التقيت بشريف لأول مرة منذ ستة وثلاثين عاما قلت له، أنت يا شريف متمرد ومبدع، فى أعماقك حنين للفوضى رغم مظهرك الخارجى المنظم جدا.

أصبحت نظرية الفوضى فى علم الكون الجديد جزءا لا ينفصل عن النظام، وفى علم الفلسفة الجديد أصبح الشيطان جزءا من الإله، تلاشت الثنائيات الباطلة الموروثة منذ نشوء العبودية، ومنها ثنائية الذكر والأنثى والحاكم والمحكوم. ألهذا السبب لا أعترف بأى حكومة فى العالم؟ تشترك الحكومات جميعا فى بعض الصفات الأساسية، على رأسها القهر والتضليل، ما أن ترن كلمة "حكومة" فى أذنى حتى تتكور يدى فى قبضة قوية، كأنما سأضرب رأس ثعبان.

وأندهش حين يفخر أحد بمنصبه العالى فى الحكومة، أو حين ينال جائزة حكومية تحمل إسم جائزة الدولة.

- ما الفرق بين الحكومة والدولة؟

- فى الأنظمة الدكتاتورية لا يوجد فرق، لأن الشعب لا يشارك فى الحكم.

- وهل يشارك الشعب فى أى حكم فى العالم؟
- فى عالمنا الطبقى الأبوى هذا؟
- نعم.
- لا توجد ديموقراطية حقيقية فى أى بلد، العالم تحكمه القوة والأموال وليس العدل أو الحرية.

يدور الحوار فى بيتنا عام 2000 كما كان يدور منذ نصف قرن فى بيت أبى، سقط النظام الملكى وبدأ النظام الجمهورى وظلت الحكومات كما هى، لا يمكن لحكومة أن تبقى مستقرة فوق عرشها دون قهر الشعب وتضليله. كان أبى يقول لا شىء يضلل الشعب مثل نظام التعليم.

كنت فى الثامنة والعشرين من عمرى حين مات أبى. كلماته محفورة فى ذاكرتى. وزارة التعليم تلعب دورا فى تجهيل الناس بالحقيقة. المعرفة إثم منذ مدت حواء وآدم يدهما إلى شجرة المعرفة. لا تزال المعرفة إثما حتى اليوم. أصبحت عمليات التجهيل أكثر إتقانا مع تطور تكنولوجيا التعليم والإعلام الحديث وما بعد الحديث.

فى أعماقى حنين منذ الطفولة للمعرفة. شهوة المعرفة أكبر عندى من الشهوة الجنسية. لا يجذبنى الرجال ذوى الفحولة الذكورية. لقد مر بحياتى رجال كثيرون. انجذبوا إلى أنوثتى الخادعة. إلى البريق المطل من العينين. تصوروا أنه الشبق الجنسى. لم يدركوا أنها الشهوة إلى المعرفة. تصوروا أننى أبادلهم الحب. لكن سرعان ما تحدث المأساة. تصطدم الذكورة التقليدية بأنوثة مختلفة غير قابلة للاختراق.

بعد موت أبى وأمى تصورت أننى تحررت، فى طفولتى كنت أحلم أنهما ماتا لأخرج من البيت بدون إذن. أصحو من النوم مبللة بالدموع، أبكى على موتهما بمثل ما أبكى على عدم موتهما.

بعد موت أبى جاءت صديقتى بطة لتعزينى. مرت علىَّ بعيادتى فى ميدان الجيزة. كانت الساعة السابعة أول الليل. العيادة خالية من المرضى والتمورجى فى أجازة. انتهزت فرصة موت أبى لأغلق عيادتى شهرا كاملا. علقت ورقة على الباب تقول:

"العيادة مغلقة حتى يوم 21 مارس". كنت أريد أن أكتب "العيادة مغلقة إلى الأبد". لقد فتحت هذه العيادة من أجل أبى. دخلت كلية الطب من أجل أبى. وقد مات أبى وانتهت علاقتى بمهنة الطب. أما العيادة فقد أصبحت مقرا لندوات الأدب، حيث ألتقى بالأصدقاء و الصديقات.

دخلت بطة كعادتها مثل ريح تدفع الباب، تدق الأرض بكعب حذائها العالى المدبب، جسمها السمين القصير مدكوك داخل ثوب حريرى أسود علامة الحداد على موت أبى، فتحة الصدر واسعة تكشف عن عنق سمين ناعم حتى الشق العميق بين النهدين المضغوطين بالمشد، رأت وجهى الشاحب الحزين فجلست مطرقة إلى الأرض ترسم على وجهها علامات الحزن. عيناها السوداوان الواسعتان مرسومتان بالكحل، تملؤهما ضحكة مرحة مكتومة الصوت.

- تشربى إيه يا بطة؟

- قهوة سادة سودا يا نوال، مش كده والا إيه؟

أفلتت من بين شفتيها الممتلئتين تنهيدة قصيرة، لعقت بطرف لسانها شفتها السفلى السمينة وقالت: عندك حاجة تانية؟ قلت: عندى ينسون يا بطة. هنا أطلقت ضحكتها المرحة وقالت: مش تبطلى طفولة بقه إنتى كبرتى يا نوال، عندك جين تونيك؟

كانت أول مرة فى حياتى أسمع كلمة "جين تونيك". قالت بطة إنه الشىء الوحيد الذى تشربه حين تكون حزينة. المشروب الوحيد الذى يبدد الكآبة وتبدو الحياة تحت أضواء جديدة. فى أعماقى حنين لأذوق كل ما تشتهى الأنفس، وكان وجود أبى فى حياتى كاللوح الزجاجى السميك الشفاف، أرى من خلاله الحياة وإن مددت يدى نحوها يعترضنى حاجز لا أراه.

دق جرس التليفون فوق مكتبى. جاءنى الصوت يقول، البقية فى حياتك يا نوال، سأمر عليك بعد ساعة، لمعت عينا بطة وتساءلت: مين هو؟ قلت لها رجاء الشاعر. مطت بوزها وقالت، يعنى! وهى كلمة شاعت على ألسن الناس فى مصر منذ الوحدة مع سوريا، وهى تعنى الموافقة وعدم الموافقة فى وقت واحد. بعد فشل الوحدة وأنفصال سوريا عن مصر بقيت الكلمة تتردد على الألسن، وتعنى اللامبالاة أو عدم الاهتمام، يهز الواحد منهم كتفه ويقول "يعنى"، أو تمط الواحدة منهن شفتيها وتقول "يعنى"، فندرك ماذا تعنى. بدأت الكلمة أول ما بدأت على لسان جمال عبد الناصر فى الأيام الأولى للوحدة مع سوريا، دخلت الكلمة القاموس المصرى بقرار شفهى شبه جمهورى، تشبها بالسوريين، ثم انتقلت إلى المصريين تشبها بالرئيس عبد الناصر، وأعقب ذلك الإمساك بالسبحة بين الأصابع، ودخلت كلمة أخرى إلى القاموس المصرى مع تحريك حبات السبحة، وهى كلمة "والَّلا"، تضحك بطة وهى تردد كلمة "والَّلا" بصوت عبد الناصر، تعقبها بكلمة "يعنى"، ثم تطرقع أصابعها القصيرة البضة وتمط شفتيها وتقول:

عارفة يا نوال أنا باعرف بتوع الاتحاد الاشتراكى من طريقة كلامهم. وكان الاتحاد الاشتراكى قد تكوَّن بعد صدور القرارات الاشتراكية عام 1961، وعقد المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية عام 1962، وخرج الميثاق إلى الوجود وصديقتى بطة تسخر من كل ذلك، تمط بوزها وتقول يعنى!

لم يكن صديقى رجاء الشاعر يعجب صديقتى بطة. تقول عنه "إشتراكى غارق لأذنيه فى عشق البرجوازية". وهو نحيف الجسم قصير القامة قدماه صغيرتان. وهى لا تطيق القدم الصغيرة فى الرجل، كما لا تطيق القدم الكبيرة فى المرأة. ترمق بإعجاب قدمها الصغيرة البضة المقوسة داخل الحذاء ذى الكعب العالى، تقارنها بقدمى الكبيرة داخل حذائى بدون كعب، وتمط شفتيها: مش عارفة يا نوال إيه اللى عاجبك فى جزم الرجالة دى اللى بتلبسيها! كانت بطة تتولى مهمة تحويلى إلى أنثى مثلها، ترمق بشرتى السمراء بشىء من الامتعاض وتقول:

عارفة إيه اللى ناقصك يا نوال عشان تبقى ملكة جمال، شوية بودرة وروج وتصبغى شعرك الأبيض ده!

كأنما كانت النقيضة لى، رغم اختلافى معها فى كل شىء كان هناك شىء غامض يجمعنا. تلازمنى فى كل مكان أذهب إليه كظلى. تطلبنى كل يوم فى التلفون وتأتى لزيارتى فى البيت أو العيادة. أصمم فى كل مرة ألا أرد عليها، لكن ما أن يرن الجرس وأعرف صوتها حتى أقول: أهلا بطة. كانت تملأ حياتى الحزينة بشىء من المرح. تملأ حياتى الجادة بشىء من الاستهتار، إلى جوارها أحس بالنقاء، كأنما يحتاج النقاء دائما إلى شىء من الفساد ليرى نفسه. كالضوء لا نراه إلا فى الظلمة.

حين قالت بطة "يعنى" ومطت بوزها قلت لصديقى رجاء الشاعر أننى متعبة وحزينة لموت أبى ولا أقابل أحدا من الناس. أحسست فى صوته خيبة الأمل. كان يريد أن يرانى فى تلك الليلة. وكانت معى صديقتى بطة. وهى قادرة على تسليتى أكثر منه. تجعلنى أضحك من أعماق قلبى. لا تحدثنى عن الإشتراكية أو الوحدة أو النظام، لا تحدثنى عن سوريا أو العراق أو مصر أو الإيمان بالله أو الوطن، تخرج من حقيبتها زجاجة الجين، وتسألنى، عندك ثلج يا نوال؟ لا تنتظر منى الإجابة. تنهض وتفتح الثلاجة فى البيت أو العيادة. تضع قطع الثلج فى صحن صغير. تفتح زجاجة ماء التونيك. تخلط الجين بالتونيك مع الثلج وقطعة من الليمون على شكل الدائرة، تغمسها فى الكأس بطرف إصبعها ثم تمصه وتقول: يا ترى مين العبقرى ده اللى اكتشف الجين تونيك؟ تعرفى أنا باحسدك ليه يا نوال لأنك قدرتى تطلقى جوزك ولأن أمك وأبوكى ماتوا وبقيتى إنسانة حرة!

تطلق بطة ضحكتها المرحة المعدية مثل المرض، فأضحك مثلها بقوة لا إرادية، أود أن أشعر أننى إنسانة حرة، لكن القيود تلفنى كخيوط من الحرير، ذراعاى مشبوكتان حول صدرى، لا أستطيع أن أطلق هذه الضحكة العالية المرحة التى تطلقها وتكاد تخرق الحوائط الأربعة.

- يا بختك يا بطة بتقدرى تضحكى من كل قلبك.

تتوقف بطة عن الضحك فجأة. يسقط وجهها كأنما فى قاع مجهول. تكسو عينيها سحابة حزن كثيفة. ترشف الجين تونيك فى صمت، تمصمص شفتيها وتقول: أنا باضحك معاكى بس يا نوال، باحاول افضفض عن نفسى، وسرعان ما تنقشع السحابة، تلمع عيناها من جديد، يطل منهما بريق مشع متأجج بالرغبة المكبوتة، يشتعل رأسها بالخيال الجامح، تبدأ فى الإعتراف بشىء لا تنطق به وهى فى كامل الوعى، تعرفى يا نوال أنا نفسى فيه إيه دولوقتى؟ تصمت لحظة مترددة ثم تهمس، نفسى أخرج وأمشى فى الشارع وأصطاد أول راجل يقابلنى، راجل لا يعرفنى ولا أعرفه، متهيأ لى يا نوال إن هو ده الراجل اللى ممكن يقدر يحقق المعجزة، ممكن يحقق المستحيل، اللذة المستحيلة يا نوال!

كانت بطة تؤمن أن هناك تناقض بين الحب والجنس، لا يمكن أن تتحقق اللذة الجنسية إلا مع رجل فاسد لا يؤمن بالثالوث المقدس: "الله الوطن الحب". وكانت تقول أنها حين تحب الرجل لا تمارس معه الجنس حتى يحتفظ بصورتها الملائكية حتى الموت، ثم تطلق ضحكتها وأنطلق أضحك كأنما بالعدوى.

* * * *

كنت وحدى بالبيت، مات أبى ليلة الخميس 19 فبراير 1959. مضت سنة كاملة على موته وخمسين يوما. الليلة هى أول أبريل عام 1960، لم يكن بيتنا يخلو إلا نادرا، تلك اللحظات يتسع الأفق فجأة، وأكاد أرى الإله رع وراء السحابة البعيدة. يصمت الكون وأكاد أسمع دبة النملة، وحفيف أوراق الأشجار البعيدة، نسمة الليل تصبح رقيقة ناعمة كحرارة الجسم. ?ستشعر اللذة حين أفرد جسمى حتى النهاية، أمد عنقى حتى النهاية، يصبح رأسى عاليا قريبا من رأس الإله رع فى السماء. لم تكن هذه الحركة مباحة للنساء. والمفروض ألا يعلو رأس المرأة عن رأس أبيها أو زوجها فما بال من هو أعلى منهما فى الكون. كانت قامتى شامخة وعنقى طويلا، وكان لابد من علاج هذا العيب.

أصبحت أمشى بقامة منحنية قليلا، لا أستطيع أن أفرد جسدى حتى نهايته فى اليقظة أو فى النوم. الانحناءة تنمو كالصنم فوق ظهرى دون أن أدرى، كالعضو الغريب ينمو خلسة ويصبح جزءا من الجسم، كالخوف من عقاب الله يتسلل إلى العقل ويكمن فيه، كالمرض المزمن. كانت أسرتنا كبيرة العدد، يسميها أبى "الفاميليا" ينطق الكلمة بسخرية، ينفث الهواء مع الياء الأخيرة، والألف الممدودة يمدها مع زفير طويل، مملوء بالضجر والزهو الخفى، يشير إلينا بإصبعه الطويل ونحن متراصون حول المائدة:

"الفاميليا الكريمة تسعة من العيال وأمهم"

عرفت منذ الطفولة أن الفاميليا هى أسرة أبى فقط، أمى مثلنا نحن الأطفال واحدة من العيال، كلمة العيال ترن فى أذنى مهينة تنم عن الاحتقار، العيال هو من يعيشون عالة على غيرهم.

لم تكن أمى تواظب على الصلاة أو تلاوة القرآن. يسألها أبى كل يوم: ليه يا زينب مش بتصلى؟ تضحك أمى ضحكتها المرحة الساخرة وتقول، أنت بتصلى بالنيابة عنى يا سيد. يندهش أبى ويقول، بالنيابة عنك إزاى يا زينب؟ تواصل أمى السخرية، أنت بتنوب عنى فى كل حاجة حسب القانون والشرع، يبقى لازم تنوب عنى فى الصلاة كمان وإلا إيه؟

فى طفولتى لم أفهم كلام أمى، أدركت بالفطرة أنها لا تؤمن بالله، تزمجر أحيانا بغضب مكتوم وتخاطب السماء قائلة: يعنى كل حاجة من حق الرجالة دنيا وآخره واحنا مافيش حاجة؟! تتراجع بعد لحظة وتهمس: استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.

بعد موت ابى ادركت أن الفاميليا ماتت. ألم يكن عمودها وعميدها؟ ألا يسقط البناء بسقوط العمود؟ الفرح الخفى يهزنى وأنا أرى البناء يسقط. يبدو لى منذ الطفولة واهيا، مصنوعا من الوهم، أو مجرد الإسم. كانت أمى تضحك حين يشير أبى إلينا نحن التسعة ويقول بزهو: أولادى!

تضحك أمى وتسأله: من قال أنهم أولادك؟! يضحك أبى مدركا الفكاهة، ثم سرعان ما ينتابه سعال جاف ويصمت فجأة كأنما يسقط فى بئر عميق بغير قاع.

كان أبى يؤمن بالحياة الاخرى بعد الموت، يحكى لنا كيف يعاقب الله المذنبين، كيف تلقى أجسادهم فى النار لتحترق. نختفى نحن الاطفال تحت السرير من شدة الخوف. تقول أختى الصغرى أن الميت لا يمكن أن يحس شيئا. كان الموت فى نظرنا نحن الأطفال هو الموت. هو نهاية الألم ونهاية الإحساس. لم نصدق فى طفولتنا ما يقوله

الكبار. كانت أختى الصغرى تشاركنى اللعب تحت السرير، وتقول لى أن الأطفال يعرفون ما لا يعرفه الكبار، وأسألها ليه؟ تقول، لأن الكبار عقلهم صغير، وننفجر بالضحك المكتوم حتى لا يسمعنا أبى أو أمى الجالسين فى الصالة.

كان البيت خاليا تلك الليلة، دادة أم ابراهيم أخذت إبنتى الطفلة وأخواتى الأربعة الصغيرات فى رحلة إلى القرية. ربما كانت إجازة شم النسيم أو عيد الربيع، أو الاحتفال بعيد العمال أو أحد المشاريع الاشتراكية الجديدة. أصبحت أم ابراهيم تتغنى بالاشتراكية مثل وزير الصحة. بعد موت أمى أصبحت هى بديل الأم. تطبخ وتغسل الصحون وتدعك المرحاض. بعد موت أبى أصبحت أنا بديل الأب، أتولى الإنفاق على الفاميليا الكبيرة، ورثتها عنه ضمن أشياء أخرى منها أثاث البيت وإسمه الكريم ودينه الحنيف ونصف فدان من الأرض الزراعية فى كفر طحلة، إستولى عليها الحاج محمد إبن عمه.

أول كل شهر أناول أم ابراهيم مرتبها مثل الموظفين فى الدولة. أوراق البنكنوت تمسكها فى يدها لحظة قبل أن تدسها فى جيبها. عيناها يكسوهما البريق القديم، كشعاع من الضوء ينفذ من قاع عظام الرأس. ترتعش أطراف أصابعها قليلا كأنما تلامس سلكا كهربيا عاريا، تمسك الجنيهات تعدها واحدا وراء الآخر، صدرها يعلو ويهبط، أنفاسها تلهث قليلا كأنما تجرى وهى واقفة، ثم تطلق ضحكتها المرحة وتقول "أصل الفلوس يا ضكطورة راكبها عفريت اللهم إحفظنا يارب من شرهم!"

كان الليل هادئا وأنا راقدة فوق الكنبة فى الشرفة البحرية، أستمتع بالوحدة وغياب الأسرة عن البيت، لم تكن الاصوات تنقطع فى بيتنا الا فى منتصف الليل، حينئذ يسرى من خلال الجدران أصوات الجيران. كانت غرفة نومى ملاصقة لغرفة نوم جارتنا الست حمدية وزوجها السيد احمد عبد التواب، يسرى أنينها فى الليل وانا غارقة فى النوم، أو صوت أم كلثوم تغنى قرب الفجر، "هو صحيح الهوى غلاب ما عرفش انا"، أو صوت جمال عبد الناصر يخطب فى أحد المناسبات الوطنية، يضغط على مخارج الألفاظ بقوة، "الاشتراكية! أيها الإخوة والأخوات!، علينا جميعا أن نبنى المجتمع الاشتراكى الجديد!".

تلك الليلة أول الربيع كان الكون هادئا وأنا وحدى فى البيت بلا أسرة ولا صوت يسرى من عند الجيران، إلا شيئا خافتا يشبه حفيف الشجر من بعيد، ربما هو صوت أم كلثوم تغنى فى راديو الجيران بمناسبة عيد الربيع، أو صوت جمال عبد الناصر يخطب فى عيد العمال، حروف الكلمات لم تعد مسموعة والصوت لم يعد صوتا، بل شيئا مسحوقا يتسلل من وراء الجدار الحجرى كالرماد الناعم، كحفيف أوراق الأشجار فى الأفق البعيد، إلا كلمة واحدة

ظلت متماسكة الحروف، تقاوم الانسحاق داخل الجدار، تحملها نسمة الليل إلى أذنى وأنا راقدة فوق الكنبة فى الشرفة، ترن فى الجو بصوت أنثوى يشبه صوت سامية، زميلتى منذ المدرسة الثانوية، أصبحت الدكتورة سامية عضو اللجنة القيادية فى الاتحاد الاشتراكى، تقف فوق المنصة وراء الميكرفون وتنطق بصوت جمال عبد الناصر كلمة الإشتراكية! الإشتراكية أيها الإخوة والأخوات.

لم تكن سامية أقرب الزميلات إلىَّ فى عنبر الداخلية. كانت تكبرنى بعامين اثنين، بدت فى ذلك الوقت كأنما تكبرنى بقرن أو قرنين. تعرف قواميس لغات لا نعرفها، تفك طلاسم كلمات غامضة على عقولنا نحن التلميذات الصغيرات، ومنها كلمة الشيوعية والمادية الدياليكتيكية، وعلى رأسها إسم "ماركس"، وهو إسم يختلط فى آذاننا مع إسم "مركس" بصوت زميلتنا "بطة"، حين كانت تقلب حرف القاف الخشن إلى حرف الكاف الرقيق، تشبها بالطبقة الراقية والأجانب، ويصعد الدم إلى وجه صفية حين ترن فى الجو كلمة "مركس" أو "مرقس"، فهو الاسم الذى تعلقه داخل القلب الذهبى فوق صدرها، يحتقن خداها البيضاوان بلون الدم، ترمقنى بعين حمراء كأنما أنا أفشيت السر، وكانت هى تحكى قصة حبها للزميلات فى عنبر الداخلية، أو لأى زميلة تسهر معها بعد أن يدق جرس النوم، تقفان معا فى النافذة تطلان على القمر والنجوم فى غياب أبلة عزيزة ضابطة الداخلية.

لم تكن "بطة" معنا فى حلوان الثانوية، أصبحت زميلة لنا فى كلية الطب. كان الحديث بين الزميلات موصولا على الدوام، لا يفصل المدرسة عن الجامعة أو الطفولة عن المراهقة عن الشباب، لا يقطعه زواج أو طلاق أو موت الزوج أو أى حادث آخر يعترض حياة البنات والنساء. كأنما عطش الحب لا يرتوى ابدا حتى تبلغ المرأة مائة عام.

كنت منذ الطفولة أخفى عن أبى وأمى كثيرا من المحرمات التى تتردد فى عقولنا نحن الأطفال، أغلبها يتعلق بالحب أو الموت، ومنها فكرة أن الموت نهاية الألم، أى أن الجسد الميت لا يحس شيئا إن وضع فى النار. كانت هذه الفكرة واضحة لعقلى منذ الطفولة الأولى قبل أن أبلغ السابعة من العمر، لكنها بدأت تختفى كلما كبرت ودخلت المدرسة. كانت صفية أقرب الزميلات إلىَّ فى عنبر الداخلية. تكبرنى بعام واحد، وتبدو كأنما هى امرأة ناضجة، ثدياها ممتلئان باللحم مثل أمى، كأنما تزوجت وانجبت، أو خاضت تجارب فى عالم الحب لا نعرفها، حول عنقها سلسلة ذهبية يتدلى منها قلب مصنوع من الذهب، تفتحه بأطراف أصابعها الناعمة البضة كأصابع أمى، تلثمه بشفتيها وصدرها يعلو ويهبط مع أنفاسها، تلتقط خصلة شعر رفيعة ملفوفة داخل تجويف القلب، تقربها من أنفها تشمها، تأخذ شهيقا عميقا مع تنهيدة طويلة، ثم تفتح جفونها رموشها ترتعش، وتقول بصوت يتقطع مع أنفاسها، "باحبه يا نوال باموت فيه!" تكرر هذه العبارة الليلة وراء الليلة، كلما وقفت معها فى النافذة بعد أن يدق جرس النوم. حين يغلبنى

النعاس أتركها وحدها واقفة فى النافذة تناجى القمر. وفى الحلم أراها ممدودة فوق السيخ المحمى فى النار، يحرقها الله المرة وراء المرة. إن إثمها ليس واحدا بل اثنين. الإثم الأول هو الحب. كان الحب محرما على البنات إلا فى الأغانى والأفلام. الإثم الثانى هو "مرقس" حبيبها القبطى وهى مسلمة. كنت أهمس فى أذنها "الحب ده حرام ربنا حيحرقك فى النار يا صفية"، تهز كتفيها تمط شفتيها إلى الامام وتهمس "بعد ما أموت يا نوال مش حاحس بحاجة". يسرى صوتها فى هدوء الليل كحفيف الاشجار تتراءى من بعيد فى الظلمة كالأشباح أو أرواح الجان. يتسلل الحفيف إلى اذنى فى الليل مخيفا مثل فحيح الشيطان. يرتعد جسدى وانا واقفة فى النافذة إلى جوارها، تسرى القشعريرة من قمة رأسى إلى بطن القدمين، أحس البرودة تصعد من بلاط العنبر إلى منابت الشعر تحت الجلد، والشعيرات الدموية تنتصب فوق ذراعى العاريتين كرؤوس الإبر، أقرب شفتى المرتعشتين من أذنها وأهمس، "يعنى مش حانحس بالنار بعد ما نموت يا صفية؟" وتفلت من بين شفتيها ضحكة مكتومة وهى تخفى فمها بيدها الناعمة البضة "نار الحب يا نوال بس نحس بيها". أتركها وحدها واقفة فى النافذة وأختفى تحت الغطاء، كل شئ فى كيانى يرتج، والسرير من تحتى يرتج فى صرير مسموع يكاد يوقظ بنات العنبر، وأنتفض تحت الأغطية كالفرخة المذبوحة، إلا خلية واحدة فى رأسى تظل هادئة وقورة لا ترتج ولا تهتز. كأنما هى تعرف هذه الحقيقة منذ ولدت. أو كأنما هى الخلية الوحيدة فى عقلى التى عاشت منذ الطفولة.

لم تنقطع صداقتى بصفية حتى اليوم. أصبحت زوجة الداعية الاسلامى الكبير الدكتور مصطفى الزهيرى. تلف رأسها بحجاب أنيق يتمشى مع الأصالة ولا يتعارض مع الحداثة، يسمونه "البونيه"، كلمة فرنسية تنطقها بصوت قوى يشبه صوت زوجها، تضغط على أسنانها وهى تقول "البونيه" بلهجة رجولية تتناقض مع وجهها السمين البض يفيض أنوثة، وشفتاها الممتلئتان الناعمتان، ضغطت عليهما بإصبع الروج الأحمر قبل أن تخرج من البيت، وبعد أن ارتدت البونيه وأحكمته حول رأسها، لا يظهر من شعرها الأسود المصبوغ إلا خصلة نافرة رفيعة تتدلى فوق جبهتها العريضة من الأمام، أو فوق عنقها القصير السمين من الخلف.

فى النوم يتكرر الحلم القديم رغم مرور السنين، وأراها تشوى فى النار كخروف العيد، دون أن تشعر بالألم. تنطلق ضحكتها فى سكون الليل، وصوتها يسرى فى أذنى كالسيخ الحامى "نار الحب يا نوال بس نحس بيها". كنت أحكى لها الحلم وهى واقفة إلى جوارى فى النافذة، عيناها تشتعلان بالضوء فى الظلمة كأنما بنار خفية، تسرى حرارتها إلى رأسى وعنقى وأنا واقفة إلى جوارها، دون أن تلامسنى أو ألامسها، كأنما هى شعلة مختبئة فى الأعماق، لا أعرف من أين تتدفق هذه السخونة وتسرى من قمة رأسى إلى أسفل الكعبين، يصبح البلاط ساخنا تحت قدمى الحافيتين، والبنات غارقات فى النوم داخل العنبر، وأبلة عزيزة ضابطة الداخلية غائبة فى أجازة، ولا أحد

يطل علينا من السماء إلا القمر المكتمل بدرا، يتألق نوره فوق رمال الصحراء الممدودة تحت عيوننا حتى الأفق، بحر من الفضة السائلة تشع موجاته ومضات من الضوء الأبيض تبدو فى الظلمة كفصوص اللؤلؤ.

هذه الصورة محفورة فى عقلى رغم مرور خمسة وأربعين عاما، وقصيدة من الشعر كتبتها فى مفكرتى السرية قرب الفجر، بعد أن سهرت الليل واقفة عند النافذة مع صديقتى صفية، هى تحكى عن نار الحب وتحلم بالزواج من مرقس بعد أن يعتنق الإسلام، وأنا أحلم بأن أكون كاتبة أو شاعرة أو ممثلة فوق المسرح أو راقصة أو أى شئ آخر إلا الزواج.

كان الشفق الأحمر بلون الدماء يسبق ضوء الفجر إلى السماء، وكنت أشعر كأنما تورمت قدماى من طول الوقوف، ثمانية أو تسعة ساعات منذ دق جرس النوم ونحن واقفتان نطلان على القمر والنجوم، تركتنى صفية قبل الفجر بقليل ونامت، كان النوم قد هجرنى كأنما إلى الأبد، ولن يعرف جسدى التعب أو الألم، كأنما ينبوع ينفجر فى أعماقى باشياء لا أعرفها. أمسكت القلم وأنا واقفة، الورقة البيضاء فوق حافة النافذة، وبدأت أكتب. كان القلم يمشى وحده كأنما بقوة خارج جسدى وعقلى. خارج الزمان والمكان. كلمات من الشعر أو النثر تكتب نفسها بنفسها.

قرأتها على صفية فى الليلة التالية، وفى الليلة التى بعدها، والتى بعدها، تلمع الدموع فى عينيها وأنا اقرأها، أتوقف لحظة لابتلع دموعى، أطوى الورقة وأخفيها تحت مرتبة السرير، تشدها من تحت المرتبة وتقرأها، فى ليلة وهى تعيد قراءتها بدت الكلمات قديمة كأنما راحت شحنتها الأولى المتوهجة، أمسكت الورقة ومزقتها، وفى يوم كنت وحدى بالعنبر، خرجت كل البنات فى رحلة إلى الحديقة اليابانية، فتحت مفكرتى السرية وأعدت كتابة القصيدة، بقيت فى ذاكرتى حتى اليوم، أعطيتها عنوان: "لن أموت" أردد بعض أبياتها أحيانا حين يفيض بى الشجن أو الحنين. لا أعرف من أين ينبعث الشجن ولمن يكون الحنين. ربما هو الحب الغائب الحاضر. الطيف الذى لا يتجسد أبدا فى الواقع والحقيقة. ربما هو الوهم أو الحزن أو الخوف من الموت. أقول لنفسى حين تتأزم الأمور وأوشك على الهلاك "لن أموت، سأتحدى القضاء والقدر، ولا لن أموت"

فى خريف عام 1981 حين كان التشاؤم يسود المسجونات معى فى الزنزانة، ويحوم شبح الموت حول رؤوسنا، إذا بالقصيدة تهب منتصبة داخلى كالمارد، تقاوم اليأس تتحدى الموت، وأسمع صوتى الغاضب يقول: لن نموت، وإن متنا فلن نموت ساكتات، لن نمضى فى الظلمة دون ضجة، لابد أن نغضب ونغضب، نضرب الأرض ونرج السماء، لن نموت دون أن نكسر قضبان الحديد، وإن متنا لن نموت صامتات.

- مذكراتى فى سجن النساء 1981 –

* * * *

وفى مفكرتى السرية عام 1947، وأنا تلميذة فى المدرسة الداخلية فى حلوان الثانوية، ظلت هذه القصيدة مكتوبة بالحبر الأسود، محفورة فى ذاكرتى وفوق الورق:

قبل أن أغيب فى النوم كل ليلة، أقول لنفسى:

سيأتى الصبح حتما ولن أموت، وإن مت.

فلن يؤلمنى شئ بعد الموت.

لا السقوط فى الامتحان، ولا الضرب.

على أطراف الأصابع بالمسطرة.

ولا زمهرير البرد ولا لهيب الشمس ولا نار الجحيم.

لم أجد إلا صديقتى فى العنبر لأسألها، هل نموت.

وإن متنا هل يؤلمنا أن نموت؟ أين نحن

الآن فى عنبر الموتى، فى اللامكان واللازمان.

ولا وجود للحب إلا بعد أن نحترق فى الحريق.

ونصير كالرماد، كرمال الصحراء فى حلوان.

كأننا يا صديقتى متنا قبل الأوان.

رأيت المشهد فى الحلم، وعرفت أننا نمضى.

إلى حيث لا ندرى، فهل أكون فى الغد ما أريد أن اكون؟

شاعرة أو ناثرة أو حتى آثمة؟

هل أرى إسمى فوق كتاب ممنوع؟ وأشق السماء

بقلمى، وأجعل المطر رهن مشيئتى؟

والنهار والشعر والنثر

ينثال من خطيئتى، فليحرقنى الله فى نار جهنم

ولتشرب الأرض دمائى لكنى أبدا لن أموت.

- حلوان الثانوية 1947 -

الباحثة عن الحب

صيف عام 1963 بدأت كتابة رواية أعطيتها عنوان الباحثة عن الحب، فى أعماقى حنين غامض لشئ أكثر غموضا. لا أعرف بالضبط عما أبحث. بلغت الثانية والثلاثين من العمر. أصبحت طبيبة ناجحة وأديبة معروفة. فى حياتى كثيرمن الأصدقاء والصديقات. نساء ورجال أتبادل معهم الحديث على شاطئ النيل. نتحاور فى الطب والأدب والفلسفة، مع قضمات من الحمام المشوى ورشفات النبيذ عمر الخيام، نطل على مدينة القاهرة من فوق ربوة الأهرامات، نتسكع فى المدينة بعد أن ينام الكون، أعشق الشوارع الخالية من السيارات والبشر، يصفو عقلى وأتطلع إلى النجوم، يعود إلىَّ السؤال الطفولى، كنت أسأله لأبى وأنا فى السابعة من العمر، مين خلق النجوم دى كلها؟ ربنا يا ابنتى، ومين خلق ربنا يا بابا؟ ربنا خلق نفسه بنفسه يا ابنتى، لم يكن عقلى الطفولى يقبل هذه الفكرة، أن يخلق أحد نفسه بنفسه.

فى العشرين من عمرى نسيت الأسئلة الطفولية كلها، انشغلت بالدراسة فى كلية الطب والنجاح فى الامتحانات آخر العام، قبل الامتحان بأيام قليلة أواظب على الصلاة، لم أكن أرى أمى تصلى إلا وقت الأزمات، أسمع الشيخ فى الراديو يقول النساء ناقصات عقل ودين، بدأت أتشبه بأبى، أواظب على الصلاة فى غير أوقات الامتحان، بلغ بى الإيمان ذروته عام 1952، حين بلغت الواحد والعشرين من العمر، أصبحت فى الأوراق الرسمية مواطنة بلغت سن الرشد، أحظى بحقوق الإنسان فيما عدا الحقوق التى منحها الله للرجال دون النساء، كان الدستور المصرى ينص على المساواة بين الناس أمام القانون، لكن شريعة الله تنص على أن الرجال أعلى درجة من النساء، كان التناقض واضحا بين الدستور والشريعة، لم أكن أرى هذا التناقض وأنا فى الواحد والعشرين من عمرى، الإيمان المطلق الاعمى يجعلنى كأنما عمياء لا أرى التناقضات الواضحة للعيان.

كنت أمشى فى طريقى من البيت إلى الكلية فى خط مستقيم، لا أحرك رأسى هنا أو هناك، وأعود من الكلية إلى البيت مباشرة دون أن أتطلع إلى هذا أو ذاك، كل يوم أروح وأجئ فى الطريق ذاته، كالبقرة العمياء معصوبة العينين تدور فى الساقية، وفجأة إلتقيت بأحمد حلمى، كنت أمشى فى فناء الكلية حين إستوقفنى ونادانى بإسمى، نوال، توقفت عند سماع إسمى بهذا الصوت، كأنما لم ينادينى أحد بإسمى من قبل، أو كأنما كلمة نوال لم تكن إسمى، أصبحت إسم امرأة أخرى جديدة ولدت لتوها فى هذه اللحظة.

ربما هما العينان وليس الصوت. عيناه وهو واقف أمامى فى الفناء، عيناه فقط رأيتهما، ربما لم تكن هما العينان، بل شئ آخر لم أره تماما، لأننى لم أملك القدرة على النظر إليه، فقدت شجاعتى قبل أن ترتفع عيناى إليه.

أتوقف عند هذه اللحظة بعد مرور خمسين عاما، أتذكرها أستعيدها تعود إلىَّ كما حدثت، تعود معها التفاصيل الصغيرة الدقيقة، تصورت أنها ضاعت من الذاكرة خلال نصف قرن، تفاجئنى أنها تعيش فى الحاضر كما عاشت فى الماضى، لحظة لم تتكرر فى حياتى منذ خمسين عاما. أتكون هى لحظة الحب الكبير أو الوهم الأكبر؟

كان أحمد واقفا فى الفناء، بالضبط عند الباب الصغير بين فناء الكلية والمدخل إلى مستشفى قصر العينى القديم، كان يرتدى قميصا أبيض فى يده مجلة يناولها إلىَّ ويقول: ده العدد الجديد من مجلة شعلة التحرير يا نوال، ينطق حروف إسمى كأنما يعرفها، كأنما يألفها، رغم أنها المرة الأولى أقابله وجها لوجه، أخذت المجلة وانشغلت بفتح حقيبتى وإدخال المجلة فيها بين كتب الطب وكشاكيل المحاضرات والمشرط وأدوات التشريح، حقيبتى كانت ثقيلة ممتلئة وكان علىَّ أن افتحها وأضع المجلة فيها، حركة أنقذتنى من النظر إلى عينيه، تظاهرت أننى منهمكة فى فتح الحقيبة، وإفساح مكان للمجلة بين الكتب والكشاكيل، بدت الحقيبة مكدسة بأشياء قديمة مهترئة لا قيمة لها إلى جوار المجلة الجديدة، يبرق إسمها فوق الغلاف بخط أحمر، يلمع تحت شعاع الشمس: "شعلة التحرير".

- يا ريت يا نوال تقرى قصة العدد وتقوليلى رأيك.

كنت فى طريقى إلى مدرج على باشا ابراهيم، أسرع الخطى قبل أن اتأخر عن موعد المحاضرة، كان الأستاذ هو "أنريب"، يدرس لنا علم الفسيولوجى، يلقى المحاضرة بلغة انجليزية تشوبها لكنة روسية، جاء من روسيا إلى مصر ليصبح أستاذا فى كلية الطب فى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، قصير سمين مربع الجسم داخل معطف أبيض، له وجه مربع عريض يشبه الدب الأبيض، لحيته كثيفة تشبه لحية تشيكوف ودوستيوفسكى. كان يحكى لنا عن العالم الروسى "بافلوف" الذى اكتشف نظرية الارتباط الشرطى، أحدثت طفرة فى علم الفسيولوجى، وفى نظرية المعرفة. خيالى الأدبى كان يسرح مع الدكتور "أنريب" وهو يحكى لنا قصة الكلب والجرس. إنها التجربة التى أجراها بافلوف فى المعمل. كان يضع الطعام أمام الكلب كل يوم فى ساعة معينة. يقبل الكلب على الطعام بشهية. كل يوم فى الموعد نفسه يجد الكلب الطعام فى المكان نفسه، يأكل بشهية ويلحس الصحن. أصبح بافلوف يدق جرسا عدة دقات تصاحب اللحظة التى يأكل فيها الكلب الطعام. بدأ الكلب يسمع دقات الجرس مع قضمات أسنانه على الطعام. تكرر الحدث كل يوم، عدة أيام. ثم بدأ بافلوف يدق الجرس دون أن يقدم الطعام للكلب. أصبح لعاب الكلب يسيل لمجرد سماع صوت الجرس، وأصبحت معدة الكلب تفرز الإنزيم الخاص بالهضم كأنما هى تستقبل الطعام. لقد ارتبط صوت الجرس فى خيال الكلب وعقله برائحة الأكل ومذاقه فى فمه ومعدته. توصل بافلوف إلى الارتباط الشرطى بين المادى والخيالى فى عملية التعليم والتدريب فى حياة الكلاب، وحياة البشر على

حد سواء. كانت العلاقة بين المادة والروح تشغلنى أحيانا، أدرك أن الجسد لا ينفصل عن العقل، وأن الخيال جزء من الحقيقة.

كنت أستغرق بعقلى وجسدى فيما يقوله الدكتور أنريب، لم يكن يتلو علينا المحاضرة مثل الأساتذة الآخرين، كان يحكى لنا الحكايات، نفهم علم الفسيولوجى ونظرية المعرفة الجديدة عن طريق القصص والربط بين الخيال والواقع، الربط بين الماديات والروحانيات.

يتخلخل الايمان الأعمى بانفصال الروح عن الجسد، تدور فى رأسى الأسئلة الطفولية القديمة، عيناى ترتفعان إلى السماء فى رهبة، كلمة الله ترمز إلى الروح بدون جسد، عقلى الطفولى كان عاجزا عن الإيمان بوجود الروح دون جسد، بلغت سن الرشد، ونسيت البديهيات، سرت نحو النضوج والإيمان الأعمى بالأرواح المنفصلة عن الأجساد، بدأت أرى فى الليل أشباح الجن، أومن بوجودها وبكل ما ورد فى القرآن.

فى غرفة الطالبات فتحت حقيبتى، الغلاف الجديد والعنوان بالخط الأحمر، شعلة التحرير، لمحت الصديقات البريق فى عينى، رمقتنى بطة بعين مجربة وهمست، حب جديد يا نوال؟ لم يكن للطالبات حديث فى أوقات الفراغ إلا عن الحب، كثيرة هى قصص الحب بين الطلبة والطالبات، يدس الطالب رسالة حب فى كشكول الطالبة، تقرأها علينا فى غرفة الطالبات، تتورد خدود البنات وهن جالسات تحت شجرة الكافور الضخمة، يحفرون بمشرط التشريح فوق جذع الشجرة حروف الإسم داخل القلب، يرسمن القلب بدقة كما هو مرسوم فى الكتاب، وكما يظهر فى صدر الجثة فوق منضدة التشريح.

كنت واحدة من هؤلاء البنات المراهقات فى كلية الطب، أومن بالحب الروحى المنفصل عن الجسد، كما أومن بالله، الروح العليا فى السماء، المنفصلة عن الجسد الأدنى فوق الارض، وكنت أجد رسالة الحب داخل الكشكول، كل يوم يدس أحد الطلبة الرسالة، كان الطلبة كثيرون عددهم بالمئات، والطالبات عددهن قليل يعد على أصابع اليد الواحدة، أو اليدين الإثنتين، كان نصيبى من رسائل الحب أكثر من زميلاتى، لم يكن للزميلات نشاط فى الندوات الأدبية بالكلية، أو الاجتماعات السياسية أو المظاهرات الوطنية، ربما كنت الطالبة الوحيدة فى ذلك الوقت التى تكتب القصص القصيرة والمقالات، وكان رؤساء تحرير المجلات من الطلبة الكبار يأتون إلىَّ وأنا جالسة بين زميلاتى فى المشرحة، تحمر وجوه البنات حين يأتى إلينا طلبة غرباء ليسوا زملاء لنا فى المشرحة. كان الطلبة الغرباء أكبر سنا وأكثر جرأة فى التطلع إلى البنات، يرفعون رؤوسهم فى كبرياء كأنهم زعماء، يتنافسون على الخطب فى المظاهرات، ينقسمون إلى فرق متناحرة بعدد الأحزاب فى مصر قبل سقوط الملك، الإخوان المسلمون

يرفعون شعار السيف والقرآن، الشيوعيون شعارهم المطرقة والمنجل، الوفديون يحملون صورة النحاس باشا، الحزب الوطنى يردد كلمات مصطفى باشا كامل، أحزاب الأقلية لكل منهم شعاره، الحكومة والسراى والإنجليز لكل منهم حزب داخل البلاد، المستقلون لهم أحزابهم، بعضهم يتبع عزيز المصرى، بعضهم يؤمن بالألمان والنازية، بعضهم يؤمن بالحلفاء والديموقراطية، كلهم توابع للقوى المتصارعة فى الساحة السياسية. بدا أحمد حلمى كأنما هو المستقل الوحيد، مجلة شعلة التحرير يصدرها مع مجموعة من زملائه، يدفعون نفقاتها من جيوبهم، كان هو رئيس التحرير، قرأت عددين أو ثلاثة، نشرت فيها بعض القصص القصيرة بأقلام طلبة الطب ذوى الميول الأدبية، قرأت قصة أحمد حلمى بعنوان كلب وغلام، لا أنسى القصة رغم مرور نصف قرن من الزمان، صورة الكلب الصغير الأعرج يأكل من صفيحة قمامة إلى جواره طفل أعرج، كان أحمد حلمى ينظم الندوات الأدبية، يربط بين الفقر والمرض، بين الطب والأدب، لم يكن يوسف إدريس يكتب القصة بعد، كان يكتب المقالات السياسية ويرأس مجلة أخرى إسمها "الجميع".

فى إحدى الندوات الأدبية قال يوسف لأحمد، قرأت قصتك كلب وغلام، إزاى كتبتها يا أخى؟ شئ عجيب فعلا، تصور يا أحمد وأنا نايم فى عز النوم أشوف الكلب الأعرج بياكل من الزبالة مع الطفل الأعرج، يا أخى القصة دى أحسن من ميت مقال سياسى!

لم يكتب أحمد حلمى شيئا بعد هذه القصة. سافر إلى القنال وعاد محطما. خانه الأصدقاء قبل الأعداء. تزوجنا ضد إرادة أبى. كان أبى يؤمن بالعمل الفدائى والموت من أجل الوطن. ملأ خيالى وعقلى منذ الطفولة بأناشيد الفداء، بلادى بلادى أفديكى بروحى ودمى، عاش أبى المنفى فى منوف عشر سنوات، كف فيها عن النشيد، أصبح ينوء بالحمل الثقيل، عائلة من تسعة عيال وأمهم، أصبح رهين المحبسين الوظيفة الحكومية والأسرة الأبوية.

كان أبى يؤمن بالله والوطن، لكن أحمد حلمى كان يؤمن بالوطن فقط. فى أول حديث لنا عن الدين سألنى أتؤمنين بالله يا نوال؟ قلت طبعا، مرت لحظة صمت طويلة. كنا نجلس فى حديقة الشاى، مكان هادئ يطل على بحيرة صغيرة يعوم فيها البط داخل حديقة الحيوان بالجيزة، كنت أرتدى بلوزة وردية جديدة، أرى وجهى منعكسا فوق مياه البحيرة، عيناى يكسوهما بريق، الدقات تحت ضلوعى محسوسة، أنفاسى تتعاقب بسرعة لم أتعودها، أحاول أن أتظاهر بالهدوء وأنشغل بمراقبة البط يفرد أجنحته فى الماء، يتطاير فوق ريشه الرذاذ مثل ذرات من اللؤلؤ تلمع تحت أشعة الشمس.

- وأنت يا أحمد هل تؤمن بالله؟

- لأ يا نوال.

الصدمة الأولى فى الحب، تجمدت الدقات تحت ضلوعى، توقفت الأنفاس وقدرتى على النطق. لم أعد أرى البحيرة ولا البط، غامت عيناى ومرت سحابة حجبت الشمس، تصورت أن الله سمع كلمة لأ وأراد أن يدمر الأرض والشمس وكل ما فى الكون.

فتحت عينى ورأيت أحمد جالسا أمامى، كأنه كائن ميت لا أقوى على النظر إليه.

- آسف يا نوال إذا كنت صدمتك، أنا دائم التفكير فى فكرة نشوء الكون، أنا غير مقتنع بنظرية الخلق فى الكتب السماوية، أنا شرحت جسم الإنسان فى المشرحة، وقريت كتاب داروين أصل الأنواع، الكتاب ده كان بمثابة المسمار فى عرش الامبراطورية البريطانية، لأنه هدم أهم أركانها وهو الكتاب المقدس، أو أهم ما فى الكتاب المقدس وهى نظرية الخلق ونشوء الكون.

صمت أحمد قليلا، أحسست الجفاف فى حلقى، شئ يؤلمنى تحت الضلوع، أنفاسى عادت بطيئة ودقات القلب لم تعد هناك، أحس الدم يمشى فى صدرى بطيئا بارد الملمس، كأنما جرح فى صدرى مفتوح منذ الطفولة، جرح لم يلتئم منذ ولدت ولم أسمع الزغاريد، لم أشهد فى العيون إلا الحزن والصمت، أصابع غليظة سمراء كالمسامير الصدئة تحاول خنقى تحت الماء، وأنا أرفس بقدمى وذراعى وأطفو، صوت يخرق أذنى مثل السيخ المحمى فى النار، بنت وليست ولدا! العوض على الله! كلمة الله تنفذ إلى أذنى مثل المسمار الحديدى الذائب فى النار، الله يفضل الرجال عن النساء، الله صاحب الجلالة مذكر وليس مؤنث، فى القرآن الله لا يلد ولا يولد، وفى التوراة الكتاب الأول المقدس الله لا يلد البنات، أبناء الله تزوجوا بنات الناس وأنجبوا البشرية.

- قريتى أصل الانواع يا نوال؟

- لأ.

- لازم تقريه يا نوال، وكمان كتاب كارل ماركس، رأس المال، فى سنة 1882، السنة نفسها اللى احتلت فيها مصر مات داروين، عملو له مقبرة عظيمة فى وست مينيستر أبى، كان كارل ماركس فى لندن من سنة 1849، مات فى لندن بعد داروين بسنة واحدة، قبل ما يموت أهدى كتابه رأس المال لداروين، لكن داروين كان مؤمن بالمسيح والامبراطورية البريطانية، عشان كده رفض هدية كارل ماركس، رفض يستلم كتاب رأس المال، كان خايف من الكنيسة والحكومة فى لندن، قريتى رأس المال يا نوال؟

- لأ.

- ده كتاب مهم يا نوال، أنا مش ماركسى ولا شيوعى لكن الكتاب ده مهم لازم تقريه.

دار هذا الحوار بينى وبين أحمد قبل زواجنا وقبل سفره إلى الحرب مع الفدائيين. عدت إلى البيت سيرا من حديقة الحيوان إلى بيت أبى فى أول شارع الهرم. قدماى تسيران وحدهما فى الطريق وعقلى شارد، كادت سيارة تصدمنى وأنا أجتاز الشارع لأهبط تحت نفق القطار، كأنما أسير فى نفق مظلم لا أعرف الحقيقة من الخيال، بدا كل شئ من حولى يتخبط فى الوهم، الحب والإيمان بالله، والكتاب المقدس ونظرية الخلق ونشوء الكون، أتطلع إلى السماء كأنما أتوقع أحدا يرد، أتطلع إلى أبى فى البيت أود أن أسأله لكن صوتى لا يخرج، لم تعد كلمة الله تخرج من فمى عادية، أصبحت مشحونة بالكهرباء أو الديناميت، أخشى لو نطقت بها أن ينفجر المكبوت فى أعماقى منذ الطفولة. أن ينكشف السبب الحقيقى وراء إيمانى، وهو الخوف من أبى أو الخوف من الله ونار جهنم الحمراء بعد الموت.

بعد أن سافر أحمد إلى الحرب فى القنال بدا الكون خاويا بلا معنى، بلا إله ولا شيطان ولا أى شئ، كلية الطب بدت بلا معنى وبلا هدف، الطلبة يهرولون إلى المشرحة والمستشفى كالأشباح فى عالم من الوهم، الأرواح الخفية والجان وكل ما ورد فى القرآن، أرى أبى راكعا يصلى فأشفق عليه من الوهم، أكاد أقول له لا توجد جنة بعد الموت ولا جدوى من الركوع والصلاة، أضع يدى فوق فمى أحبس الكلمات فى حلقى.

حزمت حقيبتى وقررت السفر إلى القنال. تطوعت مع بعض الممرضات فى المستشفى للسفر إلى الجبهة. تدربت على الإسعافات الأولية، كانت لى صديقة بين الممرضات إسمها وديدة، خطيبها سافر مع الفدائيين إلى القنال، أرادت أن تراه ثم تعود، أنا أيضا أردت أن أرى أحمد ثم أعود، لم يكن الطريق إلى الاسماعيلية طويلا، ساعتين بالسيارة، ويمكن أن أعود بالسيارة فى اليوم نفسه، أو فى اليوم التالى.

ركبت مع وديدة السيارة اللورى، جلسنا إلى جوار السائق، خلفنا جلس أحد الممرضين وسط زجاجات الدم والبلازما. أفقت على صوت السائق يقول: فاضل كيلو واحد على الاسماعيلية. قلبى يخفق تحت الضلوع، لم يعد إلا كيلو واحد والتقى بأحمد، أحوط صدرى بذراعى أكتم الخفقات عن السائق بجوارى، أخشى أن يكتشف السبب الحقيقى وراء سفرى إلى الاسماعيلية. لقد أعلنت له أننى متطوعة مع الممرضات من أجل الوطن.

خرجنا من القاهرة فى الليل، وديدة ركنت رأسها فوق حافة النافذة، شردت عيناها فى السماء، صوتها المبحوح يدندن بأغنية أم كلثوم "هو صحيح الهوى غلاب ماعرفش انا" يذكرنى صوتها بزميلتى فاطمة فى مدرسة حلوان الداخلية، فتحت حقيبتى وأخرجت الساندويتش، رغيف فينو طويل داخله جبن رومى وبيضة مسلوقة بالملح والفلفل. قسمت الرغيف ثلاثة أقسام ناولت السائق جزءا، وديدة جزءا، وأخذت الجزء الأخير.

كنت جائعة، رائحة الخبز والجبن والفلفل تصيبنى بانتعاش مفاجئ، أعود طفلة تأكل بشهية، اتذكر أمى حين كانت تجهز الساوندويتش لآخذه إلى المدرسة وأنا طفلة فى السابعة من العمر.

رائحة الخبز والجبن والفلفل أعادت إلى خيالى صورة أمى فى طفولتى. مثل صوت الجرس فى تجربة بافلوف، يستحضر فى خيال الكلب صورة الطعام. هناك تشابه بين خيال الكلب وخيال الإنسان؟ تعود إلى ذاكرتى قصة "كلب وغلام"، كان لأحمد أسلوب مميز فى الكتابة، كلماته فوق السطر تتتابع بهدوء يشبه خطوته فوق الارض، يشبه صوته حين يتكلم. الإيجاز فى التعبير يبدو كالإعجاز، والتصوير الدقيق إلى حد التجسيد. يتراءى لى جسم الغلام الصغير النحيف، وجسم الكلب يشبه الغلام صغيرا ونحيفا، يأكلان معا من صفيحة القمامة، عيونهما غائرة داخل عظام الجمجمة، المقلتان السوداوتان بارزتان فوق البياض مشتعلتان بنار الجوع، كل منهما ينظر إلى الآخر فى ألفة وصداقة، يتيمان وحيدان فى مدينة القاهرة الراقدة تحت شبورة رمادية، وسماء ملبدة بالآلهة غير مبالية.

همست وديدة فى أذنى والعربة اللورى تدخل إلى مشارف الاسماعيلية، لازم أعرفك باليوزباشى رجب ناويين نتجوز على طول أول ما يرجع من الحرب، وحشنى موت يا نوال، حتبقى مفاجأة لما يشوفنى، ما يعرفش إنى تطوعت فى كتيبة التمريض عشان أشوفه.

ثم أطبقت شفتيها فى صمت، كأنما تخون الوطن، تفكر فى الحب وقت الحرب، وتنتمى إلى عالم النسوة العاطلات الخاملات، لا شئ يشغلهن إلا الرجل.

سمعنا دوى الانفجارات من بعيد، أسرع السائق فوق الطريق المحاذى للسكة الحديد، لم أكن أعرف إلى أين نتجه، الظلمة كثيفة، الشفق الاحمر تراءى من بعيد، دوى الانفجارات يشتد، السائق يدوس على البنزين، صوته يعلو على صوت الموتور، لازم نوصل المعسكر قبل الفجر ما يطلع، كانما هو فى سباق مع حركة الشمس حول الأرض أو الأصح حركة الأرض حول الشمس كما قال كوبيرنيكس، كوكب الشمس مركز الكون وليس الأرض، مسمار كبير فى نعش الكنيسة عام 1543، قبل مسمار داروين بثلاثة قرون ونصف، وكم من مسامير أخرى تعاقبت حتى

اليوم، وأصبحت الشمس مجرد كوكب ضمن ربعمائة بليون كوكب آخر فى المجموعة الشمسية، تبعد عن كوكب الأرض أربعة سنوات ضوئية، أى بلايين البلايين من الكيلومترات، المسافة بين الشمس والأرض أكثر من مائة وخمسين مليون كيلومترا، تجتازها أشعة الشمس فى ثمانية دقائق ضوئية، أى بسرعة نصف مليون كيلومترا فى الثانية الواحدة.

المدافع تدوى فى أذنى، السيارة اللورى تتخبط فوق مطبات الطريق، الموتور يعلو فوق صوت السائق، زجاجات الدم والبلازما تتخبط وراءنا، التمورجى القابع فى قاع السيارة يشير إلى السماء فى فزع، فيه غارة جوية وفوق راسنا طيارة!

كان ذلك فى نهاية عام 1951، كنت فى العشرين من العمر، لا أعرف معنى الحرب، كنت أسمع عن المدافع والرشاشات، لم أعرف فى حياتى حتى ذلك الوقت إلا رشاشة الفلت، أمسك مقبضها بيدى وأحركه كالمنفاخ يتطاير رذاذ الفلت ويقتل الذباب، منذ سافر أحمد إلى القنال وأنا أرى حلما يتكرر فى النوم، أمسك رشاشة الفلت وأحرك مقبضها، يتساقط الجنود الإنجليز إلى الأرض كالذباب الميت، فى طفولتى كان يطربنى سماع صفارة الإنذار تعلن عن الغارة الجوية، ينطلق الناس خارج بيوتهم إلى المخابئ تحت الأرض، تخرج النساء بقمصان النوم والرجال بلا أحذية ولا بدل ولا كرافتة، فى المخبأ تذوب الفوارق بين الأغنياء والفقراء، يختلط النساء بالرجال والبنات بالأولاد، نلعب نحن الأطفال معا فى الظلمة بقطع الطوب الصغيرة، نرسم فوق التراب المربعات ونلعب السيجة، حين تنطلق صفارة الأمان نشعر بالحزن، تعود كل عائلة مع أطفالها وراء جدران بيتها، تعود التقاليد تفصل البنات عن الأولاد، تبقى البنات داخل المطبخ ويخرج الأولاد يلعبون فى الشارع كانت جدتى تقول أن الله هو فرق بين البنات والأولاد، وهو الذى خلق العائلات وخلق البيوت والجدران.

لم أكن أرى الكشافات فى القرية، كنت أراها فى بيت جدى فى القاهرة، حين تدوى صفارة الإنذار أجرى إلى الفرندة الواسعة المطلة على السماء، تتعلق عيناى بكشافات الضوء، تروح وتجئ فى الكون اللانهائى، أذرعها بيضاء طويلة تمسح الظلمة من السماء، كأنما هى أذرع الله تكشف طائرات الأعداء، وترن أصوات المدافع فى أذنى من بعيد مثل صواريخ العيد.

توقفت العربة اللورى عند المعسكر، خيام سوداء متفرقة تتخفى تحت الشجر، عربات جيب مصفحة مركونة على جانب الطريق. عربات كارو تجرها الخيول أو الحمير، أوعية للأكل وماء داخل قرب من جلد الماعز. شباب

يرتدون بدل حرب العصابات. بدو الصحراء يجرون جمالهم من فوقها الأسلحة مختفية تحت عباءات من صوف الإبل.

بدأ الشباب ينقلون زجاجات الدم والبلازما، رأيت رئيس المعسكر واقفا أمام باب الخيمة، يتأمل الشباب ينصبون خيامهم، يحفرون خنادق تحت الارض، الجو مشبع بالرمال والتراب، سألت أحد الشباب عن أحمد حلمى، لا أحد يعرف أحدا باسمه الحقيقى، الجميع يحملون أسماء تنكرية.

من بعيد وسط الضباب على شط القنال كتلة ضخمة من السواد. تنتصب فى الظلمة مثل قلعة ضخمة تحرس قناة السويس، يقولون عنها معسكرات الإنجليز. قناة السويس ترتبط فى خيالى الطفولى بالخديوى عباس، وديليسبس، والفلاحين يحفرون القناة من أجل الله والوطن، كالعبيد بنوا الهرم الأكبر من أجل فرعون والوطن، الكرابيج كالسياط تلسع أجسادهم، يسقطون من الإعياء ويموتون، يتطوع أبناؤهم الفقراء فداء الوطن، يتلقون الرصاص فى صدورهم، يستشهدون فى ساحة القتال وهم يهتفون الملك الله الوطن!

سمعت الشباب يهتفون، كل فرقة تهتف بشعار مختلف، الإخوان المسلمون يرددون لا إله إلا الله محمد رسول الله، الشيوعيون يهتفون الكفاح المسلح الكفاح المسلح يحيا الشعب، شباب الوفد يهتفون النحاس النحاس، تختلط أصوات الشباب وتذوب فى الصمت، يتعالى الغبار مع ضربات المعاول فى الأرض، على الضفة الأخرى للقناة أرى تلال سيناء، رمالها تشوبها حمرة تحت أشعة الشمس كأنما هى غارقة فى الدم، منذ التاريخ كانت سيناء هى البوابة الشمالية يدخل منها الغزاة، يركبون الخيول والحمير والدبابات أو الطائرات، فوق الخريطة تبدو مثلثة الشكل، شبه جزيرة سيناء، تلال من الرمال دفنت تحتها أجساد الشباب الفقراء، لم يكن أبناء الأثرياء يذهبون إلى الحرب، يدفع الأب الفدية، مبلغ من المال يشترى به حياة إبنه، يموت الشاب الفقير فى سبيل الله والوطن.

فى الليل داخل الخيمة همست وديدة فى أذنى، ما حدش عارف حد هنا، مش عارفة أنام يا نوال، خايفة موت نرجع من غير ما أشوفه، ثم أغمضت عينيها وراحت فى النوم، ملامحها وهى نائمة تشبه الطفلة، شعرها أسود غزير يغطى وجهها، ترتدى قميص نوم من الكستور الأبيض فيه زهور صغيرة حمراء، فتحت عينيها ورأتنى شاخصة إلى سقف الخيمة، همست فى أذنى، صاحية ليه يا نوال، اللى واخد عقلك يتهنا بيه! لازم أرجع بكره يا وديدة، بابا ما يعرفش إنى هنا، قلت لهم فى البيت إنى فى مستشفى القصر العينى وعندى نوبتشية، لازم أرجع بكرة يا وديدة.

كانت المرة الأولى أكذب على أبى وأمى وأبيت خارج البيت. رتبت مع السائق أن أعود معه فى العربة اللورى فى الصباح. فقدت الأمل فى العثور على أحمد، كل شىء هنا يبدو غريبا، مثل الحلم المفزع، رأيت الممرضات يغسلن الجروح من الدم والصديد، فى إحدى الخيام رقد شباب ينزفون الدم، فوق رؤوسهم زجاجات الدم والبلازما، والخراطيم السوداء الرفيعة يجرى فيها الدم من الزجاجة إلى الأذرع الممدودة فوق الارض. أحد الشباب لفظ النفس الاخير، دفنوه فى الأرض فى مقبرة بجوار الخيمة.

لم يعرف أحد كم من الفدائيين ماتوا فى هذه الحرب عام 1951، لكن الأرقام نشرت بعد ثلاثين عاما، فى عام 1981، وأنا داخل الزنزانة فى سجن النساء بالقناطر الخيرية، جاءت ذوبة، من عنبر المومسات تحمل أرغفة الخبز لنا، لفت الأرغفة الثلاثة الخاصة بى داخل ورقة من أوراق الصحف، وهمست، بالهناء والشفاء يا دكتورة نوال، كانت ذوبة تهرب لنا بعض أوراق الصحف، الصحيفة تحمل تاريخ 27 اكتوبر 1981، أتذكره لأنه تاريخ ميلادى، لم تكن إلا صفحة واحدة داخلية، فيها بعض الأخبار وخبر صغير فى أسفل الصفحة يقول: فى حرب 1951 قتل من الفدائيين ما يزيد عن مائتى فدائى، كشفت الحقائق بعد ثلاثين عاما عن أن هذه الحرب ضد الاحتلال البريطانى هى التى مهدت لثورة يوليو عام 1952 إلا أن أسماء هؤلاء الشهداء ضاعت فى التاريخ بعضهم حفر إسمه على عمود من الحجر بالقرب من شط القنال، سقط الحجر مع الزمن واندثر الإسم فى العدم.

كنت أرمق هؤلاء الفدائيين بعين ملؤها الحسد، وهم يسيرون برؤوس مرفوعة، سلاحهم فوق كتفهم، عيونهم تلمع بالكبرياء، إن سقطت قنبلة فوق الخيمة يموتون واقفين فى كبرياء، وأنا أموت فى فراشى راقدة مع النساء الممرضات. لم يكن للمرأة أن تنال شرف الموت وهى تقاتل، كانت تموت وهى راقدة فى فراشها، أو وهى تحمل براز الفدائيين فى الجردل، أو تغسل جروحهم من الدم والصديد.

من بعيد كنت أرمق معسكرات الإنجليز، ينتابنى القلق أو الخوف من المجهول. هل أعيش حتى أرى هذه المعسكرات حطاما؟ إنها تبدو مثل القلعة المحصنة، مثل الأبراج العالية تسكنها كائنات غير بشرية، مفترسة ومخيفة، يتراقص من فوقها العلم البريطانى، مثل طائر خرافى من الطيور الجارحة، خطوطه حمراء بلون الدم تتقاطع مع خطوط سوداء بلون الموت.

بعد أربعة عشر عاما جئت إلى الاسماعيلية بعد حرب 1967، تغير شكل العلم فوق معسكرات الأعداء، أصبح يحمل نجمة داوود، يرفرف فى الظلمة والعربة اللورى تشق الطريق ما بين الاسماعيلية وبور سعيد.

تحت ظلمة الليل كانت الصحراء تتلاشى والسماء، كل شئ فى الكون يتساوى فى الظلام، أعلام الدول ومعسكرات الأعداء، كلها تتساوى وتذوب فى السواد. عيناى مفتوحتان لا أنام، وديدة راحت فى النوم تحلم بعودة خطيبها من الحرب وليلة الزفاف. أخشى أن أسقط فى النوم ولا أصحو فى الصباح، أخشى أن تسقط قنبلة وأموت فى الاسماعيلية، يكتشف أبى وأمى أننى كذبت عليهما وقضيت الليلة فى الاسماعيلية وليس فى نوبتشية القصر العينى. كان الموت أهون فى نظرى من انكشاف الكذب.

خرجت من الخيمة أتمشى فى الصحراء. الشفق الأحمر يسرى فى صدرى مع نسمة الفجر، استشعر الحنين للحب، أمشى نحو عين الماء، أتصور أننى سوف ألتقى بأحمد هناك، ربما نهض من النوم ليشرب، ربما يدرك أننى هنا فى الاسماعيلية، فى الخيمة المجاورة له، وأننى أنهض وأمشى إلى عين الماء، كأن بيننا موعد وأنا أمشى اليه، وهو يمشى إلىَّ، نقطتان صغيرتان فى الكون تمشيان نحو بعضهما البعض، نجمان مؤرقان فى سماء الليل والكون كله نائم. لم يكن أحد عند عين الماء. أحسست خيبة الأمل، كأنما أحمد خان العهد وتخلف عن الموعد. غسلت وجهى وذراعى بالماء البارد. ملأت كفى بالماء وشربت. ليس له طعم ماء النيل. له نكهة معدنية كأنما أضيفت إليه مادة كيمائية. هل سمم الأعداء الماء؟ كنت أسمع من البدو أن الأعداء يسممون عيون الماء والآبار، من بعيد رأيت البدو يسيرون يقودون الحمير أو الجمال. نصبوا خيامهم وانضموا إلى كتائب الفدائيين. الفلاحون أيضا جاءوا بفئوسهم، وقطاع الطرق جاءوا بالأسلحة، والفلاحات أيضا، منهن امرأة فارعة القامة تحمل بندقية فوق كتفها يسمونها أم الفدائيين، ترتدى جلبابا واسعا أسود، تربط رأسها بحزام من جلد الماعز، قدماها كبيرتان سمراوتان، كعباها مشققتان، تشبه جدتى الفلاحة أم أبى، خطوتها واسعة فوق الأرض، خفيفة الجسم قفزاتها سريعة كوثبات الفهد.

هنا وهناك بركت الجمال والحمير، راحت فيما يشبه النعاس، والحصان الأبيض يركبه رئيس المعسكر، أهداه إليه أحد الأعراب من سيناء. تلال سيناء وصخورها منتصبة فى غضب، كأنما تريد الانقضاض على معسكرات الأعداء.

الله اكبر ولله الحمد، هذه التلال يا إخوانى خلقها الله لتحمى المسلمين من غزوات الكفرة! هذا هو صوت أحد الفدائيين فى كتيبة الإخوان المسلمين. صوته ينطلق مع آذان الفجر. وصاح شاب من كتيبة الوفد أو الشيوعيين، "والحماية العسكرية هنا ليه يا أخ إذا كانت التلال دى حاميانا؟" نشب حوار أشبه بالمعركة بين الشباب، كادت تستخدم فيه الأيدى والبنادق، لم يفضه إلا حضور رئيس المعسكر، عضلاته مشدودة علامة القيادة، سلاحه يطل من جيبه، يرتدى كاسكيت يحجب نصف وجهه العلوى، ذقنه مربعة عريضة، راح يتمشى بعد أن فض العراك بخطوة الأسد الهادئ الواثق من نفسه، يرفع وجهه نحو السماء، عيناه تشردان فى الافق نحو معسكرات الأعداء، ربما كان

يتخيلها حطاما، يتخيل نفسه بطل النصر، أينتصر حقا على الإنجليز؟ وإن إنتصر وأصبح بطلا لمن يدين بهذه البطولة؟ لهؤلاء الشباب الفدائيين أم للإنجليز الأعداء؟

أغمض عينيه كأنما نام وهو واقف، ثم أطرق إلى الأرض، ربما اجتاحه شعور بالإثم وتأنيب الضمير، سؤال يدور فى عقله، أيمكن أن يكون بطلا دون وجود الإنجليز الأعداء؟ أحرجه السؤال فاستدار، لم أعد أرى إلا ظهره، وارتفع صوت الفدائى يمزق الصمت.

- يا إخوانى، إن جبل سيناء معنا ضد الإنجليز، فقد ظهر الله فوق هذا الجبل لسيدنا موسى عليه السلام، اصطفاه الله من كل جبال العالم ليهبط فوقه، وهناك أيضا معبد سانت كاترين، والطريق الذى سارت فيه السيدة مريم مع سيدنا عيسى عليه السلام ويوسف النجار هاربين إلى مصر، هذا يا إخوانى جبل مقدس، الرمال فيه مقدسة، التلال والصخور تتربص بأعدائنا الإنجليز، وإذا كان الجبل معنا فان الله معنا والنصر معنا، وسوف تصبح هذه المعسكرات حطاما بإذن الله، نزيلها من الوجود، ونبنى مكانها جامعا ومئذنة يرتفع من فوقها صوت الحق، الله اكبر الله اكبر!

دب الحماس فى الشباب، هتف بعضهم الله اكبر، فريق آخر راح يهتف: يحيا كفاح الشعب المسلح! وانطلقت أصوات أخرى تهتف النحاس النحاس! وارتفع شعار الهلال والصليب فى الجو، مع راية عليها سيفان يحملان المصحف الشريف، وراية أخرى مرسوم عليها المطرقة والمنجل، وعلم مصر يرفعه بعض الشباب.

كان رئيس المعسكر واقفا من بعيد يتطلع اليهم، نصف وجهه العلوى يختفى تحت الكاسكيت، عضلات فمه مشدودة، يمسك ذقنه المربعة بأصابع متوترة، ربما كان يفكر أن معركته الأولى هى إخضاع هذه الفرق المتناحرة، ثم بعد ذلك يأتى إخضاع الإنجليز، أيكون إخضاع الإنجليز أسهل؟! هؤلاء الشباب الفدائيين ليسوا جنودا من أبناء الفلاحين الفقراء الجهلاء. إنهم طلبة فى الجامعات. رؤوسهم محشوة بالأفكار الجديدة، حرية الرأى، الاستقلال، الديموقراطية، العدالة الاجتماعية، هل تنفع هذه الافكار فى الحرب؟! الحرب ليس فيها إلا فكرة واحدة: الطاعة العمياء للأوامر وقتل العدو أينما كان!

- كلما فرغت الدماغ من الأفكار أصبح الجندى أفضل.

كان واقفا من بعيد مطرق الرأس كأنما يفكر فى هذه العبارة. الغبار الرمادى الأصفر يغطى الكون. العواصف الصحراوية تهب يعقبها نباح الكلاب، صوت طلقات الرصاص من بعيد، أهى بنادق صيد؟ هل خرج

الإنجليز فى رحلة للصيد فى الصحراء؟ أم خرجوا مع كلابهم فى حملة استكشاف أوكار الفدائيين؟ كلابهم لديها جهاز عصبى حساس يعرف رائحة العدو، هذه الرياح الصحراوية قد تحمل رائحة الفدائيين إلى أنوف الكلاب، الرياح قادمة من ناحية الجبل، اينقلب الجبل ضد المسلمين ويصبح مع الإنجليز؟! والله أيضا أيمكن أن يتخلى عن المؤمنين ويصبح مع الكفرة؟

كان السؤال يدور فى رأسى وأنا واقفة أنتظر سائق اللورى. أتلفت حولى فى دهشة لا أكاد أعرف من أين جئت وإلى أين أمضى؟ الأرض مفروشة داخل الخيمة بقطع من فروة الخرفان. سرير من الصاج ترقد فوقه وديدة فوقها كليم من الصوف. طشت نحاس وإبريق ماء. تحت وسادتها المصحف الكريم، آية منقوشة تتدلى عند باب الخيمة، "إن ينصركم الله فلا غالب لكم". مقعد من القش المجدول. كنبة من البامبوه أو عيدان البوص المشغولة بأيدى النساء من البدو. حصيرة فوق الأرض من القش أو الجريد.

كانت وديدة راقدة فى سريرها تحملق فى الظلمة. تنظر إلى أصابع يديها. أصابع شاحبة رفيعة تهتز فى الضوء الشاحب، ترسم على الجدار ظلالا سوداء على شكل أصابع، عيناها شاخصتان مفتوحتان لا يطرف لها جفن. سرت فوق جسدى قشعريرة. "وديدة!" ناديتها بصوت هامس، لم تتحرك شفتاها. تصورت أنها ماتت فى هذا الوضع. يدها اليمنى فوق صدرها، صغيرة ناعمة كأصابع الطفلة، خاتم الخطوبة يلتف حول إصبعها، يشع فى الظلمة ضوءا خافتا ذهبى اللون.

بعد عام واحد من هذا اليوم كنت أمشى فى فناء مستشفى قصر العينى الجديد، رأيت وديدة تمشى منحنية الظهر ترتدى ملابس الحداد السوداء، تصورت أن خطيبها قتل فى الحرب، لكنها أجهشت بالبكاء، وهمست فى أذنى، يا ريته كان مات فى الحرب على الأقل كنت أفتكره بالخير، مسحت دموعها وصمتت، تصورت أن خطيبها تعرض لخيبة الأمل مثل أحمد حلمى، يحقن نفسه بالسم لينسى الخيانة، الحرب مثل وابور الطحين يا وديدة، إن لم تقتل الجسد قتلت الروح، يصبح الإنسان ميتا وإن عاش.

أجهشت وديدة بالبكاء المكتوم، أنفاسها تتقطع مع كلماتها وهى واقفة فى فناء المستشفى: موت الضمير أفظع شىء يا نوال، والرجل الخائن للحب يخون الوطن أيضا. كان خطيبها من البوليس السياسى، تنكر فى زى الفدائيين، عاد من القنال سرا قبل حريق القاهرة 26 يناير 1952، إختفى عن خطيبته وديدة ستة شهور حتى قيام ثورة ضباط الجيش يوم 23 يوليو، ظهر إسمه فى الصحف بعد بضعة شهور، فتحت وديدة الجريدة ذات صباح، رأت صورته وخبر عن حفل زفافه إلى إبنة أحد رجال الثورة. كان الحفل ليلة عيد رأس السنة الجديدة أول يناير 1953. إرتدت وديدة ملابس الحداد السوداء. ابتلعت مائة قرص لونه أسود مع كوب من الماء. تمددت فى سريرها داخل عنبر

الممرضات. أنقذوها فى المستشفى بغسيل سريع للمعدة، أجهشت بالبكاء حين عادت إلى الحياة. حاولت الانتحار مرة ثانية، أنقذها من الموت طبيب جديد فى سنة الامتياز. وقعت فى حبه وكفت عن الانتحار.

بعد عشرة أعوام وأنا أمشى داخل حديقة الحيوان إلتقيت بأحمد حلمى وجها لوجه. كان ذلك فى يوم حار من صيف عام 1963. كنت أهبط فى الصباح الباكر من بيتى فى شارع مراد، أمشى مسافة دقيقة أو دقيقتين لأصبح فى شارع الجيزة، أمام باب حديقة الحيوان. لم أكن أدفع رسوم الدخول، أصدر الطبيب البيطرى للحديقة أمرا بإعفائى من الرسوم، قلت له أننى أكتب رواية طويلة جديدة، أن الوحى لايهبط علىَّ إلا وأنا أتمشى فى ممرات الحديقة، كان رسم الدخول خمسة قروش فقط، ليست لها قيمة الآن، كانت تبدو لى منذ سبعة وثلاثين عاما مبلغا كبيرا لا يمكننى دفعه كل صباح، وكان الطبيب البيطرى يتابع ما أنشره من قصص ومقالات.

- وأيه عنوان الرواية الجديدة يا دكتورة نوال؟
- الباحثة عن الحب يا دكتور.

لمعت عيناه الضيقتان لحظة خاطفة ثم انطفأ البريق. كأنما عادت إلى ذاكرته صورة من الماضى البعيد. كان رجلا قصيرا ممتلىء الجسم فى الخمسين، يبدو لى عجوزا وأنا فى مرحلة الشباب. كنت أقف أمام جبلاية القرود. تلفت حوله فى دهشة يتأمل وجوه الحيوانات، كان الشيمبانزى جالسا مربعا فوق جذع شجرة يشبه الإنسان. تركته واقفا يتأمله وسرت إلى حديقة الشاى. هناك كانت المنضدة التى أجلس إليها كل يوم وأكتب الرواية. أتسلى بمراقبة البط فى البحيرة الصغيرة. يسبح تحت أشعة الشمس الذهبية. يفرد أجنحته ويطير فوق سطح الماء، ينفض عن ريشة الرذاذ تتناثر من حوله القطرات اللؤلؤية، تشع ضوءا مثل ذرات تتساقط من الشمس.

كنت أكتب الفصل الأخير من الرواية. كانت البطلة قد أعلنت لبطل القصة أن ما بينهما قد انتهى، وسألها بدهشة كيف ينتهى الحب؟ قالت، الحب ينتهى مثل زهرة تموت ولا تعود، مثل فراشة تطير فوق الزرع يقبض عليها الأطفال وتموت فى أيديهم، سألها، هل فى حياتك رجل آخر، قالت، ليس فى حياتى رجل آخر، لكن فى حياتى نساء ورجال كثيرون، بعد أن خرجت من خندق الحب إلى الحياة الواسعة.

رفعت وجهى من فوق الأوراق، كانت الشمس قد مالت نحو الغرب. أسراب البط عادت إلى بيوتها. رأيت إلى جوارى شخصا واقفا. كان يرتدى قميصا أبيض. نظارة سوداء تخفى عينيه. إبتسم قليلا. تذكرته على النور.

- أهلا يا أحمد.
- إزيك يا نوال.

لم تعد كلمة نوال بصوته تهزنى. لا شىء يدق تحت ضلوعى. لعب الزمن دوره فى نسيان الألم والحزن والفرح والحب. قميصه الأبيض أصبح مثل أى قميص. نظارته السوداء مثل أى نظارة سوداء، وإسمه أحمد حلمى أنطقه كأى إسم عادى.

جلس معى بعض الوقت قبل أن ينصرف. طلبت له كوب شاى. قال: أتذكرين حين جلسنا هنا فى أول لقاء لنا منذ إثنى عشر عاما.

كنت أذكر اللقاء الأول. لم تعد الذكرى تؤلمنى أو تفرحنى. جلست معه أشرب الشاى كما أجلس مع أى زميل أو صديق. أتكلم معه بحرية وسهولة. أصبحت العلاقة بيننا أكثر إنسانية.

لم تعد علاقة بين رجل وامرأة. تحررنا من ثقل التاريخ والإرث العبودى القديم. جلست معه ودار الحوار بيننا أجمل مما كان. نكهة الشاى أصبحت أحلى مما كانت. أصبح أحمد إنسانا بعد أن كف عن أن يكون زوجى.

إجهاض الثورة

صباح السبت 15 يوليو 2000

جالسة إلى مكتبى أحاول الكتابة. أود أن أنهى هذا الجزء الأخير من قصة حياتى. القلم بين أصابعى لا يتحرك. شريف يقرأ الصحف فى الصباح. ثم يجلس إلى مكتبه يواصل كتابة روايته الجديدة. لا أعرف كيف ينتقل بهذه السهولة من قراءة الأخبار إلى كتابة الرواية. إن قرأت الصحف أتوقف عن الكتابة يوما أو يومين حتى يزول التوتر والغضب. حتى أنسى حوادث القتل والحرب، أو أخبار المفاوضات من أجل السلام، كلاهما محكوم بقوة السلاح والمال والإعلام، الثالوث الذى يحكم العلاقات بين الدول أو الجماعات والأفراد.

اصبحت أقرأ الصحف بطريقتى الخاصة، أكتشف التناقض بين السطور المكتوبة وغير المكتوبة، والصور المرسومة فى الصفحة الاولى، الإبتسامات العريضة فوق الوجه واليد تختفى وراء الظهر ممسكة بآلة القتل، هذا الصباح كانت صورة الثالوث فى كامب ديفيد الثانية، منذ واحد وعشرين عاما كانت كامب ديفيد الأولى، الوجوه الثلاثة فى الصفحة الاولى، الرئيس الامريكى والرئيس الاسرئيلى والرئيس المصرى، يبتسمون للكاميرا ويتفاوضون من أجل السلام. كلمة السلام تعنى الاستسلام أمام بطش السلاح والمال والإعلام. خرج الرئيس المصرى صفر اليدين يبتسم للكاميرا يعلن الانتصار، وفى عيد النصر 6 اكتوبر 1981 انطلقت مائة وعشرين رصاصة فى صدره، سقط قتيلا وهو يشهد موكب النصر المصنوع من البالونات والألعاب النارية الملونة. سار فى جنازته الرؤساء الأمريكيون والإسرئيليون وتخلف الشعب المصرى عن الموكب. ذلك اليوم كنت فى زنزانة داخل سجن النساء بالقناطر الخيرية. كان الرئيس المصرى القتيل هو الذى أمر باعتقالى ضمن المعارضين لمعاهدة كامب ديفيد. كان يسميها معاهدة النصر والسلام، أصبح إسمها اليوم معاهدة الهزيمة والاستسلام، لا تتكشف الأوراق السرية للمفاوضات والمعاهدات إلا بعد عشرين أو ثلاثين عاما من حدوثها. لا تعرف الشعوب شيئا عما يدور فى المداولات السرية. تنشر الصحف وأجهزة الإعلام أخبارا ملفقة، يعيش الناس فى أوهام النصر، وأوهام الثراء بعد الموت، فى قصور الجنة، يموتون والابتسامة على وجوههم وقلوبهم محروقة وفلذات أكبادهم مقتولة.

هكذا كانت صورة الرئيس الفلسطينى فى كامب ديفيد الثانية. يبتسم للكاميرا يداه وراء ظهره فارغتان، لا يملك شيئا، لا السلاح ولا المال ولا الإعلام، ظهره عاريا لا يستند إلى أية قوة، جردوه من سلاحه ومن شعبه، جروه إلى مائدة المفاوضات فى كامب ديفيد.

الرئيس الأمريكى يبتسم فى وجه الرئيس الإسرائيلى، أياديهما تتشابك من وراء الظهر، يتبادلان السلاح والمال والإعلام، حصلت إسرائيل بالأمس فقط على 2.8 مليار دولار، وحصلت مصر على 2 مليار دولار، صدر

قرار الكونجرس الامريكى والمفاوضات تجرى فى كامب ديفيد، قرأت الخبر فى الصحف بالأمس، واليوم السبت 15 يوليو 2000 أرى صورة الرؤساء الثلاثة الأمريكى والإسرائيلى والفلسطينى، تحت الصورة مانشيت كبير يتألق تحت أضواء النصر: تلعب مصر دورا قياديا فى عملية السلام كامب ديفيد الثانية كما لعبت فى كامب ديفيد الاولى.

شريف يناولنى الصحيفة لأقرأ الأخبار. أختفى فى غرفتى أشعر بالعار! ما علاقة خبر المعونة الأمريكية لمصر ومعاهدة كامب ديفيد الأولى والثانية؟!

كلمة المعونة تجعل الدم يصعد إلى رأسى، كأنما شريان سينفجر حتما، ترن كلمة المعونة فى أذنى نابية، مثل البصقة أو الصفعة على الوجه، منذ عهد السادات أصبحت مصر تتلقى المعونة الأمريكية، من أجل استمرار المعونة تحدث التنازلات، قلت لشريف الدولة التى تعيش عالة على غيرها كالمرأة أو الطفل الذى يعيش عالة على غيره. منذ بلغت سن الرشد أصبحت أعول نفسى بنفسى. لكن كيف يكون الفرد مستقلا فى وطن غير مستقل؟

منذ الطفولة أهتف مع أبى، الاستقلال التام أو الموت الزؤام. لم أعرف ما هو الموت الزؤام. تصورت أننى لن أموت وإن سرت إلى الموت بقدمى. كنت أسمع أمى تقول، نرمى نوال فى النار ترجع سليمة. أصبحت أمشى داخل النار دون أن احترق. أسافر إلى جبهة التقال ثم أعود دون أن أموت.

كم مرة سافرت وعدت دون أن أفقد ذراع أو ساق. بعد هزيمة 1967 تطوعت ضمن مجموعة من الأطباء، سافرنا إلى جبهة القتال فى القنال، كان عددنا ستة أطباء متطوعين، انقسمنا إلى ثلاثة فرق، كل فرقة تتكون من طبيبين، سافرت الفرقة الأولى إلى السويس، والثانية إلىالإسماعيلية، والثالثة إلى بور سعيد، كنت ضمن الفرقة التى سافرت إلىالإسماعيلية مع زميل لى إسمه الدكتور طلعت حمودة.

كان صباحا مكفهرا ملبدا بالغيوم. تركت مكتبى فى وزارة الصحة لأركب العربة اللورى إلى مدينةالإسماعيلية جلست إلى جوار السائق فى المقعد الامامى. صعد طلعت حمودة من الخلف وجلس فوق دكة خشبية بين الصناديق المعبأة بزجاجات الدم والبلازما. كان شابا من عمرى نحيف الجسم يمكن أن يجلس بسهولة فى أى مقعد. الطريق بين القاهرة والإسماعيلية يستغرق بالسيارة حوالى الساعتين. عجلات العربة اللورى ضخمة تضرب الأسفلت بقوة. أصابع السائق طويلة سمراء مشققة، تحوط عجلة القيادة كالأم تحتضن طفلها فى صدرها. عيناه غائرتان تحت جبهة عريضة تتطلعان نحو جبهة القتال بشئ من القلق. يرتدى بدلة صفراء مهترئة، طاقية فوق رأسه لونها أصفر شاحب، شعر رأسه كثيف مجعد يتخلله الشيب. عمره خمسين عاما بدا لى عجوزا وأنا فى تلك

المرحلة من الشباب. كنت أناديه عم محمد، ينادينى باسم الضكطورة، يذكرنى بلهجة دادة أم ابراهيم وأقاربى فى القرية، كان صامتا طوال الطريق، مستغرقا فى التفكير، جسده القصير الممتلئ يهتز مع اهتزازات العربة اللورى، أصوات الزجاجات تتخبط داخل الصناديق، صوت الدكتور طلعت حمودة يأتينا من الخلف.

- فاضل كام كيلو يا عم محمد علىالإسماعيلية.

- أربعة كيلو يا ضكطور.

- أنا سامع أصوات انفجارات.

- أيوه يا ضكطور.

- جايه منين دى يا عم محمد.

- عساكر إسرائيل بيضربواالإسماعيلية من البر التانى.

أتابع الحوار بين السائق والدكتور طلعت حمودة دون أن أدرك ماذا يحدث. لم أكن أعرف ما هى الحرب حتى ذلك اليوم فى نهاية عام 1967. لم أكن سمعت صوت القنابل إلا فى الافلام. لم أكن شهدت القتلى والأشلاء الممزقة إلا فى الصور.

سمعت صوتا غريبا، يشبه صوت الريح تعوى بصفارة حادة تكاد تخرق الأذن، يشبه صوت طائرة نفاثة أو جسم صلب مدبب يخترق الكون بسرعة تفوق سرعة الضوء. كانت العربة اللورى قد دخلت الإسماعيلية، ضغط السائق على دواسة البنزين، إختار الطرق الجانبية بعيدا عن شاطئ القنال، لم تكن إلا دقائق حتى وصلنا إلى المستشفى فى هذه الدقائق توقف عقلى عن التفكير. إختفى الدكتور طلعت حمودة تحت الصناديق. أخفيت رأسى بذراعى الإثنتين، سمعت عم محمد يقول: ربنا ستر يا ضكطورة، فيه دانة عدت من ورانا، ربنا ستر!

كانت المرة الأولى أسمع فيها كلمة "دانة"، إنها تلك القذيفة التى تنطلق فى الجو وتحدث ذلك الصوت الشبيه بصفارة الريح العاتية، يعقبها على الفور صوت الإنفجارات، رأيت جدرانا تسقط ونيرانا تشتعل، أغمضت عينى كأنما فى الحلم، كأنما العربة اللورى تمشى داخل النار، وصوت أمى يأتينى من تحت الأرض، نوال نرميها فى النار ترجع سليمة.

فتحت عينى على مشهد عجيب. لم أعرف حقيقة أم خيال. وجدت نفسى واقفة أمام باب المستشفى. العربة اللورى واقفة بجوار الرصيف داخلها الصناديق. مقعد السائق عم محمد خال ليس فيه أحد. فقط ذراعه اليمنى بأصابعه الخمسة السمراء المشققة قابضة على عجلة القيادة. أين ذهب جسد السائق عم محمد؟! رأيت بعض الوجوه من حولى، وصوتى يقول كأنما ليس صوتى، فين عم محمد؟ فين الدكتور طلعت حمودة؟

كان الدكتور طلعت حمودة منبطحا تحت الصناديق فوق أرض العربة اللورى. أخرجوه من الباب الخلفى شاحب الوجه يهمس بصوت متحشرج:

- حصل إيه يا دكتورة نوال؟

- مش عارفة يا دكتور طلعت.

رأيت من حولنا بعض التمورجية بالمرايل البيضاء، أصواتهم تصرخ فينا: ادخلوا المخبأ بسرعة! أخذونى والدكتور طلعت حمودة إلى المخبأ تحت المستشفى. كان هناك مدير المستشفى والأطباء والممرضات والتمورجية وعدد من الجرحى، سمعت أصواتا تقول، عم محمد راح مسكين، ضربته الدانة، وفجأة اهتز المخبأ كأنما زلزال يرج الأرض، تساقط التراب فوق راسى من السقف، تصورت أن السقف سوف يسقط، وسوف نموت كلنا تحت الانقاض.

توالت القذائف والدانات فوق المكان الذى نحن فيه، انخلع قلبى وانبطح الجميع فوق الارض، تصورت أنهم ماتوا جميعا وأنا الوحيدة على قيد الحياة، ثم سمعت صوت مدير المستشفى يقول: الضرب المرة دى جامد، يظهر عاوزين يهدوا المستشفى، وقال أحد الأطباء، أصلهم بقوا قريبين أوى مننا، بقوا على الناحية التانية من القنال قصادنا على طول، وجايز شايفينا.

كان الجنود الاسرائيليون فعلا قد وصلوا إلى الضفة الاخرى من قناة السويس، بعد احتلالهم لأرض سيناء كلها بعد خمسة أيام فقط من حرب يونيو 1967، وكان التراب يتساقط فوق رأسى وأنا جالسة فوق الأرض متكورة حول نفسى، أضع يدى فوق أذنى حتى لا أسمع صوت الدانات التى تصفر وتعوى كالريح العاتية، يعم السكون لحظة ثم تدوى الصفارة فى اذنى، يعقبها صوت الانفجار ويتساقط مزيد من التراب فوق راسى، اخترقت إحدى الدانات جدار المخبأ ورأيت مدير المستشفى راكعا يصلى يقرأ الشهادة بصوت مرتعش.

يوم من الأيام السوداء فى حياتى، رأيت الموت دون أن أموت. دون أن أفقد الوعى لحظة واحدة.

غرقت تحت التراب المتساقط من السقف إلا اننى بقيت فى مكانى اتنفس. وكان هناك فى الناحية الاخرى جهاز تلفزيون فوق منضدة، كانت الصور تظهر على الشاشة رغم الدانات، لم ينقطع التيار الكهربى، ولم ينقطع الارسال لحظة واحدة، لم اعرف ماذا كان يعرض فوق الشاشة، ربما أحد الافلام القديمة، لانى رأيت راقصة تشبه سامية جمال ترقص وفريد الاطرش يغنى، كان مشهدا غريبا مذهلا، نحن فىالإسماعيلية غارقين تحت التراب تنهال علينا الدانات من الجيش الاسرائيلى المرابط على ضفة القنال، ومدينة القاهرة ترقص وتغنى.

بدا المشهد كأنما فى مسرحية عبثية، وقد تطوعت للموت من أجل وطن يرقص ويغنى بينما أنا اموت، إلا اننى نجوت وعدت إلى القاهرة بعد عدة أيام، مات زميلى الدكتور طلعت حمودة بعد أسبوع واحد بالسكتة القلبية وهو يقود سيارته فى الشارع بجوار وزارة الصحة، وقلت لشريف، تصور يا شريف كان التلفزيون نازل رقص وغنا واحنا تحت الارض بنموت؟ يظهر التلفزيون فى بلد واحنا فى بلد تانية! وكتبت قصة قصيرة بعنون بلد غير البلد، ودق جرس الباب صباح يوم، رأيت أحد الرجال يناولنى ورقة صغيرة، إستدعاء الدكتورة نوال السعداوى للحضور إلى إدارة المخابرات العامة بسراى القبة. أخذنى شريف بسيارتنا الفيات الصغيرة إلى مبنى المخابرات، إنتظرنى ما يقرب من ست ساعات، تركونى فى غرفة تشبه الزنزانة أربع ساعات، ثم جاء رجل بوليس، أخذ يحقق معى ساعتين، أول سؤال كان عجيبا: لماذا سافرت إلىالإسماعيلية؟ أدركت أننا نعيش فى دولة المخابرات، وأن النظام فى مصر لم يتغير منذ الملك فاروق، وكما طارد البوليس الفدائيين بعد أن عادوا من حرب 1951، وحرب 1956، فانه يطارد الأطباء الذين تطوعوا لبناء الطوارئ الطبية فى مدن القنال الثلاثة بعد حرب 1967، أما الدكتور طلعت حمودة فقد مات بالسكتة القلبية بعد أيام قليلة من عودتنا من الإسماعيلية، ترك وراءه زوجة شابة وطفلين صغيرين، أقاموا له فى وزارة الصحة حفل تأبين، تشبه حفل تأبين زميلى أحمد المنيسى الذى استشهد على أرض القنال فى نهاية عام 1951، حفروا إسمه على لوحة الشهداء فى فناء الوزارة، سقطت اللوحة بعد سنوات قليلة وراح إسم طلعت حمودة فى العدم، بمثل ما راح إسم أحمد المنيسى وأحمد حلمى وغيرهم من الفدائيين. أما السائق عم محمد فقد اندثر إسمه مع حسمه فى العدم، دون حفل تأبين، دون لوحة شرف يسقط فوقها إسمه.

فى صيف عام 1968 أرسلت نقابة الأطباء إلى جبهة القتال فى الأردن فريقا من الأطباء المتطوعين. كنت الطبيبة الوحيدة التى تطوعت للسفر ضمن مجموعة من خمسة أطباء. لماذا تطوعت؟ لا أعرف، كنت فى حاجة إلى السفر بعيدا عن القاهرة، بعيدا عن الصحف وشاشة التلفزيون، لم أكن أطيق رؤية تلك الوجوه التى تظهر فوق الشاشة أو الصفحة الاولى من الجرائد اليومية، لم أعد أطيق سماع الأكاذيب فى الإذاعات. سجلت إسمى ضمن الأطباء المسافرين إلى جبهة القتال فى الأردن.

وجدت نفسى أعيش فى خيمة بمنطقة الأغوار بالقرب من السلط، أركب عربة الاسعاف مع امرأة يداها وقدماها محروقة بالشمس، تلف رأسها بالشال الفلسطينى، يسمونها أم الفدائيين، كانت عربة الاسعاف تنطلق بنا فى الليل، تقود العربة فتاة فلسطينية فدائية، عيناها مرفوعتان إلى أعلى فيهما بريق خاطف، تتطلع نحو شاطئ نهر الأردن، إلى جوارها سلاحها، السيارة مصفحة من نوع الجيب، عجلة القيادة كبيرة تقبض عليها يد الفتاة، أصابعها طويلة عظامها قوية تشع من تحت الجلد ما يشبه الضوء، وحركة خفيفة لها إرادتها الخاصة، أصابع كالحديد لا تلين، قابضة على عجلة القيادة الحديدية كأنما هى لعبة اطفال. أرمق يدى خلسة وأنا جالسة إلى جوارها عظام أصابعى تبدو رقيقة هشة. يدى اليمنى معقودة مع يدى اليسرى فوق حجرى. يدها اليمنى تقود السيارة وحدها دون الاستعانة بيدها اليسرى.

أين يدها اليسرى؟ لم تكن هناك يد يسرى. ذراعها الأيسر مبتور عند الكوع، تستعين به حين تهتز العربة فوق مطبات الطريق.

كانت صامتة شاخصة إلى الأمام. وجهها من الجانب ثابت لا يهتز مع اهتزازات العربة، تقاطيع الوجه كأنما مصنوعة من الفولاذ أو الماس، نوع من الأحجار الكريمة المشعة، لا أستطيع أن أحرك عينى بعيدا عن هذا الأنف المرفوع الشامخ، يشق الظلمة مثل نصل السيف، أيكون لأنفى مثل هذه الارتفاعة الشامخة؟ لم تحرك رأسها ناحيتى، وأنا لا أحرك رأسى بعيدا عنها.

فى المقعد الخلفى جلست أم الفدائيين، عيناها غائرتان عميقتان تغطيهما طبقة شفافة من الدموع، تشبه اللمعة الخاطفة أو الابتسامة الدائمة، تشبه أم ابراهيم أو جدتى الفلاحة فى قريتى على ضفاف النيل. ملامح وجهها مؤكدة فى عتمة الليل. الجبهة البارزة القوية مثل النتوء الصخرى يطل على النهر. يناديها الفدائيون أمنا. كما ينادون الأرض، الضفة الأخرى من النهر، حيث الوطن والأهل. هى تناديهم أطفالى كما تنادى الأرض نبتها الأخضر. لم يكن لها بيت لا رجل ولا أب ولا أم. البيوت كلها بيتها. الرجال كلهم رجالها. النساء نساؤها. فى ذاكرتها منذ ثلاثين عاما قصة حب، وجنين فى أحشائها لم تلده أبدا، أو ولدته ثم ضاع منها فى الأغوار.

الظلام مكتمل والقمر والنجوم غابت. العربة المصفحة تشق الليل كالسهم المارق. الجنود الإسرائيليون يطلون علينا من أبراج المراقبة. الظلمة تحوطنا تخفينا عن عيونهم. وصلنا إلى حطام مدينة إسمها الكرامة. وقعت معركة الكرامة من شهرين فقط فى 21 مارس 1968. قتل كل سكانها. توقفت العربة بجوار جدار أسود مثقوب بالرصاص والدانات مرسوم عليه وجه طفل يبتسم، عين الطفل اليمنى مثقوبة تحت الابتسامة حروف متعرجة

محفورة فى الحجر: سنقاتل حتى الموت. البيوت كلها متهدمة، الشوارع والأزقة خالية من البشر، تعثرت وأنا أمشى فى شئ صغير، فردة حذاء طفل، انحنت الفتاة الفدائية بجسمها النحيف الممشوق، التقطت فردة الحذاء بأصابعها الطويلة القوية. ضمتها إلى صدرها كأنما تضم الطفل. عيناها مرفوعتان تشقان الظلمة، تتطلعان إلى الأرض وراء النهر، إلى البيت القديم الذى ولدت فيه، كانت فى العاشرة من عمرها حين استولى الاسرائيليون على البيت. ذبحوا أباها أمامها. أربعة منهم اغتصبوا أمها واحدا وراء الاخر، ثم بقر أحدهم بطنها قبل أن يقطع ثدييها بخبطة واحدة، أخوها أخذوه إلى السجن يسمونه سجن الانصار، قطعوا أصابع يده اليمنى، لم يعد قادرا على حمل السلاح، يجلدونه كلي يوم بالسياط يدخلون فى فتحة الشرج عمودا من الحديد، يطفئون السجائر فى جسده، بتروا ساقيه وذراعيه، دون جدوى، لا يمكن أن يعترف، لا ينطق إسم أحد زملائه الفدائيين أو الفدائيات. نماذج من القوة الإنسانية يعجز عنها الخيال.

عادت الفتاة إلى العربة ومعها فردة الحذاء. وضعتها إلى جوار سلاحها، وانطلقت بها فى الأغوار عند حافة النهر توقفت. كان هناك الجريح راقدا داخل العشب. حوطته أم الفدائيين بذراعيها كالأم تعثر على إبنها. تناديه بإسم طفلها الغائب. لم تعد الأسماء تهم. غسان أو يوسف أو فتحى أو زياد، كلهم هذا الجسد الجريح ينزف الدم. فقد ذراعيه وساقيه يئن بصوت مكتوم. يناديها أمى، وهى تغرقه بدموعها وتناديه إبنى.

حملنا الفدائى الجريح إلى الخيمة فى معسكر السلط. شفى بعد ثلاثة شهور، أصبح يمشى داخل مقعد يتحرك فوق العجلات. جسد ورأس بلا أطراف. عيناه زرقاوتان عميقتان تشعان ما يشبه اللهب الأزرق. ابتسامته عريضة أسنانه بيضاء تلمع مثل فصوص من اللؤلؤ.

فى المدرسة الابتدائية فى منوف كانت لى زميلة إسمها حميدة مبتورة الساقين، داست عليهما عجلات عربة كارو فى يوم العيد، لم يكن فى إمكانى النظر إلى جسمها المبتور، يرتعد جسدى لمنظر الأجساد المشوهة، كأنما التشويه مرض معدى ينتقل لمجرد النظر.

فى الخيمة كنت أنام تحت رأسى قطعة حجر ناعمة دافئة تشع حرارة الشمس فى الليل. إلى جوارى أم الفدائيين نائمة عيناها نصف مفتوحتين، شفتاها نصف منفرجتين، أنفاسها عميقة مسموعة فى صمت الليل، ملايين الأصوات الخافتة الهامسة تصنع الصمت، تدوى فى أذنى بكلمة واحدة "إبنى".

تركت فى القاهرة إبنى عاطف عمره عامان ونصف، وابنتى منى عمرها عشرة أعوام، يرعاهما زوجى شريف، غبت عنهم ثلاثة شهور ونصف، الحنين إليهم يشدنى إلى القاهرة، أود العودة وأود البقاء، بدأت رواية جديدة

أعطيتها عنوان: عين الحياة، بطلتها إمراة تشبه أم الفدائيين، طويلة القامة فارعة مثل جدتى الفلاحة فى القرية، هذه المرأة ظلت تتراءى لى فى النوم حتى جلست إلى مكتبى، تجسدت فوق الورق باسم عين الحياة، بعد عودتى إلى القاهرة كنت أتابع أخبارها حتى ماتت فى مدينة عمان بالأردن فى سبتمبر الأسود عام 1970 قبل موت جمال عبد الناصر بشهر واحد. لكنها بقيت حية فى روايتى عين الحياة، يقرأها الناس فى بلادنا العربية، وفى بلاد أخرى بعد أن نشرت الترجمة فيما بعد، أستعيد صورتها وهى تمشى على حافة النهر تبحث. لم يكن بحثا عاديا تعرف فيه الشئ المفقود، أو تعرف أنها قد تجده وقد لا تجده. كان بحثا غريبا عن إبن لم تلده، أو ولدته ثم ضاع منها فى زمان ومكان لا تدرى عنهما شيئا.

* * * *

الليلة الأخيرة فى معسكر السلطة قبل أن أعود إلى القاهرة. خرجت من الخيمة أتمشى فى الأغوار. كنت أرتدى بدلة الفدائيين من فوقها معطف الأطباء الأبيض. الليلل ساكن إلا من حفيف الأشجار، صوت مياه النهر من بعيد، نسمة الصيف الناعمة تتسلل بين جبال الأردن، أمشى فى الأغوار كأنما أمشى فى حلم داخل حلم. أسمع وقع حذائى على الأرض الصخرية. لونها أحمر كالدم يغطيها عشب أخضر. ريح باردة خفيفة من الشمال لها رائحة الخيال. نسمة دافئة تهب من الناحية الأخرى، حيث يرقد الشاب الفدائى بدون ذراعين ولا ساقين. إسمه غسان، كان يكتب الشعر قبل أن يفقد أطرافه. يغمض عينينه ويحلم أنه عاد إلى الضفة الغربية حيث ترقد أمه العجوز، تبحث فى النوم عن إبنها الغائب فى الضفة الشرقية، تصطك أسنانه قليلا كأنما من الرجفة، أو رعشة الخيال، الريح محملة برائحة الحلم، صوته يسرى فى أذنى فى سكون الليل:

- أراك فى معطفك الأبيض تسيرين بين الخيام. أراك بالعين فى جسدى، فى مكان غير المكان الذى توجد فيه العيون، هل عندك وقت لأكشف لك عن هذه العين؟ وأخبرك بسر قوتى فى مواجهة الموت الثانى بعد أن واجهت الموت الأول حيث فقدت ذراعى وساقى؟ لا تخافى يا دكتورة، هناك فى الضفة الأخرى وراء النهر أعداء أعتقدوا أننى مت، لكنى لم أمت، أنا فقط جريح، والجرح ليس فى محجر العين، أنا أراك هنا والآن فى ضو القمر المختفى، أشهد ما بعد الموت، لماذا أنت صامتة؟ هل أنت جريحة مثلى لا تخافى إن فقدت ذراعيك وساقيك، ما دامت قادرة على الاستماع إلى، فانت قهرت الموت، قهرت العدو داخلك قبل العدو هناك

على الضفة الاخرى، وانا مثلك قادر على الاستماع اليك، ليس لأمثالنا إلا الاقتراب، أو التلامس جسدا لجسد، أعطنى يدك، ضعيها فوق صدرى العارى لألمسها وتلمسنى، انتظرى لا تبتعدى عنى، لا تخافى من شكلى المختلف، ربما فقدت أطرافى لكنى لم أفقد قلبى، لست من الرجال الذين يغتصبون النساء فى الظلمة، لم يعد لى جسد رجل أو امرأة، إنما هى الرغبة الأخرى يا دكتورة، أتعرفين الرغبة الاخرى؟

كان راقدا فوق ظهره مبتور الذراعين والساقين، حول عينه اليسرى رباط من الشاش الغارق فى الدم. بشرته بلون الطوب الأحمر. لم يكن وهما ولا خيالا. كان فدائيا فلسطينيا فى لحظات الاحتضار الأخيرة، يفتح فمه ويغلقه فى صمت، يحاول أن يكشف قبل أن يرحل عن سر خفى. إقتربت بأذنى من فمه وقلت.

تكلم أنا أسمعك يا غسان.

يا دكتورة أتعرفين الرغبة الأخرى؟ كل الأجسام الراقدة هنا فى الخيام كانوا شبابا مثلى فقراء، لا يملكون شيئا فى الحياة إلا أجسادهم، وهذه الأجساد أيضا لا يملكونها، تملكها القيادة العسكرية، وهى قيادة لها رائحة تشمينها من البعد، أتعرفين رائحة القيادة؟! هواء ثقيل بارد يهب من هذه الناحية. أنظرى. لم أكن أعرف أن السلطة لها رائحة، ولها صوت يصطك مثل قرقعة الحديد أو ارتطام الفولاذ بالمعادن الصلبة، يتحول الصدى إلى صوت أشبه بهذا الصوت الذى نسمعه. إسمعى!

حركت راسى فى الاتجاهات الأربعة أحاول التقاط صوت الريح فلم أسمع إلا صمت الليل. ملايين الأصوات الهامسة التى تصنع الصمت. قربت أذنى من فمه.

- لا أسمع شيئا يا غسان.

- لأنك فقدت أذنيك يا دكتورة منذ زمن بعيد، منذ ولدت على هذه الارض، وأردت أن تحمى نفسك من سماع الكلمات النابية مثل كلمة "مَرَهْ"، ألم تسمعى كلمة السباب الأولى فوق هذه الارض؟ إذا أرادوا إهانة رجل يقولون له يا ابن المره، إن أعدائى قادرون على تمزيق جسدى بالألم، لكنه أخف من هذه الإهانة، وفى يوم قال لى قائدنا أو زعيمنا كما يسمونه، قال لى يا إبن المره، منذ ذلك اليوم فقدت أذنى حتى لا أسمع الكلمة مرة أخرى. لم أكن فعلت شيئا سوى أننى لم أضع قليلا من السكر فى فنجان قهوته، نست أنه يشرب القهوة ع الريحة كما تقولون فى مصر، وكان يفقد مزاجه إن لم يشرب قهوته ع الريحة فى الصباح، يصبح هائجا كالضبع، يكاد يعض من حوله بأسنانه، ومن فمه تنثال كلمات السباب، أولها هذه الكلمة يا إبن المره! وهربت من المعسكر بعد أن فقدت أذنى، وكنت قد فقدت ذراعى اليمنى فعملية فدائية داخل الضفة الأخرى، فى قلب أرض العدو، التى كانت أرض أمى، نجحت فى تدمير معسكر العدو وبدأت أهرب لأعود إلى هنا، وأنا أزحف فوق بطنى شممت رائحة أمى فى الأرض، تمهلت

قليلا، توقفت لحظة أملأ صدرى بالرائحة، وانهمرت طلقات الرصاص من حولى مثل سرائب الحمام الأبيض فى ظلمة الليل، لم أعرف أنها طلقات رصاص، كنت مستغرقا فى اللذة الطفولية، عدت طفلا أدس أنفى داخل صدر أمى وأملأ صدرى بالرائحة، أتذكرين رائحة أمك يا دكتور؟

- رائحة أمى؟

فاجأنى السؤال. ماتت أمى منذ تسع سنوات، نسيت رائحة أمى، بدأ الهواء يتحرك حاملا لى الرائحة، أوشكت الإمساك بها قبل أن تتسرب من الذاكرة، لكن الهواء تحرك بفعل الريح فهربت منى كما تهرب السمكة الصغيرة من بين أصابعى فى البحر.

جلست فوق قطعة حجر بجوار الخيمة، وهو راقد كما كان فوق ظهره، قطعة مربعة من اللحم البشرى بلا ذراعين ولا ساقين، عين مربوطة بالشاش، العين الأخرى ترمقنى فى الظلمة كالنجمة الوحيدة فى سماء سوداء، صوته يدخل مسام جسدى مع نسمة الليل كالحلم.

- هربت من المعسكر يا دكتورة أزحف فوق قطعة من الخشب لها أربعة عجلات، أدفعها بكتفى، لم أعرف ماذا أفعل بجسمى بلا أطراف ولا آذان ولا عيون، ولا شئ إلا هذا الصدر المكشوف والضلوع تحتها قلبى يخفق يمتلئ بالحنين للحب، ورأيت عيون الأطفال ترمقنى من بعيد فى خوف، يتحسسون أذرعهم وسيقانهم، يطمئنون إلى وجودها، يخشون فقدانها، كأنما يرون مستقبلهم فىَّ، وعيون الكبار ترمقنى من بعيد أيضا، يلقون إلى بقطعة من النقود من بعيد، لا يكاد يقترب منى أحدهم إلا وضاعت منه أطرافه وأذنيه وعينيه، تسقط قطعة النقود فوق بطنى، ألتقطها بلسانى، الذى أصبح يدى ألتقط به الأشياء، وصنعت لى القيادة ملفا صغيرا ضمن ملفات أصحاب العاهات أو الشحاذين، كنت التقط طعامى من فضلات الناس فى الطريق، وإذا جاء المبعوث الامريكى يزور قائدنا تنتشر عربات الجيب المصفحة فى الشوارع تلم الشحاذين، تكنس الشوارع من القمامة، تدهن سيقان الأشجار بالبوية البيضاء، ترفع الأعلام وأقواس النصر، تحولت من الفدائى وجه الوطن المشرف إلى الوجه المخزى المطلوب إخفائه كالعورة عن عيون الضيوف.

-وكيف عدت إلى معسكر الفدائيين يا غسان؟

- آه يا دكتور، هذا سؤال مهم، جاءنى مندوب من القيادة وسألنى، أيهما تفضل أن تعيش شحاذا محتقرا أم تموت شهيدا مكرما؟ قلت على الفور أموت! كنت أنشد الموت دون جدوى. أريد أن أمسك بيدى مسدسا أو موس حلاقة لأقتل نفسى، لم تكن لى يد أمسك بها آلة القتل، ربطوا حول صدرى وبطنى حزاما من القنابل الموقوتة، حملونى مثل طرد من الديناميت إلى معسكر الأعداء، لسوء الحظ لم تنفجر القنابل، كانت كلها مغشوشة، صفقات

الأسلحة الفاسدة تجارة دولية، تقتسم القيادات الربح فيما بينها، سقطت أسيرا بين أيدى الأعداء، تشاءموا من منظرى فأعادونى إلى قيادتى كنوع من العقاب لها، وضعونى فى هذه الخيمة فى معسكر السلط، كلما أرادوا تفجير معسكر فى الضفة الأخرى ربطوا حزام القنابل حول صدرى وبطنى، أنطلق فى مهمتى سعيدا وعندى أمل وحيد، ألا تكون القنابل مغشوشة لأموت شهيدا وأدخل الجنة مع الأنبياء، ويحصل أبى بعد موتى على المعاش. كان أبى ينشد موتى فهو رجل فقير يعول أسرة كبيرة. أحيانا أصدق أن هناك جنة بعد الموت، وأحيانا تبدو لى الجنة مجرد خدعة من اختراع القيادة، أتعرفين أحدا فى هذه القيادة يا دكتورة؟ القيادة هى القيادة فى أى بلد فى العالم، هل وقعت فى حب أحدهم؟ هل وقع أحدهم فى حبك؟

- أنا يا غسان؟!

- أيوه! إنت! كيف جئت إلى هنا يا دكتورة؟ لا أحد يأتى إلى هنا دون أن يمر على القيادة، دون أن تفحصه القيادة، إنهم رغم قبح الملامح فيهم شئ من الجاذبية، وتشتد الجاذبية بارتفاع المكانة، لهذا يحظى القائد بنصيب أكبر من النساء، هل أغراك احدهم بالتطوع والموت فى سبيله؟ نعم فى سبيله وليس فى سبيل الله أو الوطن، فالمرأة أكثر ذكاء من الرجل، لا يمكن أن تموت المرأة من أجل كلمة مجردة. بل من أجل شئ ملموس حقيقى مثل جسد رجل له ذراعان يضمانها فى الليل، وأنا رجل بلا ذراعين ولا ساقين، لم تعد هناك امرأة ترغب فى الموت من أجلى.

الساعة تنقضى وراء الساعة وأنا جالسة فوق قطعة الحجر بجوار الخيمة، وهو راقد فوق ظهره، صدره يعلو ويهبط بأنفاس متقطعة، تعلوه طبقة من التراب والدم، عينه الوحيدة لا تزال مفتوحة ترمقنى فى الظلمة، تومض مثل ذؤابة ضوء توشك على الانطفاء، صوته ينخفض قليلا يتقطع، أكاد لا أسمعه، أقرب أذنى من فمه.

- استمر أنا اسمعك يا غسان.

- صوتك الحنون يكشف أنك عرفت فى حياتك رجالا كثيرين، أن صدرك مثل صدر الأم رقدت فوقه رؤوس كثيرة متعبة، لكنك كنت تطردين الرجال الأطفال الباحثين عن الأم، كنت تبحثين عن رجل مكتمل الرجولة يحمل السلاح ويقتل العدو، تريدين فدائيا شجاعا لا يخاف الموت، تضعين رأسك فوق صدره كأنما هو صدر أمك. ألهذا جئت إلى هنا يا دكتورة؟

- لا يا غسان أنا لا أبحث عن صدر أضع عليه رأسى لكنى بعد الهزيمة لم أعد أطيق الحياة فى مدينة القاهرة، الهواء هناك أصبح مشبعا بالدخان والهزيمة، العيون منكسرة حزينة، حتى جمال عبد الناصر نفسه تهدلت ملامحه وانكسرت عيناه مثل الأسد الجريح.

- سمعت من الزملاء أنك كاتبة، هل جئت إلى هنا بحثا عن رواية جديدة؟ كنت فى طفولتى أكتب الشعر وكانت هناك طفلة فى العاشرة من عمرها، تطل من النافذة وتسمعنى، طفلة لها عينان سوداوتان مملوءتان بالأمل والحلم مثل شعاع الشمس، عيناك أراهما بعينى الواحدة تشبهان هذه الطفلة.

- هل ترانى يا غسان؟

- لا يا دكتورة، لا أراك لأن العين الباقية لم تعد ترى، لكنى أراك بقلبى، صوتك يذركنى بصوت أمى، أحلم كل ليلة أننى عدت إلى حضن الأم فى الوطن القريب البعيد، أحلم بامرأة لها صدر الأم وجسد الأنثى، لكن الأمومة والأنوثة لا يجتمعان فى امرأة واحدة، وأنت طبيبة وكاتبة لا يمكن لرجل أن يلمسك إلا إذا كان جريحا أو موضوع رواية جديدة، أتحلمين مثلى بالموت ودخول جنة عدن؟ لكن الجنة خلقت لنا نحن الذكور وليس فيها للإناث دور إلا دور الجوارى الحوريات، اتعرفين هذه الحقيقة يا دكتورة؟

- نعم أعرفها يا غسان، لذلك لم أحلم أبدا بدخول الجنة.

- أنت إنسانة ذكية كشفت زيف الذكورة والأنوثة تجتازين المحيط الواسع بينهما بخطوة واحدة من قدمك. وأنا أريد منك طفلا يرث ذكاءك قبل أن أموت، أتحققين رغبة إنسان فقد كل شئ من أجل الوطن إلا القدرة على الإنجاب؟

رأيته يضغط على أسنانه كأنما يكتم ألما عميقا فى الجسد، يمر بلسانه على صدره المملوء بالجروح والكدمات. كان يتحرك فوق المقعد ذى العجلات بصعوبة، يريد أن يبول، يخجل أن يبول أمامى، تحت الشعر الأسود الكثيف أسفل بطنه كانت المثانة منتفخة ممتلئة حتى الحافة. يجز على أسنانه من شدة الالم. أسمع صوت اصطكاك الفكين القويين، وأقدام حديدية تصطك بالأرض. شباب فدائيون استيقظوا من النوم بدأوا يؤدون التدريبات. ينظفون بنادقهم. يملأونها بالرصاص. يطلقونها فى الجو. الفجر لم يطلع بعد، وأنا متكورة حول نفسى أمام باب الخيمة، أرتدى المعطف الابيض فوق بدلة الحرب، فى جيبى قلم رصاص جاف، فى الجيب الآخر مفكرتى اليومية، قد أنزع منها ورقة غير مكتوبة لأكتب عليها إسم دواء، أو كلمة غسان، صوته أصبح ممزوجا بالعرق والدم، الآن لم يعد جسده يفزعنى، لم أعد أراه مشوها، أحوطه بذراعى كأنما هو طفلى، حملت به وولدته فى مكان وزمان لا أدرى عنهما شيئا، إنه يموت بين ذراعى، وأنا أحقق له رغبته الأخيرة قبل أن يموت.

مات غسان تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر. وضعوه داخل حفرة فى الارض وأهالوا التراب فوقه عدت إلى القاهرة صباح اليوم التالى. كان شريف ينتظرنى بالمطار. رآنى شاحبة الوجه معفرة الملابس، سألنى ماذا حدث فى

الاردن، قلت مات غسان يا شريف، قال من هو غسان يا نوال؟ قلت شاعر مجهول ربما ينجب طفلا ذكيا فى جنة عدن يرجم إبليس بالحجارة، ضحك شريف وقال، أهى رواية جديدة؟

كان ذلك فى نهاية صيف عام 1968، لم أكن أعرف أنه بعد عشرة أعوام بالضبط، سوف يبلغ المواليد فى فلسطين العاشرة من عمرهم، أطفال من الأولاد والبنات يشبهون غسان، ملامحهم فدائية منحوتة فى الصخر، عيونهم يكسوها البريق، أصابعهم قوية، أعدادهم كثيرة أكثر من الأعداء، قلوبهم شجاعة لا تهاب النار ولا تطمع فى الجنة، قلوب أطفال ولدوا بلا أب ولا أم، يمسك الواحد منهم أو الواحدة منهن حجرا، قامت ثورة الأطفال عام 1978، عرفت باسم ثورة الحجارة، انتصر الأطفال على الجنود المسلحين، أصبحت ثورتهم حديث العالم. كادت موازين القوى تنقلب ضد إسرائيل لولا عملية الإجهاض السرية المؤامرة الجديدة تحت إسم المفاوضات فى أوسلو ومدريد، وكامب ديفيد الأولى والثانية، ولا نكاد نعرف متى تكون الثالثة والرابعة، ربما بعد الموت فى يوم القيامة.

الطيران فى الحلم

من نافذة الطائرة أطل على الغابة الصغيرة يسمونها غابة ديوك، عصفت بها رياح المحيط الأطلنطى والهوريكين، خلع عنها الشتاء أوراقها، أشجار البلوط تلمع عارية تحت الشمس، رؤوسها حليقة منتظمة فى صفوف، كرؤوس الجنود فى المحافل والمارشات العسكرية، أشجار الأرز المثلثة الرأس تومض أوراقها بدوائر الضوء، الثالوث المقدس فى عيد ميلاد المسيح، يسمونه الكريسماس، نحن فى اليوم الأخير من الشهر الأخير فى عام 1996، وأنا فى طريق العودة إلى الوطن بعد سنوات المنفى، أشجار الصنوبر بسيقانها النحيفة الرشيقة تتمايل مع الهواء مثل راقصات الباليه، من وراء النافذة الصغيرة المستديرة لوحت بيدى أودعهم، أربعة من طالباتى وإثنان من الطلبة، جاءوا نيابة عن الفصل إلى المطار، عيونهم تلمع فيها الابتسامات والدموع، ينادوننى بإسم دكتر ساداوى، كريس أصغرهم سنا، عمره عشرين عاما، عيناه زرقاوتان بلون مياه المحيط، أكثرهم إنتباها فى فصل الإبداع والتمرد، طويل ممشوق بشرته بيضاء ملوحة بالشمس، فى حفل الوداع بالأمس عزف أغنية على الجيتار من تأليفه وتلحينه:

خذينى معك إلى الشاطئ الإفريقى.

يا ابنة النيل عيناك ساحرتان.

الليل أقضيه حبيس الانترنيت.

وفى الغابة أجرى كالحصان.

أذناى مسدودتان بالسماعات.

رأسى مشدود بالأسلاك.

عيناى تنظران ولا تريان.

آه يا أستاذة التمرد والإبداع.

أريد أن أطير معك فى الحلم.

إلى حيث أعثر على نفسى من جديد.

إلى جوار كريس كانت تجلس كارولين، تتريض معى أحيانا فى الغابة، تفضل الرسم على الكتابة، فى طفولتها كانت مثلى تطير فى الحلم، لم تحلم اختها بالطيران أبدا، سألتنى كارولين، لماذا يعجز بعض الناس عن الطيران فى النوم، أهدتنى لوحة رسمت فيها نفسها محلقة فى الجو ، تحرك ذراعاها فى الهواء وتطير كما كنت أفعل فى أحلامى بدون أجنحة ، وهى فتاة أمريكية ولدت فى مدينة نيويورك، عيناها زرقاوتان نفاذتان، بشرتها سمراء، ولدتها أمها فى حى هارلم الفقير، أبوها أسود اللون جندوه فى حرب فيتنام ولم يعد، حصلت على منحة تفوق وجاءت إلى جامعة ديوك تدرس الرسم والإبداع، تشتغل فى الأسبوع ثلاثة أيام، جرسونة فى مطعم، تنفق على نفسها، وأمها فى هارلم تشتغل عاملة فى مصنع للبلاستيك، تنفق على البيت وأطفالها الأربعة.

قالت كارولين وهى تودعنى، سأدخر ثمن التذكرة إلى القاهرة وأزورك يا نوال، أصبحت تنادينى بإسمى، رغم فارق العمر نتبادل الحديث كأنما من عمر واحد، فى طفولتها كانت تذهب مع أمها إلى الكنسية، كانت تظن أن القسيس هو الله أو المسيح إبن الله، ذهبت إليه لتعترف بذنوبها. كانت فى العاشرة من عمرها. سرقت من زميلة لها فى المدرسة قلما ملونا. كانت تحب الرسم ولم تكن تملك ثمن القلم الملون. سمعت فى الكنيسة أن السرقة حرام، وأن الاعتراف ضرورى لمسح الذنوب. تسللت من وراء أمها وذهبت إلى القسيس. طلب منها أن تركع وتعترف. أغمضت عينها واعترفت بالسرقة. ربت القسيس بيده على كتفها وقال: غفر الله لك يا كارولين، ثم امتدت يده من كتفها إلى صدرها وبطنها، همس فى أذنها لا تخافى ولا تصرخى أنت فتاة مؤمنة يحبها الله. لكن كارولين صرخت من الألم، عرفت أمها ما حدث، تكتمت الخبر، خرجت كارولين من الحادث سليمة، لم تحمل بالمسيح مثل العذراء مريم، وفقدت إيمانها بالله والكتاب المقدس.

أول يوم دخلت إلى الفصل سألت الطالبات والطلبة، لماذا إخترتم هذا الفصل بالذات؟ قال كريس، أنا أدرس الموسيقى، كنت متمردا منذ الطفولة، أريد أن أعرف العلاقة بين التمرد والابداع. وقالت كارولين، أنا أدرس الرسم، فى الطفولة كنت أحلم بالطيران، أختى لم تكن تطير فى الحلم، أريد أن أعرف لماذا يعجز بعض الناس عن الطيران فى الحلم وقالت طالبة هندية إسمها مايا، قرأت روايتك "فردوس" وتغيرت حياتى، فوجئت بإسمك ضمن الأستاذات فى جامعة ديوك، جئت إلى هنا لأكون طالبة فى فصلك. بشرتها سمراء، عيناها سوداوتان يكسوهما البريق، شعرها أسود غزير، فى نهاية العام الدراسى بدأت تكتب رواية طويلة قبل أن تعود إلى الهند.

كان شريف قد سبقنى فى السفر إلى القاهرة. قال لى، يمكننا العودة وقد زال الخطر إلى حد كبير، جاءتنا رسائل تقول أن قائمة الموت لم تعد هناك والأحوال فى مصر أكثر هدوءا، سافر شريف، وبقيت فى جامعة ديوك ثلاثة شهور أخرى حتى انتهى العام الدراسى.

الطائرة تحلق فوق المحيط الأطلسى متجهة شمالا نحو نيويورك. أول مرة ركبت الطائرة منذ سبعة وثلاثين عاما. منذ الطفولة كان هناك حلم يتكرر. أننى أطير فى الجو، أحرك ذراعى كالجناحين وأشعر بجسمى ينفصل عن الأرض ويحلق فى السماء. كأنما أمتطى جوادا له جناحان، أخترق السحب أجدنى فى عوالم أخرى وبلاد لا أعرفها، أتلفت حولى فى ذعر، أرى الأرض بعيدة راقدة فى الظلمة، ومصباح صغير فى نافذة، وطفلة مؤرقة فى الليل ترمق الطائرة فى السماء، تلمع فى الخضم الأسود كالنجمة.

تشهق جدتى حين احكى لها الحلم.

- هذه ليست أحلام البنات.

- وماذا تحلم البنات يا جدتى؟

- يحلمن بالعريس وفستان الزفاف.

لكنى لم أحلم أبدا بالعريس أو فستان الزفاف. وفى كل عيد يشترى لى أبى فستانا جديدا ويشترى لأخى طائرة صغيرة لها زمبلك، كان أخى يلوى الزمبلك بأصابعه حتى ينكسر، يقذف الطائرة فى الهواء، لكنها لا تطير، تسقط إلى الأرض، كنت أجلس إلى جوار حطام الطائرة ثقيلة القلب، أجمع أشلاءها وأعيد تركيبها لتصبح طائرة من جديد، أركب الزمبلك مكانه أسفل البطن، أحركه ناحية اليمين دورة واحدة أو دورتين، فجأة تتحرك الطائرة وتحلق فى الغرفة. أصفق بيدى الإثنتين وأصرخ بالفرح. تسمعنى جدتى أو إحدى النسوة من عائلة أمى أو أبى. أرى تكشيرة الغضب فوق وجهها. تشد الطائرة من يدى وتلقى بها على الأرض، ثم تصرخ:

- تعالى المطبخ مافيش وقت للعب!

كنت أحب اللعب بالطائرة عن تقشير البصل والثوم، أهمس لأمى بأحلامى، كانت أمى فى طفولتها تحلم بالطيران مثلى، لكنهم أمسكوها كما تمسك الفرخة قبل الذبح، وساقوها إلى حفل الزفاف تحت إيقاع الطبول.

منذ ركبت الطائرة لأول مرة عام 1963، لم أتوقف عن السفر، سبعة وثلاثون عاما رأيت فيها بلاد العالم، كتبت الجزء الأول من رحلاتى فى كتاب صدر منذ خمسة عشر عاما. لم أنشر الجزء الثانى بعد. ربما أفعل ذلك بعد الإنتهاء من هذا الكتاب الجديد.

الطائرة تحلق بى فوق المحيط الأطلسى متجهة نحو الجنوب بعد الهبوط فى نيويورك. جاءت المضيفة الأمريكية تجر العربة عليها المشروبات، انحنت باسمة وسألتنى. ماذا تشربين يا سيدتى؟ قلت: جين تونيك. تذكرت صديقتى بطة منذ ثمانية وثلاثين عاما حين سمعت منها لأول مرة كلمة "جين تونيك". كان ذلك بعد موت أبى فى فبراير 1959. أصبح الجين تونيك مشروبى المفضل، يساعدنى قليلا على الإسترخاء، أنسى قليلا مشاكل الحياة، أتحرر من مخاوفى الراقدة فى قشرة المخ، مخاوف صغيرة مكبوتة منذ الطفولة، رغم عشقى للطيران كنت أخاف من ركوب الطائرة، أراها تسقط وتتحول إلى حطام. إهتزت الطائرة قليلا وأنا أقول "جين تونيك"، سمعت الصوت ينبعث من الميكرفون يقول: أربطوا الأحزمة، نمر ببعض المطبات الهوائية. كم مرة سمعت هذا النداء خلال رحلاتى فى العالم على مدى سبعة وثلاثين عاما؟ مئات المرات آلاف المرات، وفى كل مرة لا يحدث شئ، لا تسقط الطائرة، مع ذلك ما أن أسمع النداء حتى أتصور أن الطائرة سوف تسقط حتما هذه المرة.

أخذت كأسين من الجين تونيك، تبعتهما بزجاجة نبيذ أحمر بوردو، سرى الدفء فى أوصالى، شعرت بالنشوة، شحنة من الحياة تدفقت فى عقلى وجسدى، تلاشى الخوف من سقوط الطائرة، جاءت المضيفة الأمريكية مرة أخرى بالمشروبات، كانت ابتسامتها مشرقة كالشمس، بدت أجمل امرأة رأيتها فى حياتى، قالت بصوت رقيق، ماذا تشربين قبل العشاء يا سيدتى الجميلة، رنت كلمة جميلة فى أذنى كالموسيقى. منذ الطفولة لم يكن أحد فى عائلة أمى أو أبى يقول عنى جميلة. كنت أسمع أحيانا كلمة ذكية، لكن كلمة جميلة لم يكن ينطقها أحد، إلا فى وصف واحدة من أخواتى اللاتى ورثن بشرة أمى البيضاء، وأصابعها الناعمة البضة، واستدارات جسمها الممتلئ، وعيناها العسليتان الوادعتان، وصوتها الرقيق. كانت هذه هى مقاييس الجمال الأنثوى، أما أنا فقد ورثت بشرة أبى السمراء، القامة الطويلة النحيفة، العينان السوداوتان المرفوعتان لا يطرف لهما جفن. "تندب فيهما رصاصة بلغة جدتى والدة أمى"

فى المقعد المجاور لى بالطائرة كان هناك رجل، صعد من نيويورك لم أنتبه إليه إلا بعد الجين تونيك والنبيذ الأحمر. كان يرشف النبيذ على مهل مع حبات من الفسدق، يقرأ فى جريدة الجارديان، ملامحه من الجانب تبدو مألوفة، هذا الأنف المرتفع فى كبرياء يشبه أنف أبى، هذه الجبهة العريضة تشبه جبهة شريف، هذا الشعر الأبيض الغزير أراه فى المرآة كل يوم، بشرته مزيج من السمرة والحمرة، رغم الخطوط الغائرة قليلا حول الفم والأنف تبدو

بشرته مشدودة بلا تجاعيد، هذا الوجه رأيته من قبل، ربما فوق الشاشة، يكاد يشبه جريجورى بيك، هذه الوسامة الطبيعية غير الذكورية، هذا المزيج من الشباب والكهولة والطفولة، الجسم القوى الممشوق مع بياض الشعر واستقرار الملامح، عيناه يكسوهما بريق أشبه بالجنون وهدوء مثل العقلاء والحكماء من الفلاسفة فى التاريخ، مزيج عجيب لا أدرى أهى ملامحه الحقيقة أم هو خيالى الجامح وأنا أطير فى السماء أرشف الجين تونيك والنبيذ الأحمر.

رأيته يرمقنى بطرف عين. تظاهرت أننى لا أراه. ربما كان يتأمل شعرى الأبيض الغزير مع بشرتى السمراء الملوحة بالشمس. ربما لمح البريق الأسود فى عينى وأنا أبتسم للمضيفة وأقول: زجاجة أخرى من النبيذ وقليل من الفسدق يا سيدتى. إبتسمت المضيفة ووضعت أمامى زجاجة البوردو وصحن ملىء بالفسدق والبندق. سمعت صوت أسنانى تقرقش بشهية الطفلة، كنت جائعة، أتشمم رائحة العشاء من غرفة الأكل والمضيفة ترص الصوانى فوق العربة. جاءنى صوته بعد قليل سمعته بوضوح رغم أزيز الطائرة.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- إلى القاهرة وأنت؟

- إلى لندن.

- هل أنت إحدى نجمات السينما؟ ملامحك مألوفة تماما، كأنما رأيتك فوق الشاشة، لا أذكر إسم الفيلم ولا المخرج، أهو فيلينى أو ستانلى كو بريك؟

ضحكت بصوت لم أسمعه بأذنى منذ تسعة وثلاثين عاما، كان ذلك فى صيف عام 1959، بعد موت أبى بخمسة شهور، قرأ المخرج صلاح أبو سيف روايتى "مذكرات طبيبة"، جاءنى فى زيارة إلى البيت، كان يريد إخراج الرواية كفيلم سينمائى، ثم قال لى قبل أن ينصرف: إيه رأيك تمثلى إنتى دور الدكتورة فى الفيلم.

ضحكت يومها وقلت: لا يمكن يا أستاذ صلاح، ليه يا دكتورة نوال؟ عندك وجه فوتوجينيك وعندك موهبة كمان، قلت، موهبة فى الكتابة وليس التمثيل، قال صلاح أبو سيف، الموهبة الفنية هى الموهبة، فى الكتابة فى الموسيقى فى التمثيل، على العموم فكرى فى الموضوع، حاتصل بيكى بالتليفون بعد أسبوع.

كانت مواعيد صلاح أبو سيف دقيقة. جاءنى صوته بعد أسبوع بالضبط يسألنى عبر الأسلاك:

- رأيك إيه يا دكتورة نوال؟

- رأيى إن الرقابة حترفض الفيلم.

- أيوه، لكن ممكن نغير بعض المشاهد فى السيناريو، كل المخرجين بيعملوا كده.

- لكن إذا غيرنا حاجة فى الرواية حتبقى رواية تانية وليست مذكرات طبيبة.

- يمكن أقدر أفوت الرواية من الرقابة، لكن قررتى إيه بخصوص التمثيل؟

خلال ذلك الأسبوع أخذت رأى الصديقات بطة وسامية وصفية، ضحكت بطة وقالت خذينى معك يا نوال طول عمرى أحلم إنى أكون نجمة سينمائية، ومطت سامية بوزها فى وجهى وقالت: تمثيل إيه وكلام فارغ إيه يا نوال دى حاجات غير محترمة فى بلادنا، وقالت صفية، أنا متأكدة إن الرقابة حترفض الرواية، وتبقى المشكلة محلولة.

كان ذلك فى يوليو 1959، مصر تتأرجح بين اليسار واليمين والوسط والإخوان المسلمين، أعوان عبد الناصر يضربون أى رأى لا يدين بالولاء والطاعة. الرقابة على الكتب والأفلام والصحف وكل شئ. رفضت الرقابة رواية مذكرات طبيبة. حاول صلاح أبو سيف مرة أخرى بعد عامين، لم ينجح فى الحصول على الموافقة، حاول مرة ثالثة عام 1966، ومرة رابعة عام 1972، ثم سمعت صوته اليائس عبر الأسلاك يقول: المشكلة ليست فى الرواية يا دكتورة، المشكلة فى إسم نوال السعداوى.

- ماله الأسم يا أستاذ صلاح؟

- بيقولوا عليكى شيوعية.

كانت المضيفة قد جاءت بالعربة عليها صوانى الطعام. سألتنى: سمك أم لحم البقر أم فراخ؟ تحيرت لحظة وقلت: ما رأيك أنتى؟ ابتسمت وقالت: كله لذيذ يا سيدتى. ضحكت وقلت: هاتى كله! ضحك الشاب الكهل الشبيه بجريجورى بيك الجالس إلى جوارى وقال للمضيفة:

- أظن أن لحم البقر الأكثر لذة يا سيدتى.

- لماذا يا سيدى؟

- لأنه مريض بالجنون.

أطلقت المضيفة ضحكة عالية متحررة من قيود الأرض، ووضعت أمامه طاجنا ملتهبا خارجا لتوه من الفرن، تفوح منه رائحة اللحم المشوى والباذلاء الخضراء. لم أكن بهذه الجرأة لأمرض بجنون البقر، رغم الجين تونيك والنبيذ الأحمر كانت خلية فى عقلى لا تزال واعية تماما، خاضعة لقيود الأرض والمنطق، تؤكد لى أن السمك المشوى أو الفراخ المشوية أفضل للصحة من اللحوم الحمراء، توقفت عن أكل اللحم الأحمر منذ عامين، بسبب ارتفاع الكوليسترول فى الدم، وبسبب ما اقرأه فى الصحف الأمريكية عن مرض جنون البقر فى بريطانيا، كان جريجورى بيك يلتهم طاجن اللحم بشهية الأطفال، أسنانه بيضاء حادة مثل أسنان الذئب، عيناه تلمعان بلون السماء الأزرق تشوبه خضرة الزرع.

- هل قال لك أحد من قبل أنك تشبهين صوفيا لورين؟

- وهل قال لك أحد من قبل أنك تشبه جريجورى بيك؟

ضحكنا طويلا وجاءت المضيفة تجر العربة عليها زجاجات الليكور الصغيرة، أنواع من المشروبات المركزة التى يشربها الأثرياء بعد وجبات الطعام كنوع من مسك الختام، أخذ زجاجة صغيرة من الكونياك "ديمى مارتن"، وأخذت أنا زجاجة من الليكور، له نكهة البرتقال، إسمه "كوانترو".

دار بيننا حوار طويل، طوال المسافة ما بين نيويورك ولندن، سبع ساعات ونصف ساعة نتحاور معا دون إنقطاع. نام الركاب جميعا فى الطائرة، إلا هو وأنا، شحنة من الحياة والسعادة تغمرنى من قمة الرأس حتى بطن القدمين، حالة من الحالات لم أعشها منذ كنت فى العاشرة من العمر، تشبه الطيران فى الحلم، أرمق جناح الطائرة الفولاذى الأسود يشق السحب اليضاء كأنما هو خيال،أو مشهد فى فيلم سينمائى، وأنا ألعب دور صوفيا لورين، ولماذا صوفيا لورين بالذات؟ فى أول الشباب حين كنت طالبة بالسنة الأولى بالجامعة كان بعض الطلبة ينتظروننى أمام مدخل الكلية، أسمع أحدهم يقول: سامية جمال جت أهه! صديقتى بطة كانت تقول أننى أشبه إستر ويليامز، لكن صفية تقول أننى أشبه صوفيا لورين. أما سامية فكانت ترانى عاطلة من الجمال، إلا العينان، فقط عيناكى يا نوال، والباقى كله لا شىء، صحراء جرداء تمط بوزها إلى الأمام، وهى تنطق الكلمتين صحراء جرداء.

تكلمنا سبع ساعات ونصف دون أن أسأله أو يسألنى عن إسم أبى أو جدى، أو جنسيتى أو دينى أو قبيلتى أو عائلتى أو أى شئ آخر من هذا القبيل. بدت كل هذه الأشياء غير ضرورية، المكتوبة فى جواز السفر، وما يسمونها عناصر الهوية أو الشخصية. بدت فى تلك اللحظة كأنما هى أغطية، مجرد أغطية، تخفى حقيقة الإنسان أكثر مما تظهرها.

وكأنما جزء من الحقيقة بدأ يظهر فوق السطح، مثل جبل الثلج تحت الماء، يظهر بالتدريج مع يقظة ما يسمونه اللاوعى، أو على الأصح غياب الوعى، ربما بسبب الارتفاع الشاهق فوق كوكب الأرض واكتشاف الكواكب الأخرى، أو ربما التغيير الكيميائى داخل خلايا المخ إثر النبيذ والجين تونيك والكوانترو.

- يبدو أنك سافرت كثيرا فى بلاد العالم.

- وأنت أيضا؟

- سافرت إلى كل بلاد العالم ما عدا البلاد العربية وإسرائيل.

- لماذا؟

- لأنى غاضب من حكومة إسرائيل ومن الحكومات العربية، كنت أحد المسئولين فى الأمم المتحدة عما يسمونه مشكلة الشرق الأوسط، ثم قدمت استقالتى.

- قدمت إستقالك من الأمم المتحدة؟

- منذ ثلاثة أيام فقط فى اجتماع نيويورك الأخير.

فرد ذراعيه عن آخرهما وملأ صدره بشهيق عميق أعقبه بزفير طويل وقال: أخيرا تحررت من سجن الوظيفة بالأمم المتحدة بعد ثلاثين عاما، عشت ثلاثين عاما كالسجين، أسيرا للقوى الدولية ومحكمة العدل ومجلس الأمن، كنت أفكر كل يوم فى الاستقالة لكنى لم أكن أملك حريتى، كنت أسير لمؤسسة أخرى داخل البيت.

حركته وهو يفرد ذراعيه عن آخرهما ويقول: أخيرا "تحررت من سجن الوظيفة" يكاد يشبه أبى حين فرد ذراعيه عن آخرهما بعد أن أحالوه إلى المعاش وصاح بعد أن أخذ شهيقا عميقا أعقبه بزفير طويل: أخيرا تحررت بعد ثلاثة وثلاثين سنة، كنت رهين المحبسين الوظيفة الحكومية وسرير الزوجية.

- هل أنت متزوجة؟

- نعم.

- وعندك أولاد وبنات؟

- إبنة واحدة وإبن واحد، وأنت؟

- عندى ثلاثة بنات، تخرجت الكبرى من كلية الصيدلة لكنها لم تحب رائحة الأدوية فالتحقت بفرقة موسيقية فى سويسرا، الإبنة الوسطى درست الأدب المقارن ثم سافرت إلى باريس، حيث تزوجت زميلا لها من جنوب إفريقيا، الإبنة الصغرى فى لوس أنجلوس ضمن حركة نسائية جديدة يسمونها ما بعد الفيمينيست، ضحك بصوت طفولى وقال،

- أنا مع تحرير المرأة لكن ابنتى تعيش مع زميلة لها أمريكية، تفخر بأنها "ليزبيان"، أنا لست ضد الحرية الجنسية، لكنى لا أنجذب للذكور، ربما أكون رجل تقليدى عجوز، وأنت؟ ماذا عن إبنتك وإبنك؟

- إبنتى تخرجت من كلية الاقتصاد وحصلت على درجة الماجستير والدكتوراة لكنها تركت كل ذلك وتفرغت للأدب وكتابة القصص والمقالات، وإبنى تخرج من كلية الهندسة واشتغل مهندسا لمدة أسبوع واحد فقط ثم تفرغ للإخراج السينمائى.

- فانتاستيك! هذا جنون رائع! وأنت؟

- أنا تخرجت من كلية الطب وكذلك زوجى شريف، لكنه ترك الطب وتفرغ للأدب وكتابة الروايات، وأنا أيضا كاتبة وروائية.

- أنتم أسرة عجيبة مجنونة، وكلكم تعيشون فى القاهرة.

- نعم.

لم يكن سألنى عن إسمى حتى ذلك الوقت، ولم أكن سألته عن إسمه، لكنى تذكرت أننى قرأت عن استقالة أحد المسئولين بالأمم المتحدة فى إحدى الصحف قبل هبوط الطائرة فى نيويورك. كان هو قد غادر مقعده واختفى قليلا

ربما فى دورة المياه. رأيت جريدة الجارديان تطل من الجراب أمام مقعده، بدأت أتصفحها حتى رأيت صورته فى إحدى الصفحات، وحوار قصير معه عن أسباب استقالته. أعدت الجارديان إلى مكانها فى الجراب، عاد إلى مقعده يحمل لفة صغيرة مربوطة بشريط أخضر رفيع، وضعها فى حقيبته الصغيرة تحت مقعده، ضحك وقال:

لابد من هدية صغيرة لزوجتى أكفر بها عن ذنوبى الكبيرة.

- قرأت الحوار معك فى الجارديان؟

- ما رأيك؟

- أتفق معك فى كل شىء إلا شىء واحد!

- ما هو؟

- كان يجب أن تستمر فى موقعك ولا تستقيل، لأن شخصا آخر سوف يحتل مكانك وينفذ ما يريدون.

- أنا معك لكنى تعبت، ثلاثين سنة وأنا أعيش هذه المأساة، أشارك فى هذه اللعبة السياسية التى يسمونها اجتماعات الأمم المتحدة، وقرارات مجلس الأمن، وكلها مجرد لعبة للتغطية على جرائم إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، لم تنفذ إسرائيل قرارات مجلس الأمن، بينما تقوم الأمم المتحدة بنزع أسلحة الدمار الشامل فى العراق والبلاد العربية والأفريقية والآسيوية. لم تتحرك لنزع السلاح النووى فى إسرائيل، لأن الولايات المتحدة ومعها بريطانيا، يريدان أن تكون إسرائيل القوة العسكرية النووية الوحيدة فى المنطقة، تملك إسرائيل أكثر من مائتين وخمسين صاروخ محمل برؤوس نووية، أين ستوجه هذه الرؤوس؟ إلى بغداد ودمشق والقاهرة وطهران وأنقرة وأى بلد فى المنطقة لا يدين بالولاء والطاعة! وهذه اللعبة السياسية التى يسمونها مفاوضات السلام فى الشرق الأوسط! أيمكن أن يكون هناك سلام وشعب العراق يموت منه الآلاف يوميا من الجوع تحت الحصار لأكثر من ثمانية أعوام؟ وهذه الأكذوبة عما يسمونه برنامج النفط مقابل الغذاء؟ هل يعقل أن فريق التفتيش على أسلحة الدمار الشامل فى العراق تضم موظفين فى المخابرات الأمريكية يعيدون صياغة التقارير كما يشاءون؟! هل يعقل أن يتم تحميض الأفلام فى إسرائيل، هذه الأفلام التى تم تصويرها فى العراق بواسطة فريق التفتيش؟ هل يعقل أن المخابرات الإسرائيلية الموساد كانت تزود فريق التفتيش بالمعلومات عن المواقع الهامة كى يتم تدميرها بالكامل، ولإسرائيل خبرة فى هذا منذ ضربت المفاعل النووى فى العراق، وهذه المهزلة التى يسمونها تحريك عملية السلام، والمفاوضات المسدودة لتحقيق بعض حقوق الشعب الفلسطينى، فى الوقت الذى لا تتنازل فيه إسرائيل عن شىء،

بل يزداد عدد المستوطنات ويزداد عدد القتلى من الفلسطينين! وبكل أسف فإن بعض الحكومات العربية تشارك فى هذه اللعبة كما شاركت فى حرب الخليج عام 1991.

توقف عن الكلام حين سمعنا الصوت ينبعث فى الميكرفون يقول: أربطوا الأحزمة ستهبط الطائرة فى مطار لندن، هيثرو.

- أنا أعيش فى لندن منذ ثلاثين عاما، زوجتى إنجليزية وهى أستاذة فى الجامعة تدرس الفيزياء، شعرها أبيض مثلك وهى فى جنيف الآن تحضر مؤتمراً نسائيا، إنها فيمينيست من الموجة الأولى، وهى تحب النساء أيضا، حب برىء وليس مثل إبنتنا الصغرى فى لوس أنجلوس، ثم ضحك، وسألنى، هل أنت فيمينست؟!

- هذه كلمة إنجليزية، وفى لغتنا العربية نستخدم كلمات مختلفة، وإن كان المعنى هو تحرير النساء، بالطبع أنا مع تحرير النساء وتحرير الرجال أيضا، فالمشكلة تتعلق بالنظام الطبقى الأبوى منذ نشوء العبودية وحتى اليوم.

هبطنا من الطائرة، كانت الساعة فى لندن السابعة صباحا، أخرجت ساعتى الصغيرة من حقيبة يدى، كانت لا تزال حسب التوقيت فى ديرهام، متأخرة عن لندن سبعة ساعات، حركت الوقت إلى الأمام بإصبعين إثنين سبعة دورات، رأسى يدور دائما فى تلك اللحظة حين أهبط من الطائرة وأحرك الوقت إلى الوراء أو إلى الأمام، يبدو الوقت كأنما لعبة أو أكذوبة دولية أو كونية مثل قرارات الأمم المتحدة، أترنح قليلا فى مشيتى مع الدوران فى رأسى أو فى الأرض تحت قدمى ربما بسبب الساعات الطويلة فى الجو داخل الطائرة النفاثة لكن ما هى إلى لحظة ويعود رأسى ثابتا فى مكانه، والأرض ثابتة تحت قدمى، أدب بقوة على بلاط الممر اللامع، يشبه الرخام الأبيض، كعب حذائى مربع متين يشبه كعوب أحذية الرجال، لا أرتدى الكعب الأنثوى الرفيع العالى، خطواتى واسعة سريعة، فى يدى حقيبة جلدية صغيرة، وهو يمشى إلى جوارى بالخطوة الواسعة السريعة، جسمه ممشوق وشعره أبيض غزير، عيناه يكسوهما بريق طفولى، يتلفت حوله فى دهشة كأنما يرى مطار هيثرو للمرة الأولى، توقف أمام بوتيك صغير يبيع الكروت والهدايا التذكارية.

- ما رأيك أشترى لك هدية صغيرة من لندن؟

- أشكرك، ليس عندى وقت.

- متى تقلع طائرتك إلى القاهرة.

- الساعة الرابعة مساء.

- أوهوه! الساعة الآن السابعة صباحا، أمامك أكثر من ثمانية ساعات انتظار، أنا لا أطيق الانتظار فى المطارات، وأنت؟

- أنا لا أطيق الانتظار أيضا، لكن معى رواية جديدة كنت أنوى قراءتها فى الطائرة.

- ضيعت وقتك فى الكلام؟!

- أبدا، لقد استمتعت بالحديث معك.

- فاتت سبع ساعات مثل سبع دقائق، لم أشعر بالوقت.

- الوقت أكذوبة كونية مثل قرارات مجلس الأمن.

أطق ضحكة طفولية، مددت يدى لأودعه لكنه تراجع خطوة إلى الوراء وقال: ولماذا تودعينى الآن وأمامك ثمانية ساعات؟! ما رأيك فى فنجان قهوة كابيتشينو وقطعة كرواسان؟ لا أحد ينتظرنى فى البيت وليس عندى عمل بعد الاستقالة، ويمكن أن أبقى معك قليلا إن شئت.

دخلنا إلى الكافيتيريا، نكهة القهوة تملؤنى بالانتعاش، أتشمم النكهة، أملأ بها صدرى فى شهيق عميق، ألامس بطرف لسانى رغوة اللبن المغلى الممزوج بالبن، يحترق طرف اللسان من شدة السخونة، مع ذلك لا أتغط ولا أتوقف عن تكرار أرتشاف السطح الملتهب، كما كنت أفعل فى طفولتى، أرشف الشاى واللبن المغلى، يتصاعد البخار إلى أنفى، أتلقاه فوق وجهى، تمتصه مسام بشرتى، أقضم على قطعة الكرواسان كأنما هى الفطيرة التى كانت أمى تخرجها من الفرن، وهو يرمقنى بعينين يكسوهما البريق، كأنما رأيت هذا البريق وهاتين العينين فى مكان وزمان لا أدرى عنهما شيئا، كأنما أنا أجلس فى هذه الكافيتريا فى مطار هيثرو منذ زمن بعيد، منذ وعيت الحياة وأصبح عندى ما يسمى الوعى، كأنما سأبقى جالسة هكذا فى مكانى إلى آخر الزمن، حتى يتسرب منى الوعى وأموت.

بعد لحظة واحدة أفيق إلى أننى أجلس إلى رجل غريب، تصادف أن جلس إلى جوارى فى الطائرة من نيويورك إلى لندن، أننى أجلس معه فى الكافتيريا داخل صالة الترانزيت، أقرأ كلمة "الترانزيت" باللغة الإنجليزية، أعرف أنها تعنى الانتظار المؤقت الذى سوف ينتهى عاجلا بعد دقائق أو ساعات قليلة.

- أنت شاردة تماما فيم تفكرين؟!

- هذه الحياة غريبة جدا، تصور أن ...

- نعم أتصور أن الصدفة أغرب من الخيال.

- عندنا مثل عربى يقول: رب صدفة خير من ألف ميعاد.

- هى تبدو لنا صدفة، لكنها ليست صدفة، وقد ركبت آلاف الطائرات وجلس إلى جوارى آلاف الرجال والنساء ومع ذلك لم أتبادل كلمة واحدة مع أى منهم، إنها ليست صدفة يا ..... فجأة توقف عن الحديث، إتسعت عيناه بدهشة، تصورى لم أعرف إسمك حتى الآن! أنت عرفتى إسمى من الجارديان، لكن أصدقائى ينادوننى باسم "بيل".

- اسمى نوال يا بيل.

- نافال؟!

- نوال، بالواو.

- ناوال.

- لا توجد ألف بعد النون، نوال.

- نوال؟

- أيوه هذا صح!

- يا له من إسم عجيب، نوال!

أصبح ينطق الإسم على نحو صحيح، لم تكن كلمة "نوال" سهلة النطق لمن لا يتكلمون اللغة العربية أغلب أصدقائى الأجانب وصديقاتى ينطقون إسمى "نافال" أو ناوال، دائما بالألف بعد النون، لكنه أصبح ينادينى نوال كأنما يعرف اللغة العربية.

- هل تعرف بعض كلمات عربية يا بيل؟
- كلمات قليلة جداً مثل شوكرن.
- شكرا وليس شوكرن.
- شوكرا.
- شكرا، بدون الواو بعد الشين.
- شكرا
- أيوه هذا صح.
- شكرا نوال.
- الإسم يأتى أولا، نقول: نوال، شكرا، وليس شكرا نوال.
- - نوال، شكرا.

أطلق ضحكته الطفولية المعدية، ضحكت وأنا أعلمه النطق الصحيح، وهو ينطق الحروف بدقة كأنما سيتكلم اللغة العربية حتى الموت، وأنا أضحك كما كنت أضحك فى المدرسة الإبتدائية فى منوف.

- سأقول لك سر يا نوال، لو قلتى لى تعالى معى إلى القاهرة سأشترى تذكرة وأركب معك الطائرة الساعة الرابعة، لكنى أعرف أنك لن تقولى هذا، لأنك إنسانة عاقلة، وأنا أيضا عاقل، لكن هذا العقل جعلنى سجين الوظيفة ثلاثين عاما، هذا العقل قضى على سعادتى فى الحياة ولقد جاءتنى بعض الفرص القليلة لأخرج من السجن لكنى كنت أخاف، منذ عشرة أعوام تقريبا، قابلت إنسانة مثلك فى مؤتمر الأمم المتحدة فى جنيف عام 1986، كدت أترك

كل شىء وأسافر معها إلى ريو دى جانيرو، لكنى تراجعت وعدت إلى السجن، مثل المحكوم عليه بقرار مؤبد من قوة عليا مجهولة.

- ربما هى مارجريت تاتشر، أطلق ضحكة ثم واصل الحديث،

- تقريبا كل عشر سنوات ألتقى بهذا النوع من الناس، نساء أو رجال، هذا النوع من الصداقة النادرة التى لا تعرف الفروق المصنوعة بين البشر، لا الجنس ولا الجنسية ولا الدين ولا اللون ولا العرق ولا إسم العائلة، فقط الإسم الأول، نوال.

حين نظرت إلى الساعة وجدتها الواحدة والنصف، مضت ستة ساعات ونصف ونحن نتكلم دون أن نشعر، كانت الكافيتريا قد ازدحمت بالمسافرين، ناس يجيئون يجرون حقائبهم ثم يروحون، ويأتى غيرهم بحقائبهم ثم يمضون فى حياتهم دون أن يتركوا وراءهم أثرا، أتأمل وجوه المسافرين، رجال ونساء وأطفال، كأنما رأيت هذه الوجوه من قبل فى كل المطارات، وهذه الحقائب يجرونها فوق العجلات، وهذه الفتاة الجرسونة التى تحمل الصينية فوقها الصحون والأكواب وتجرى بين الموائد، وصوت الملاعق، وفرقعات سدادات الزجاجات، وصوت الثلج داخل الكئوس، ورائحة الشواء والطواجن الخارجة من الفرن.

- لابد أنك جائعة وقد أتى موعد الغداء، أنا شخصيا أشعر بجوع غريب، ماذا تشربين قبل الغداء، جين تونيك؟!

- حكيت له عن صديقتى بطة وأول مرة أسمع كلمة الجين تونيك منذ سبعة وثلاثين عاما فى عيادتى الطبية، بميدان الجيزة عام 1959، بعد وفاة أبى.

- أنت طبيبة يا نوال؟

- نعم، ولكنى كرهت المهنة، أغلقت عيادتى منذ سنين طويلة.

- وماذا تعملين الآن؟

- أكتب روايات وقصص!

- فانتاستيك! أنت مجنونة يا نوال، وأنا أحب هذا الجنون، أنجذب إليه لأنى افتقده، لقد فقدت جنونى ثلاثين عاما داخل السجن، أصبحت موظفا بالأمم المتحدة أشارك فى مهنة السياسة الدولية دون أن أومن بها، وأخيرا بعد ثلاثين سنة أحرر نفسى، لكن بعد فوات الأوان يا نوال، كان حلم حياتى أن أكون موسيقيا مثل شوبان أو موتسارت.

- ليس هناك شىء إسمه فوات الأوان، أنت لازلت فى ريعان الشباب يا بيل.

- لكنى أرى نفسى فى المرآة كهلا عجوزا.

- المرآة خادعة وكاذبة مثل قرارات الأمم المتحدة! ضحكنا ونحن نرشف الجين تونيك ثم طلبنا زجاجة النبيذ الأحمر، مع السمك المشوى وطاجن أرز فى الفرن، وسلاطة خضراء من الخيار والطماطم والخس.

ثم سمعنا الصوت يعلن فى الميكرفون عن توجه المسافرين للقاهرة إلى باب الخروج رقم أربعة. سار معى حتى باب الخروج، توقف لحظة يصافحنى، تظاهرت أننى لا أرى عينيه، ابتسمت وأنا أشد على يده وأقول:

- سنلتقى مرة أخرى يا بيل.

- هذا أكيد يا نوال، سأكتب إليك ومن يدرى ربما تريننى فى القاهرة قريبا جدا.

* * * *

إستدرت قبل أن أختفى وراء باب الخروج، رأيته واقفا يلوح لى بيده، عيناه فيهما حزن عميق، سرت نحو باب الطائرة بخطوات بطيئة ثقيلة، جلست فى مقعدى بجوار النافذة، دخل رجل وجلس فى المقعد المجاور لى، وجهه أبيض منتفخ باللحم، كتفاه عريضان مثل مروضى الثيران فى أسبانيا، خلع الجاكت وناوله للمضيفة بحركة ذوى السلطة والنفوذ، جلس وملأ المقعد بجسده الضخم، فتح حقيبة سوداء سامسونايت وأخرج منها بعض الأوراق، راح يبحلق فيها بعنين جاحظتين قليلا، أسند رأسه إلى الوراء، ثم راح فى سبات عميق.

* * * *

فى مطار القاهرة كان ينتظرنى شريف، ومنى وعاطف، الوجوه الثلاثة الحميمة رأيتها تطل علىَّ وأنا أخرج من الباب أجر العربة فوقها الحقائب، تعانقنا بحرارة الشوق والحب، سرت بينهم أملأ صدرى بنسمة الوطن الدافئة، فى الليل قبل أن يحوطنى شريف بذراعيه حكيت له ما حدث فى مطار هيثرو. ابتسم شريف بهدوئه المعتاد وقال، أول ما شفتك فى المطار قلت نوال راجعة من مغامرة مثيرة، مشكلتك يا نوال إن كل حاجة بتبان فى عنيكى، وضحكنا كما كنا نضحك منذ ثلاثين عاما حين كنا نحكى عن المغامرات قبل الزواج.